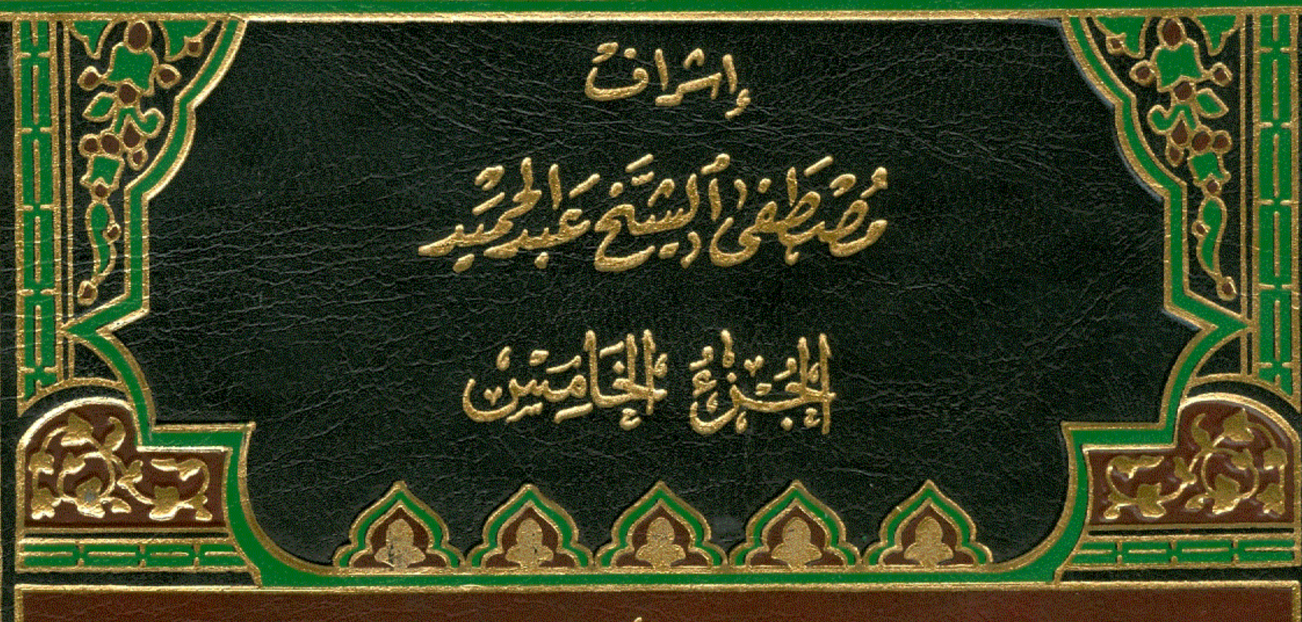
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الخامس

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث





إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الخامس

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة - ط١ -

ص.ب: ٢٤/١٩٧ - برج البراجنة - بعبدا ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢

سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٢٣ - السيدة زينب - تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١ ٦٤٧٠١٢٤

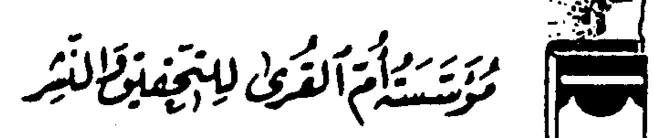
إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤ هاتف: ٧٧٣٨٨٦٥ - فاكس: ٧٧٣٨٨٥٥

البريد الإلكتروني: e-mail: hidayh@shuf.com



لبنان - بيروت - ص.ب: ٢٤/١٩٧





فرع قم المقدسة

ت/ ٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٥٦٤٦

فاكس/ ٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٠٣٨٠

Info@omalqra.com

﴿٩٣﴾

مسائل حسّاسة في حياة المرأة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أساس نظام تقسيم الخلق

تتناول هذه الآية الكريمة جانباً مهماً من جوانب فقه الأُسرة. فالأُسرة عادة يكون قوامها الأبوين؛ ولذا لا تكون مستقرّة متوازنة ما لم يغمرها الرضا والوئام والحبّ، والشعور بأنها كيان متكافئ. وهذا يعتمد بدرجة أُولىٰ علىٰ تصوّر النظام الذي يقوم عليه الخلق وتقسيمه إلىٰ ذكر وأُنثىٰ؛ ذلك أن بعض الناس يبني تصوّراً مخطوءاً حول هذا الأمر، فيظنّ أن الأساس الذي اعتُمد في تقسيم الناس إلىٰ ذكر وأُنثىٰ هو التفضيل؛ أي أن الرجل أفضل من المرأة. وهذا مفهوم مخطوء وتصوّر غير صحيح كما قلنا، بل الصحيح أن الأساس في التنوّع هو التصنيف، لا التفضيل.

---

(١) البقرة: ٢٨٨.

وهذا هو التفسير الطبيعي لكل أصناف الخلق؛ جمادها ونباتها وحيوانها؛ ولذا لا يمكن القول بأن هذا النبات أفضل من الجبل؛ إذ كل واحد منهما له دوره في هذا الوجود والذي يؤدّيه ويقوم به، وهو ما خلقه اللّه له وهيّأه لأجله[١]. فاللّه تعالىٰ قد خلق كلّ موجود لوظيفة معينة في هذا الوجود، وعليه أن يؤدّيها علىٰ أتمّ وجه، وكيّف كلّ موجود تبعاً لوظيفته تلك.

هل الحاجة تخلق الوظيفة

وهذا الأمر ينطبق تماماً علىٰ المرأة؛ فصحيح أن المرأة عندها فوارق كثيرة تميّزها وتختلف بها عن الرجل، لكن هذا لا يعني أن الرجل لا يتّصف بفوارق تميّزه عنها. وهذه الفوارق لم تخلق عبثاً ولم توضع اعتباطاً، إن نظرية دارون تقول: إن الوظيفة تخلق العضو، والواقع أن الحال عكس ذلك، فالعضو هو الذي يخلق الوظيفة. وبناء علىٰ نظرية دارون يكون احتياج الطير إلىٰ الطيران هو الذي يخلق له الجناح، واحتياج السمكة إلىٰ السباحة هو الذي يخلق لها الزعنفة. ومعنى هذا أن شعور الطائر بالطيران وشعور السمكة بالسباحة خلق عندهما تلك الأعضاء المناسبة لتلك الوظائف التي احتاجا إليها، وكذلك الحال في المرأة؛ فإنها عندما احتاجت للحمل خلقت هذه الحاجة عندها الرحم.

وهذا إنكار للبديهة؛ فإن اللّه تعالى قد صمّم كلّ كائن بدقّة ووفق متطلّبات حياته وحاجاته: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]؛ فالمرأة مكيّفة لأداء وظيفتها ومهيّأة للقيام بدورها، والرجل كذلك.

---

(١) فكلّ مخلوق ميسّر لما خُلق له. (٢) القمر: ٤٩.

المبحث الثاني: حقوق المرأة وواجباتها

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾، والمراد بهذا المقطع الشريف من الآية المباركة ـ كما هو مرويّ عن مجاهد[١] وجماعة ـ: أربعة أُمور تخلق لوناً من الحساسية عند المرأة، وهي:

الأمر الأوّل: مسألة الطلاق

فالبعض يتساءل: لماذا لا تعطىٰ المرأة حقّ الطلاق كما أُعطي الرجل ذلك، بحيث إنه بهذا أصبح يتحكّم بحياتها ومصيرها؟

والجواب عن هذا بأن يقال: إن الطلاق من المسائل الخطرة في حياة كل أُسرة؛ ذلك أنه يهدم الأُسرة ويفكّك المجتمع؛ ولذا عبّر عنه الحديث النبوي الشريف بأنه يهتزّ له العرش، قال ﷺ: «**تزوّجوا ولا تطلّقوا؛ فإن الطلاق يهتزّ له العرش**»[٢]؛ فالأبوان حينما يهدمان الأُسرة فإنما يخلقان مشروع جريمة. فمسألة الطلاق مروّعة جدّاً، ولأجل هذا احتاط المشرّع احتياطاً كبيراً بمسألة الزواج، فقد أوصىٰ المسلم بوصايا وطالبه بألّا يحيد عنها، ومنها ما جاء في صفة الزوجة كقوله ﷺ: «**تخيّروا لنطفكم**»[٣]، وقوله ﷺ: «**اظفر بذات الدين تربت يداك**»[٤]، وغيرها من الأحاديث[٥].

فالمتعيّن التريّث في هذه المسألة وعدم الركون إلىٰ العجلة والتشنّج في

---

(١) انظر تفسير الثعالبي ١: ٤٥٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٣) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

(٤) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٥) كقوله ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن». تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، كنز العمال ١٦: ٣٠٠ / ٤٤٥٨٧.

تنفيذ الرغبات؛ لأن المرأة هي التي تصنع الحياة؛ ذلك أن الولد يتعلّق أولاً بأُمّه ثمّ بأبيه. كما أن انشداده لأمّه أكثر من انشداده لأبيه؛ بحكم هذه الأوّليّة. فإذا طُلّقت الأم تحوّل إلىٰ كيان تائه مفتقر إلىٰ المودّة والعطف.

ومن المقدّمات التي ألزمنا اللّه تعالىٰ باتّباعها هي أن نتعامل مع الأُسرة وفق قنوات خاصّة رسمتها لنا السماء. فمثلاً كيف ندخل إلىٰ البيت وكيف نخرج منه، وتحديد مدىٰ الصلاحيات التي يجب أن يكون عليها الإنسان قبل الإقدام علىٰ الزواج. فأمر المحافظة علىٰ كيان الأُسرة قويّاً صلباً وعلىٰ سلامة الجيل الجديد هو أمر حيوي جدّاً من وجهة نظر المشرّع.

وفي حال تعذّر إصلاح الزوجين يؤتىٰ بحكم من أهل الزوج وآخر من أهل الزوجة ليحاولا التقريب بين وجهات نظريهما، وليذكّراهما بخطورة الطلاق وآثاره السلبيّة علىٰ الرجل والمرأة والأطفال علىٰ حدّ سواء، وليبيّنا لهما أن الضحيّة الأسوأ حظّاً من هذه الأُسرة هم الأطفال الذين سيضيعون في مسالك الحياة التي ربما قادتهم إلىٰ الجريمة. فإن تعذّر ذلك ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ﴾[1]، حيث يؤول الأمر إلىٰ الطلاق.

من غرائب مسائل الطلاق

وهناك نظريّات عند المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ حول الطلاق تعدّ غريبة في بابها، ولا تلتقي مع الخطوط العامّة للإسلام؛ فمثلاً لو أراد أحد أن يقول لزوجته: أنت طاهر، واشتبه فقال: أنت طالق، فإنها تطلق منه. والمعلوم أن العقود[2] تقع بالقصود، والقصد هنا غير متحقّق؛ فما وقع لم يقصد، وما قصد

---

(١) النساء: ١٣٠.

(٢) ليس المقصود به العقد الاصطلاحي، بل العزم، وإلّا فإن الطلاق إيقاع وليس عقداً.

لم يقع، فكيف يحكم بوقوع الطلاق؟

وكذلك لو قال لها: أنت بتّة، فقد طلقت منه[1]. وعند بعض أنه لو قال لها: أنت طالق، لمرّة واحدة حرمت عليه ولا تحل له بعدُ حتىٰ تنكح زوجاً غيره. لكن الحقّ أن بعض الفقهاء عاود النظر في مثل هذه الأحكام.

إذن هناك ثغرات واضحة في نظرية الطلاق لا سبيل لقبولها أبداً، فالمرأة إذا طُلّقت هُدمت أُسرة بكاملها، ولذا يجب أن تراعىٰ الضوابط الشرعية بدقّة حتىٰ لا نصل بالمجتمع إلىٰ هذا الحدّ.

مشاكل الزواج غير المدروس

كما أن هناك مسألة يجب مراعاتها عند الإقدام علىٰ الزواج، وهي اختيار الزوج المناسب والتحقّق من أخلاقه: «**ابنتك كريمتك فانظر لمن ترقّها**»، فتأكد ممّن ستزوّجه منها، واستوثق من أخلاقه وقيمه وعاداته، فلا تنظر للأُسرة والمال، بل ليكن مقياسك: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. ما أكرم النساء إلّا كريم، ولا أهانهن إلّا لئيم**»[2]. ففكّر بأن تختار لها الزوج الصالح.

وكذلك الأمر باختيار الزوجة فلا تكن الضابطة في اختيارها هي جمالها، فمجرّد الجمال لا يكفي هنا، والطلاق له مشاكل عدّة، وأغلبه ما يكون ناشئاً من التسرّع في أمر الزواج وعدم التروّي فيه. فالطلاق غالباً ما يقع حتماً في مثل هذه الحالات. ومن نتائجه:

أوّلاً: ضياع الأولاد.

ثانياً: خلق حالة من النفرة والتباغض بين أُسرتي الزوجين.

---

(١) الأم ٥: ١٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٠٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٧٩.

(٢) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمّال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٣.

ثالثاً: فوات فرصة الزواج ثانية علىٰ المرأة. وهذه النظرية هي واقع مجتمعنا؛ حيث إنه ينظر إلىٰ المطلّقة علىٰ أنها لا يصحّ الزواج منها؛ فيلام كلّ من أقدم علىٰ خطبتها. بل نجد هذا حتىٰ عند المسيحيين؛ ففي إنجيل متّي: «من يتزوّج مطلقة فإنه يزني»[١]، وفي إنجيل مرقس الإصحاح العاشر: «إذا طلقت المرأة ثمّ تزوّجت فقد زنت»[٢].

مع أن الأمر علىٰ عكس ذلك، فإن المرأة إذا تزوّجت فقد سُترت، وكلّنا يعرف ما يترتّب علىٰ ذلك من ثواب وأجر عند اللّه تعالى. ثمّ إن هذا الأمر بالتالي سيكون ستراً للأُسرة وللمجتمع؛ فأسرتنا بلدنا، والمسلمون إخواننا.

فلهذا جُعل الطلاق بيد الرجل، وهذا الذي عليها، لكن ما لها مقابل ذلك؟ إن من حقّها أنت تشترط العصمة في أصل العقد[٣].

وفوق ذلك يمكن أن يقال: إن معظم وظيفة المرأة في البيت؛ لأنها هي التي تصنع الأجيال، فهي التي تسكب علىٰ الطفل من حنانها ورعايتها ما لا يستطيع الرجل أن يوفّر له عشره. لقد وضع اللّه تعالىٰ فيها هرموناً يسمىٰ هرمون «البرولاكتين»، وهو المعروف بهرمون الأُمومة، وهو هرمون إذا أفرزته غدد خاصّة في جسمها تحوّلت إلىٰ كيان كلّه شفقة، حيث إنها تلتذّ حينذاك بهزّ مهد الطفل وبرضاعه ورعايته وتنظيفه، وهو ما لا يوجد عند

---

(١) إنجيل متّي / الإصحاح: ٥، الآية: ٣٢.

(٢) إنجيل مرقس / الإصحاح: ١٠، الآية: ١١.

(٣) هذا ما عند الذاهب الأُخرى، أما عندنا فلها أن تُعطى حقّ تطليق نفسها بالوكالة على اختلاف بين فقهائنا﵏ فيه؛ فمنهم من ذهب إلى جواز ذلك، ومنهم من منعه، ومنهم من تردّد فيه. انظر: المبسوط ٢: ٣٦٥، مختلف الشيعة ٦: ٢١، السرائر ٢: ٨٧، شرائع الإسلام ٢: ٤٢٢.

الرجل؛ لأن هذا من أصل تركيبها كما مرّ.

الأمر الثاني: معنىٰ كونها ناقصة عقل

إن المرأة تحتاج إلىٰ غزارة في العاطفة كي ترسم الهدوء والشفقة في البيت الذي تسكنه، فالبيت الذي ليس فيه امرأة لا تجد فيه لمسات الحنوّ والدعة واللطف؛ فهي ـ كما أشرنا ـ تمتاز بأن لها عاطفة أكثر من الرجل؛ وكذلك تستطيع أن تبقىٰ ساعات وساعات تناغي الطفل وتداعبه. ولذا فهي ليست ناقصة عقل، بل إن عاطفتها تطغىٰ علىٰ إرادتها وتفكيرها العقلاني، وهو ما يقابله العكس عند الرجل، حيث إنه ليس عنده عاطفة كبيرة كتلك التي عند المرأة، بل إنه يطغىٰ علىٰ إرادته الجانب العقلاني؛ ذلك أنه يفكر أكثر فيما يحتكّ به من مشاكل الحياة ومواطن الصراع معها؛ ونتيجة لهذا فإنه يمتلك غزارة في إرادته. وهذا هو السبب الذي من أجله وضع اللّه عصمة الطلاق بيده دونها.

وربما يقول قائل: إن هناك من الرجال من لا أهمّية له في المجتمع ولا إرادة.

فنقول: هذا صحيح، لكنه ندرة وليس هو القاعدة التي يكون الرجال بمقتضاها ذوي إرادة وقوة.

هذا في المجتمع الإسلامي، أما في المجتمعات الغربيّة فالرجل والمرأة كلاهما معاً في العمل وفي المؤسسات، وكلّ واحد منهما يعول نفسه، فكلّ منهما يصارع الحياة بمفرده. فالمرأة هناك تطالَب بالعمل خارج البيت أما في الإسلام فهي لا تطالب بذلك، بل إن الإسلام يكفل معيشتها ويطلب منها رعاية بيت الرجل وتربية أطفاله وتنشئتهم، وجعل لها حق المطالبة

بأجر رضاع ابنها من أبيه.

مسألة الشهادة

ويتفرّع علىٰ هذه المسألة مسألة هي الأُخرىٰ خطِرة وخطيرة، وهي مسألة الشهادة، فقد أفرد الشارع المقدّس الرجل في بعض الموارد دون الحاجة إلىٰ شاهد ثانٍ، وكذلك جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهذا ما لم يفعله مع المرأة حيث إنه أعطاها حقّ الشهادة، لكن جعل شهادتها بما يقابل نصف شهادة الرجل: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**﴾. وهذا ربما يثير حفيظة بعض النساء غير العارفات.

غير أن الحقّ يقال، وهو أن المرأة تمرّ بها أيام صعبة وعصيبة، كأيام الحمل والنفاس والحيض، فتكون عرضة للنسيان أكثر، فلذلك اشترط الشارع تضعيف عدد النساء في الشهادة: ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**﴾[1].

الأمر الثالث: مسألة الميراث

ومفاد هذه المسألة هو أن الزوجة لا تورَّث من الأرض، والابنة لها نصف حصّة الرجل. وهذه المسألة ترتبط بالمؤسّسة الإسلامية المالية، ولا يمكن لأحد أن يرفض هذا النظام أو يحاول تغييره بهذه السهولة التي يتصوّرها هذا المعترض. إن هذا الأمر ممّا يحاول به بعض المغرضين النيل من عدالة الإسلام الحنيف والتشهير به، لكن هؤلاء المشهّرين نسوا أو تناسوا أمراً هامّاً جدّاً وهو أن الإسلام الحنيف لم يكلّف المرأة بشيء من الأعمال أو التجارة

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

أبداً، ولم يطالبها بشيء من ذلك، بل إنه كفل لها طعامها وشرابها وملبسها؛ فهي لا تحتاج للمال في شيء، فكل طلباتها مكفولة ومجابة، بخلاف الرجل فإنه الكادّ الساعي الذي يشقىٰ من أجل إعالة زوجته وأطفاله. فالرجل يأخذ حصّته وينفقها علىٰ المرأة، أما المرأة فتأخذ حصّتها وتدّخرها ولا تكلّف من قبل الشرع أو العرف في إنفاقها.

فالواقع أن المرأة هي الرابحة لا الرجل بهذا اللحاظ.

الأمر الرابع: مسألة الجهاد

دخلت أسماء بنت يزيد الأنصارية على النبيﷺ ـ وهو بين أصحابه ـ فقالت له: بأبي أنت وأُمي يارسول الله، إني وافدة النساء إليك، واعلم (نفسي لك الفداء) أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلّا وهي على مثل رأيي. إن الله بعثك بالحقّ إلى الرجال والنساء، فآمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقسورات، قواعد بيوتكم، ومقضىٰ شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحجّ بعد الحجّ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجّاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربّينا لكم أبناءكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبيﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه، ثم قال: «**هل سمعتم مقالة امرأة قطّ أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟**». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفتﷺ إليها ثم قال لها: «**انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها وطلبها**

مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه». فأدبرت المرأة وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً[١].

وأُحبّ أن اُلفت النظر إلىٰ أن الجهاد إذا كان دفاعاً عن النفس فإن المرأة تستوي فيه مع الرجل دون فرق يذكر، أما الجهاد الابتدائي ـ موضوع المقام ـ فإنه ينفرد فيه الرجال دون النساء.

فهذه المرأة دخلت علىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلبت فيه أن يسمح لها ولمن خلفها من النساء بالمشاركة في الجهاد الابتدائي؛ ولذا فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أعطاهنّ وظيفة لا تقلّ أهميّة وأجراً عن وظيفة وأجر المجاهد، فقرّر لها أن جهادها هو حسن تبعّلها لزوجها. وأهميّة هذا الدور لا تخفىٰ علىٰ من له نظر في الأُمور؛ ذلك أن المجاهد إذا كان يلعب دوراً كبيراً وهامّاً حينما يدفع العدوّ بسيفه، ويضحّي بدمه ونفسه بتعريضها للقتل أو الجرح، فالمرأة تدفع العدوّ عن البلد بالحياة؛ لأن وظيفتها خلق الولد الصالح وتربيته وتنشئته تربية وتنشئة صالحتين؛ فتخلق ذلك المجاهد.

وهذه هي الحياة الصحيحة التي تكون من اختصاص المرأة فقط، فالرجل يصارع في معترك الحياة، وعلىٰ المرأة أن تقابل هذا بلمسة رقّة وحنان ولطف في المنزل، وهو ما يسمىٰ بحسن التبعّل المبني علىٰ إحسانها لزوجها وخلق وسائل الراحة له في بيته؛ كي يستعيد فيه ما خسره في صراعه مع الحياة خارجه. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»**؛ لأن الرجل قد كرّس حياته وكيانه لها ولأطفالها.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣.

فوظيفة المرأة إذن هي حسن التبعّل بأن تصنع الحياة السليمة الصحيحة، وتتضافر جهودها مع جهود الزوج لبناء الجيل الصالح. وهذا لا يكون إلّا إذا ساد الحبّ والعواطف المتبادلة حياتهما داخل البيت، وبخلافه يصبح البيت بؤرة صراع. فالمرأة من هذا المنظار تجاهد مجاهدة الرجل في ساحة المجتمع، وقد جعل اللّه تعالىٰ لها علىٰ ذلك أكثر من أجر[١]؛ ذلك أن الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب فقط؛ لأن البعض يأكل ويشرب وهو كالأموات: ﴿إنْ هُمْ إلا كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢]. قال الشاعر:

ليس من مات واستراح بميتٍ — إنما الميتُ ميّتُ الأحياءِ[٣]

وقال غيره في رثاء أحدهم:

أرىٰ الموتَ يحييكم وبعضُ الذي مشوا — على الأرضِ لو فكرت يمشي بهم قبرُ
تشدّ بهم للطينِ سوءُ فعالِهم — وتسمو بكم للنورِ أمثلة غرُّ
كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقىٰ — وفيضٌ من الإصلاح هذا هو العمرُ

بل إن العمر والحياة هما الأخلاق العالية والاستقامة والطيبة، وهذه يصنعها حجر الأُم؛ ولذلك فإن اللّه تعالى جعل لها حكم المجاهد والشهيد وأجرهما، وأن لها بكل طلقة أجر شهيد[٤]؛ لأنها مجاهدة في ساحة المجتمع الداخلي بخلقها مجتمعاً صالحاً وعقيدياً. وقد نصّ رسول اللّه ﷺ علىٰ هذا بقوله: **«جهاد المرأة حسن التبعّل»**[٥]. فالمراد منها هو أن تؤدّي وظيفتها وما افترض

---

(١) انظر إلى قوله ﷺ لأسماء بنت يزيد الأنصارية: «يعدل ذلك كلّه».

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) مجمع البحرين ٤: ٢٧٤ ـ موت.

(٤) انظر: مكارم الأخلاق: ٢٣٨، مستدرك وسائل الشيعة ١: ٢١٤ / ١٨٠٣٧ظ.

(٥) مسند الشهاب ١: ٨١ / ٧٩، دلائل النبوّة: ٧٥، وانظر: الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠،

عليها في بيتها من واجبات إزاء الزوج والأُسرة.

حرية المرأة

فالآية الكريمة تريد أن تقول: إن هذه الأُمور الأربعة يجب ألّا تثير تلك الحساسية عند المرأة، بل حتىٰ لو أثارت نوعاً من الحساسية فإنها يجب إلّا تقع تحت تأثيرها، لأن اللّه قد أعطاها ما يقابل ذلك، لكن بعض الأقلام المأجورة والعفنة تؤدي دوراً سلبيّاً تحاول من خلاله أن تظهر حقدها علىٰ الإسلام؛ فهي تحاول أن تهدم ما يؤسسّه عبر إثارة مثل هذه المسائل.

وهذه الأقلام الحاقدة كانت وما تزال تثير هذه الأُمور الحساسة كي تبعد المرأة عن الإسلام؛ فهي تطرق مواضيع خطرة وكثيرة من قبيل أن المرأة في الإسلام حبيسة وليس لها أي حق. ونحن نتساءل بدورنا: هل كفلت أوروپا للمرأة حياة حرّة كريمة كالتي كفلها الإسلام لها؟ وهل هيأت لها ذلك الجوّ الإنساني الكريم الذي هيّأه لها الإسلام؟ لقد كانت أوروپا قبل قرنين من الزمن تبيع المرأة بشلن واحد في لندن، في حين أن الإسلام وضع الجنّة تحت أقدامها[1].

فهؤلاء الكتاب ينادون بتحرير المرأة بشكل يريدونها معه أن تكون تحت متناول أيديهم في كل زمان وكل مكان متىٰ ما تحرّكت رغباتهم تجاهها؛ في الشارع، وفي سوق البغاء، وفي غيرهما دون مراعاة أي حرمة وقيمة لها.

☚ أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، كما في نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، الكافي ٥: ٩ / ١.

(١) انظر: مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

ونحن الآن بدأنا نأخذ شيئاً فشيئاً بالابتعاد عن روح الإسلام ومبادئه، ولم نعد نعبأ بمفاهيمه وتعاليمه، وإلّا بربّك قل لي: ما هو النقص الذي يعتري المرأة في المجتمع الإسلامي؟ فإن كان في المجتمع الإسلامي من يعامل المرأة بشكل غير إسلامي فإن الذنب ذنبه وليس ذنب الإسلام؛ لأنه لم يروّض نفسه بتعاليم الإسلام وروحه السمحة.

المبحث الثالث: معنىٰ علوّ الرجال علىٰ النساء درجة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، الدرجة هي القوامة، وهي عبارة عن إدارة شؤون الأسرة من قبل الرجل، أي توحيد الزعامة داخل الأُسرة؛ لأن الزعامة إذا تعدّدت تمزقت الأُسرة وضاعت شخصية الطفل. فالمجتمع إما أن يكون أُموميّاً أو أبويّاً أو متوازناً. والمجتمع المتوازن هو المجتمع الصحيح، وكلا الأبوين يتناوبان علىٰ تربية الولد.

فالمشرّع وحّد القوامة وجعلها بيد الرجل، وذلك تحديداً لتنظيم الأُسرة وتوحيدها. وهذه القوامة موجودة في كل أرجاء الكون: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١]، فلو كان هناك إله ثانٍ لما استقام الكون؛ لما يترتّب علىٰ ذلك من تعارض في الإرادات، وهو أمر يؤدّي إلىٰ نهاية الكون. ولهذا أعطىٰ اللّه الإنسان عقلاً واحداً يسيطر علىٰ الغرائز في الجسم ويهذّبها.

المبحث الرابع: دور المرأة في التاريخ

ونودّ الآن أن ننطلق من هنا إلىٰ الأدوار التي قامت بها المرأة في التاريخ وإلى نظرة الناس إليها علىٰ مرّ التاريخ الإسلامي؛ سواء في حضارتنا كعرب

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

أو كمسلمين، حيث إن لها أدواراً مهمّة وضخمة علىٰ الرغم من أن الميراث الاجتماعي ميراث مرّ؛ حيث كانت المرأة محتقرة أشدّ الاحتقار، فالنظرة السائدة عنها أنها كائن منحطّ، وأقلّ مرتبة من الرجل، فجنسها هو الجنس الرديء. وهذه النظرة التي ينظرون بها إلى المرأة لا تخصّ المرأة فقط، بل إنهم يرون أن كل مؤنث رديء ولو كان مكاناً أو حيواناً، فهم إن أرادوا تحقير أحد لقّبوه لقب تأنيث، كقفّة وبطّة وغيرهما، يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1].

وبعض مجتمعاتنا لازالت تعيش حتىٰ الساعة هذه النظرة. كما أنهم كانوا يعيشون حالة من التناقض؛ ففي الوقت الذي كانوا يأنفون فيه من المرأة، بل ويقومون بوأدها نراهم ينسبون البنات إلىٰ اللّه تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[2]، فهم ينسبون الأُنثىٰ إلىٰ اللّه ويأنفون من نسبتها إليهم.

وقد عبّر عنها تعالىٰ بالإناث (البنات) لدافع اقتصادي كانوا يرونه؛ وذلك ليعطّف عليها القلوب؛ حيث إن الرجل ينشدّ للمرأة، وإذا انشدّ إليها كان الربح أكثر. فالأصنام التي كانوا يعبدونها أسموها بأسماء إناث: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثاً﴾[3]. فاللات والعزّىٰ ومناة إناث، وكان يستفيدون مما يؤتىٰ من هدايا ونذورات لها، إذ كانوا يأخذون ما يجلب إليها.

فهم يحتقرون المرأة من جانب، ويعتبرونها غريزة ويستغلّون اسمها من جانب آخر فيعاملونها كغريزة. والذي ينظر للمرأة كغريزة يكون قد احتقرها

---

(١) النحل: ٥٨. (٢) النحل: ٥٧.
(٣) النساء: ١١٧.

وغمطها حقّها ؛ لأنه يغمض عينيه عن عطاءاتها وإبداعاتها.

المرأة في المجتمع الإسلامي

علماً أن أوروپا تنظر إلىٰ المرأة كغريزة، وذلك يظهر جلياً من خلال تعاملها معها، في حين أن المرأة في تراثنا الإسلامي قد أُعطيت دوراً هامّاً فلعبته علىٰ أتم وجه. فابنتا الفِنْد الزماني مثلاً قادتا جيشاً من أضخم الجيوش، وبعد بزوغ شمس الإسلام وسطوع نجمه علىٰ أرض المعمورة، استمرّت المرأة في عطائها ؛ فكان دور الخنساء وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب المازنيّة التي لعبت دوراً لا يُنكر في مجال الحروب وتطبيب الجرحىٰ. وجاء بعد ذلك نساء عالمات فقيهات مجتهدات، وهذا يدلّ علىٰ أن المرأة في الإسلام ليست كياناً منحطّاً عن الرجل كما هو الأمر مع سائر الحضارات، بل هي كيان هامّ له قيمته ودوره ورسالته، وله وظيفته التي تعدّ من أخطر الوظائف في المجتمع.

وليس هناك مثل أضربه لك من أمثلة النساء المسلمات أوضح من سمية (أُم عمار) التي عرّضتها قريش لأشدّ أنواع التعذيب من أجل سلب عقيدتها، فقاومت مستميتة ولم تتخلّ عن عقيدتها ومبدئها الذي هي عليه، وكان أن ربطتها قريش إلىٰ اثنتين من الخيل ومزقتها إرباً بعد أن طعنها أبو جهل بحربة في بطنها. وهي التي قال عنها الرسول الأكرمﷺ وفي زوجها وابنها: **«صبراً آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة»**[١]. وقالﷺ : **«اللهم اغفر لآل ياسر»**[٢].

---

(١) الاحتجاج ١: ٢٦٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٨٣.
(٢) الاحتجاج ١: ٢٦٦، مسند أحمد ١: ٦٢.

وهناك الكثير غيرها من الرائدات الأُوليات اللائي كن في منتهىٰ الشدة والصلابة في الحق، فنحن نقرأ بطولات أسماء بنت عميس في هجرتها إلىٰ الحبشة ووقوفها إلىٰ جانب زوجها جعفر ﷺ، وكذلك أسماء بنت أبي بكر حيث قال لها ابنها عبد اللّه: إني أخشىٰ أن يُمثّل بي. فقالت له: هوّن عليك فإن الشاة لا يضيرها السلخ بعد الذبح[١].

وأسماء بنت عميس حينما جاؤوها بخبر ابنها محمد بن أبي بكر ـ حيث كانت قد تزوّجت من أبي بكر بعد استشهاد جعفر ﷺ، وكان أمير المؤمنين ﷺ يعدّ محمد بن أبي بكر كولده ـ فلم يبدُ عليها أي انفعال، وكان موقفها في غاية الصلابة.

دور نساء بيت الوحي في تاريخ الرسالة

لقد أدّت المرأة المحمّدية أدواراً لا يمكن أن توصف بقلم أو لسان في تاريخ الإسلام وقيام دولته واشتداد شوكته، فلم تكن الأدوار النسوية مقتصرة علىٰ غيرهن من بيوتات العرب، بل كان لهن قصب السبق فيه، والقدح المعلّىٰ كما سنرىٰ. فلقد فقن كل نساء العالم في كل زمان ومكان في أداء تلك الوظيفة والقيام بذلك الدور علىٰ الوجه الأكمل. ولكي نثبت صحّة كلامنا سنضرب مثلين لأُنموذجين من المرأة المحمّدية:

الأنموذج الأوّل: خديجة الكبرىٰ ﷺ

والواقع أن قيام الإسلام علىٰ قدميه مدين لهذه المرأة العظيمة؛ فهي المرأة التي تحمّلت كل الأعباء والآلام في سبيل الدعوة والدين، حتىٰ بذلت كل

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

مالها الذي كان يصفه بعض المؤرّخين بأنه لو وقف رجلان ووضعت بينهما أموال خديجةعليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلٍّ من بدر الدنانير والدراهم[١]. كما ذكروا أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة، وكان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها[٢]. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبيصلى الله عليه وآله وسلم لينفقها في سبيل الدعوة إلى الله.

وكانت (سلام اللّه عليها) أوّل من استقبل رسول اللّه لحظة نزول الوحي السماوي المقدّس عليه، إذ كان قد جاء وهو يرتعد من ثقل ما يحمل من أمر اللّه، فواسته وطمأنته وقالت له: إن اللّه لا يريد بك إلّا خيراً، ودثّرته وأضجعته. ثمّ بعد ذلك راحت تواسيه وتمسح عنه آلامه وجروحه التي كان يلقاها ويصنعها فيه العناد القرشي ورفض الدعوة الكريمة التي جاء بها. فهوصلى الله عليه وآله وسلم ما إن يدخل بيتها حتىٰ تمسح عنه كل الأعباء والآلام والهموم إلىٰ أن أدىٰ رسالة ربّه راضياً مرضياً.

يقول عفيف الكندي: دخلت مكّة فجئت الكعبة لأطوف بها، فنزلت ضيفاً على العباس بن عبد المطّلب، فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلّقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شابّ حتّىٰ دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء فنظر، ثمّ استقبل الكعبة قائماً، وجاء غلام حتّىٰ قام عن يمينه، ثمّ لم يلبث إلّا يسيراً حتّىٰ جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثمّ ركع الشابّ فركع الغلام

---

(١) قريب من في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ٦٣.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المنثور ٤: ١٧٧.

وركعت المرأة، ثمّ رفع رأسه فرفعا، ثمّ خرّ ساجداً فسجدا معه.

فقلت للعباس: إني أرىٰ أمراً عظيماً. فقال العباس: هل تدري من هذا الشابّ؟ قلت: لا. قال: هذا محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطّلب، ابن أخي، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجته، وهذا الغلام عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب ابن أخي أيضاً، وإنه حدّثنا أن ربّه ربّ السماوات والأرض أمره بهذا الدين، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر. وواللّه، ما علمت أن علىٰ ظهر الأرض كلّها علىٰ هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

قال عفيف الكندي ـ وكان قد أسلم بعد ذلك ـ: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي[1].

فكان مبعثه (صلوات اللّه وسلامه عليه وآله) يوم الاثنين، وآمنت هي﵂ في اليوم نفسه، ثمّ وقفت معه بكل كيانها ووضعت تحت تصرّفه ثروتها الضخمة كما أسلفنا، وسخّرت لأجله ولأجل الدين الحنيف كلّ طاقاتها النفسيّة والاجتماعية[2]؛ ولذلك كان رسول اللّهﷺ قد أطلق علىٰ العام الذي توفي فيه ناصراه خديجة وأبو طالب﵄ اسم عام الحزن.

وكذلك فعلت الزهراء (صلوات اللّه وسلامه عليها) مع خليفة رسول اللّه

---

(١) روضة الواعظين: ٨٥، شرح الأخبار ١: ١٧٩ / ١٤٢، مسند أحمد ١: ٢٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٢٢٤.

وروي عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: أتيت رسول اللهﷺ أول ما بعث وبلغني أمره، فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به، فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: «نعم، امرأة وصبي وعبد». يريد خديجة بنت خويلد وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣.

(٢) انظر محاضرة (أضواء علىٰ خطبة الزهراء﵍) في ج ٢ ص ١٧٧ ـ ١٩٢ من كتابنا هذا.

وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام ، حيث وقفت معه في محنته مع القوم بعد وفاة أبيهاصلى الله عليه وآله وسلم .

الأنموذج الثاني: زينب بنت أمير المؤمنينعليه السلام

لقد كان الدور الذي قامت به زينب (سلام اللّه عليها) قبل وقعة الطف وبعدها دوراً عظيماً لايستطيع أي رجل مهما كانت صلابته أن يحتمل وقعه إلّا إذا كان من أهل بيت العصمةعليهم السلام . وكمثال على ذلك فإن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف علىٰ ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك ، فقال قصيدته :

أمن المنون وريبه نتوجّع	والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ
أودىٰ بنيّ فأعقبوني حسرة	عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهُمُ	وتخرّموا ولكل جنب مصرعُ
فالعين بعدهُمُ كأن جفونها	كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمعُ

إلىٰ أن قال :

وتجلّدي للشامتين أُريهُمُ	أني لريب الدهر لا أتضعضعُ [1]

ولكنه في النهاية لم يقوَ على وقع المصيبة فسقط متهالكاً على التراب لا يستطيع الحركة ، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها ، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة ، ليوجد مشهداً من الألم ، ويتسنّىٰ له أن يوجد من يتألّم معه في ذلك المشهد . لكن الحسينعليه السلام وقف صبوراً في محنته ، وللّه درّ السيد حيدر الحلّي إذ يقول :

---

(١) الكنىٰ والألقاب ١ : ٧٦.

له اللّه مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا
ومنعطفٍ أهوىٰ لتقبيل طفله ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا[1]

وهكذا فعل هذا الرجل بعد أن صُرع أبناؤه، ثم وقفت زينب﵁ صلبة قويّة لم تهِن ولم تضعف أمام المحنة، بل وزيادة علىٰ ذلك فإنها كانت تعلم بما سيؤول إليه أمرها، ومع ذلك فقد أصرّت علىٰ المضيّ في هذا الطريق الحاشد بالأشواك؛ كي تؤدّي رسالتها وتدافع عن عقيدة ودين جدهاﷺ وأبيها أمير المؤمنين﵇.

كانت (سلام اللّه عليها) تحمل بيسراها لواء رعاية الأطفال وبيمناها لواء ضيافة الرجال. فهكذا أراد لها الحسين﵇ أن تكون قبل انطلاقة الثورة، كما أنه﵇ رسم لها طريقها ووظيفتها لمرحلة ما بعد انطلاقة الثورة، فكانت﵁ تمسح الألم عن نفس أخيها السبط سيد الشهداء﵇ بوقوفها إلىٰ جانبه، وبتقديمها الدعم والمساعدة له.

من مظاهر صلابة زينب الكبرىٰ﵁ في الطف

وقد تركت (سلام اللّه عليها) بيتها وسافرت مع الحسين، فلمّا وصلوا إلىٰ كربلاء ونزلوا فيها قالت لأبي عبد اللّه﵇: «إن قلبي قد استوحش من هذا الوادي». فقال لها: **«هوّني عليك وتعزي بعزاء اللّه»**. فتعزّت وصبرت ووقفت ذلك الموقف، حتىٰ إنها ضحّت بولديها يحيىٰ وعون وإخوتها وأبناء عمومتها، فذهبت كل أُسرتها أمام عينيها. وكان من مظاهر صلابتها أن وقفت بوجه يزيد وقالت له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ٧٨.

السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأُسارى أن بنا علىٰ اللّه هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتىٰ رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لاتطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[1]؟

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول اللّه ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن وأُبديت وجوههن؟»[2].

إلىٰ آخر خطبتها التي هزّت بها أبعاد المجلس.

ومن مظاهر صلابتها (سلام اللّه عليها) أيضاً أن كانت تمرّ علىٰ جثث الضحايا فتنظر إلىٰ الأعضاء المقطعة والدماء السائلة، وتستمرّ في طريقها حتىٰ تقف علىٰ الأعضاء المتناثرة لأبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، وترمق السماء بطرفها وتقول:

«اللّهم تقبل منّا هذا القتيل قرباناً لوجهك». وهي صلابة ما بعدها صلابة؛ إذ لم يشهد التاريخ مثلها.

ومن مظاهر صلابتها أن كانت تجمع شتات العيال والأطفال في طريق الأسر، وتحمي العائلة في غياب الكفيل، وترجع إلىٰ المخيّم، وتمرّ عليها لحظات الليلة الحادية عشرة من المحرّم:

وسجىٰ الليل والرجال ضحايا … والنساءُ المخدّرات ذهول

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

اليتامىٰ تشرّد وضياع والثكالىٰ مدامع وعويلُ
وعليل عضّت عليه قيود وزنود يفري بها التنكيلُ
ودم شاطئ الفرات سيبقىٰ الـ ـدهر يرويه والربىٰ والنخيلُ[1]

* * *

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها رعباً غداةَ عليها خدرَها هجموا
عجَّتْ بهم مُذْ علىٰ أبرادِها اختلفت أيدي العدوِّ ولكن من لها بِهُمُ
كلٌّ تلوذُ بأخرىٰ خوفَ آسِرِها لَوذَ القَطا خوفَ بأسِ الباشِقِ الضَّخِمِ[2]

والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين. يقول حميد بن مسلم: نظرت إلىٰ امرأة علىٰ باب الخباء وقد أوشكت النار أن تأخذها، فدنوت منها وقلت: أمة اللّه، النار قاربتك. فلم تجبني، فقلت: أمة اللّه، النار علقت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلىٰ صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليَّ قائلة: ياظالم، أنا أرىٰ النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثمّ دخلت عليه فقالت: يابن أخي، ماذا نصنع؟ قال: **«فروا علىٰ وجوهكم في البيداء»**. يقول السيد الحلي:

مشىٰ الدهرُ يومَ الطَّفِّ أعمىٰ فلم يدعْ عماداً لها إلا وفيه تعثَّرا
وجشَّمها المسرىٰ ببيداءَ قفرةٍ ولم تدرِ قبلَ الطَّفِّ ما البيدُ والسُّرىٰ
ولم ترَ حتىٰ عينُها ظِلَّ شخصها إلىٰ أن بدت في الغاضريَّةِ حُسَّرا[3]

* * *

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.
(٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.
(٣) ديوان السيد حيدر الحلي: ٧٨.

يـا رسـولُ البـدارَ إن أنت سـارِ عُـــج إلى طَــيبةٍ بـغيرِ اعـتذارِ

قـــف ونـــادِ بـــرنّةٍ وانكســـارِ (قَـوِّضِي يـا خـيامَ عَـليا نِـزارِ

فلقد قوِّضَ العِمَادُ الرفِيعُ)

* * *

نايم يـخو زيـنب يـواعـي مـــا هــيّجنك هــالنواعــي

* * *

وإن يبكِ اليـتيمُ أبـاهُ شـجواً قَـرَعْنَ سِـياطُهم رأسَ اليَـتيمِ

﴿٩٤﴾

المحاولات الأُموية
والعباسية لمنع صوت الحسين عليه السلام

عثر الدهر ويرجو أن يقالا
تربت كفّك من راجٍ محالا
قبلتْ عذرك إذ نازلتها
بالذرا من هاشم تدعو نزالا

أزلال العفو ترجو وعلى — آل حوض اللّه حرّمت الزلالا
فتراجع وتنصّل ندماً — وتخادع واطلب المكر احتيالا
أنزوعاً بعدما جئت بها — تنزع الأكباد وجداً واشتعالا

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: عثرة الأمويين ومعنىٰ تلافيها

لقد ارتكب الأُمويون أبشع مجزرة في تاريخ البشرية بقتلهم الإمام السبط عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فكانت أعظم عثرة في تاريخ الدنيا كله، وليس في تاريخهم فقط. لكن لم أُسندت العثرة إلىٰ الدهر ؟

مقدّمة في الإسناد المجازي

إن إسناد العثور إلىٰ الدهر هو إسناد مجازي وليس إسناداً حقيقيّاً، فالدهر

وحدة زمنية، والعاثر هو الذي عاش في ذلك الدهر المسند إليه العثرة. والمراد بهم: الأُمويون، وإنما نسبت العثرة إلىٰ الدهر؛ لأنه الظرف الذي عاشوا فيه لحظة عثرتهم تلك(١).

لكن ما هي هذه العثرة؟ العثرة هي خذلانهم الحسين﵇ وقتله في واقعة الطفّ. وهم فعلاً حاولوا تلافي هذه العثرة، لكن لا من باب توبيخ الضمير والرجوع إلىٰ الحق عبر الندم والتوبة، بل هو تلافٍ سلبي، أي أنهم قرّروا أن يتلافوا أثرها المستمرّ في الناس. وهذا ما يمكن أن نسميه (تلافي ذيول الحادثة). فبعد الحادثة ظهرت أُمور وبوادر توحي باستمرار أثر الثورة الحسينيّة، وكان أوّل هذه البوادر صوت ندب الحسين﵇ وأهل بيته وصحابته، فجندت السلطات القمعية أجنادها لإخماد هذه البادرة.. بادرة الاحتفال بذكرىٰ ثورة الحسين﵇، في محاولة لكبت هذا الصوت وجعله ينطوي علىٰ جراحه، وذلك لما يمكن أن تترتّب عليه من آثار، فحتماً إن كل من يسمع شيئاً من هذا القبيل فإنه سيستعلم عن السبب الداعي إلىٰ هذا البكاء والنوح، وإلى أسباب سرد هذا التاريخ.

---

(١) فائدة بلاغيّة: للعلماء في (أنبت الربيعُ البقلَ) أقوال أربعة: مجاز في الإسناد، أو في (أنبت)، أو في (الربيع)، أو أن المجموع كلّه مجاز. وأقسام الحقيقة العقلية أربعة:

الأوّل: ما يطابق الواقع والاعتقاد جميعاً، وهو الإسناد الحقيقي، كقول المؤمن: أنبت الله البقل.

الثاني: ما يطابق الاعتقاد فقط، وهو الإسناد المجازي، كقول الجاهل: أنبت الربيع البقل.

الثالث: ما يطابق الواقع فقط، كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: خلق الله تعالى الأفعال كلّها.

الرابع: ما لا يطابق الواقع والاعتقاد، نحو قولك: جاء زيد، وأنت تعلم أنه لم يجئ.

انظر: شرح سنن النسائي ٢: ١٥، مختصر المعاني: ٣٧.

المبحث الثاني: المحاولات اليائسة لكبت نهضة الحسين عليه السلام

ولهذا فإن واقعة الطف أيام الأُمويين كانت يحتفل بذكراها بشكل محدود جداً، فكان الكميت رحمه الله مثلاً يجتمع بمجموعة صغيرة من الشيعة في مكان بعيد عن العيون فيلهب مشاعرهم بقصيدة يودعها مشاعره وأحاسيسه تجاه القضية الحسينية المباركة.

المحاولة الأولى: خنق أصوات نادبيه

فإن زاد الأمر عن هذا قليلاً فإن بني أُمية سرعان ما يخنقون هذا الصوت ويقضون عليه. ومحاولة الأُمويين في الحدّ من هذه الظاهرة قد فشلت فشلاً ذريعاً عند هذا الحد؛ فالأصوات التي كانت تستعرض واقعة الطف شعراً ونثراً، فتنتشر هذه الظلامة الحسينية وتشير بأصابع الاتّهام إلىٰ الأُمويّين وُوجهت أول الأمر بشدّة بالغة وقسوة كبيرة، لكن الأمر لم ينجح، وانطلق صوت الحقّ هادراً يعبر الآفاق لا يقف عند شيء أبداً. وهكذا فشلت محاولة كبت عواطف الناس، بل ازدادت العاطفة تجاه هذه القضية، وكثرت قصائد الرثاء في الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم).

المحاولة الثانية: تشويه النهضة

إن هذه المحاولة قامت على أساس تشويه أهداف النهضة الحسينية المباركة بتجنيد الأقلام والمشاعر لهذا الهدف. والأقلام المأجورة موجودة في كل زمان وفي كل مكان، فلا يخلو زمان أو مكان من قلم يستأجر ولو لتشويه الحق. وقد انتشرت هذه الحالة بعد واقعة الطف بشكل ملحوظ، فكان يؤتىٰ بأصحاب الأقلام ويطلب منهم إيجاد مبرّر شرعي لقتل الحسين عليه السلام، كأن يطلب منهم إعلان وإيضاح أن الحسين لم يكن لخروجه أي مسوّغ

شرعي أو مستند ودليل عقلي، وأنّه قد تسرّع في خروجه، وأنّه كان عليه ألّا ينجرف وراء هدفه بهذا الشكل؛ لأنّه كان يعلم أن جيشه لا يقاس بجيش السلطة[1]. فالعملية لا تعدو كونها انتحارية وإلقاء النفس في التهلكة مع أن اللّه تعالى يقول: ﴿وَلا تُلقُوا بِأَيدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2].

ومن هذا المنطلق بدأت هذه الأقلام دورها التخريبي والمنحرف لتشويه معالم النهضة الحسينية. وقد لا يختلف اثنان في أنها أكبر محاولة آثمة ومشبوهة عرفها التاريخ، وأكثرها جرماً، وإلّا فهل هناك أفظع من أن يأتي جاهل ليعلّم سبط رسول اللّه ونجل مدينة علمه ما هو تكليفه الشرعي هنا، وما الذي يجب عليه فعله، وما الذي يجب عليه تركه؟ إنها محاولة عجيبة في بابها؛ فأن ترفع أقلام الضلال عقيرتها منادية أن لا تثريب علىٰ يزيد في قتله الحسين؛ لأن يزيد ـ في نظرهم ونظر نفسه ـ إمام العصر، ومن يخرج عليه يجب أن يردّ إلىٰ الجماعة، لهو أمر مشبوه، وعليه أكثر من علامة استفهام.

ووفق هذا المنطق المخادع والمضلل يكون سيد شباب أهل الجنة باغياً (حاشاه من ذلك)! و هذا المنطق لا يرجع إلى أيام يزيد فقط، بل إنّه يمتدّ إلىٰ أمد أبعد منه، وكمثال علىٰ ذلك لمّا قتل عمّار بن ياسر ـ وما أدراك ما عمّار ابن ياسر، هذا الذي قال فيه رسول اللّه: **«إن عماراً مُلِئ إيماناً من**

---

(١) سيأتي دور كل من ابن عربي والحسن البصري وغيرهما في تفعيل هذا المطلب الأُموي. انظر ج ٥ ص ٣٦، ج ٦ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦، ٣٣٢ من كتابنا هذا.

(٢) البقرة: ١٩٥.

قرنه إلى قدمه»[١]. وقال فيه أيضاً: **«يدعوهم إلىٰ الجنة ويدعونه إلىٰ النار»**[٢].

وقال له: **«يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»**[٣] ـ انتشر الحديث الأخير هذا بمجرد سقوطه في ساحة المعركة شهيداً، وبدأ يُتناقل علىٰ ألسن جيش معاوية؛ حيث بدأت تبرز حالة من التذمّر كونهم وفق منطوق الحديث هم الفئة الباغية التي قتلت عماراً رضي الله عنه. لكن معاوية استطاع بذلك المنطق المخادع أن يضلل الناس؛ وساعده علىٰ ذلك أن في الأرض كثيراً من الناس ممّن تنطلي عليهم هذه الأساليب الملتوية لجهلهم وسذاجتهم، فأعلن في معسكره أن الفئة الباغية هي جماعة علي بن أبي طالب؛ لأنه هو الذي أتىٰ به وألقاه بين لهوات الحرب، وعليه يكون هو الذي قتله بالاشتراك مع جيشه.

ويترتّب علىٰ هذه الأكاذيب تخطئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قد ألقىٰ بخيرة أصحابه بين سيوف المشركين فاستشهدوا، كحمزة وحميّ الدبر وغيره ممّن قتل بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم، ولابد من تحميله صلى الله عليه وآله وسلم تبعة استشهاد هؤلاء كلّهم.

وبهذا تكون الأقلام قد لعبت دورها التخريبي علىٰ أكمل وجه في تضليل الرأي العام وإفساد معتقداته، بل أن ذلك امتدّ حتىٰ لوعّاظ السلاطين من العلماء الذين أفتوا يزيد بجواز قتل الحسين عليه السلام. وهي أنماط من الفتاوىٰ

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠، ولم يذكر الحديث.

(٢) وقعة صفّين: ٣٤٢.

(٣) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

الجاهزة الغريبة في بابها؛ فهي تحلل الحرام وتحرم الحلال من أجل الدنيا وحطامها. ونحن نعلم يقيناً أن هذا يترتّب عليه أخطر شيء في الوجود؛ لأن ما يترتّب عليه هو خسران الدين والعقيدة اللذين لا يعوّضهما شيء ولا يعدلهما عوض. وأمثال هؤلاء يحسن الناس الظن بهم؛ لما يملكون من فكر وقلم، وبالتالي يسهل انخداعهم بهم.

ومثال آخر على ذلك أنهم جاؤوا إلىٰ يوم النكبة ـ يوم العاشر من المحرّم ـ الذي يعدّ يوم حزن، وحاولوا تدليس هذه الحقيقة باختراع واختلاق روايات في فضله واتخاذه عيداً، فلفّقوا فيه أنّه اليوم الذي رست به سفينة نوح[1]، وهو اليوم الذي نزلت به التوراة علىٰ موسىٰ‍، وهو اليوم الذي رفع فيه عيسىٰ‍[2]، وأنّه يستحبّ صيامه[3]، وهكذا أخذت الروايات تترىٰ وتتوالى؛ حتىٰ أصبح هذا اليوم المشؤوم يوم فرح وسرور وحبور تخضب به الأيدي بالحناء، حتىٰ قال الشاعر:

كانت مآتم بالعراق تعدها أموية بالشام من أعيادها[4]

فهذه محاولة أُخرىٰ لتغطية الحقيقة وتضييع الجريمة البشعة التي ارتكبوها في حق الحسين وأهل بيته، وسلب الفادحة آثارَها.

المحاولة الثالثة: تحريم كل تحرّك مماثل لها

ثمّ جاءت محاولة سدّ الباب أمام كل نهضة مماثلة لنهضة أبي عبد اللّه

(١) تاريخ الطبري ١: ١٣١، المعجم الكبير ٦: ٦٩. وقد رواه الصدوق أيضاً، انظر المقنع: ٢٠٨.

(٢) فضائل الأوقات (البيهقي): ٤٤١.

(٣) مسند أحمد ١: ٢٣٩، ٢: ٤.

(٤) ديوان الشريف الرضي: ٣٩١.

الحسين عليه السلام عبر تحريم القيام بها تحريماً قطعياً. ولنأخذ القرطبي كمثال، وهو أحد العلماء المعروفين الذين يقل نظيرهم، وعلمه وفضله ظاهران فيما أودعه في تفسيره، فهذا المفسر حينما يأتي إلىٰ ثورة الحسين عليه السلام يصوّبها لأنّه عليه السلام إمام العصر، لكن يقول: كان الأولىٰ أن يترك الخروج؛ لأنه يستلزم سفك الدماء. وهذا يعني أنها تصبح محاذَرة ومزاحَمة بين مهمّ وأهم. فنهضة الحسين وإن كانت مهمة لكن الأهم منها هو حقن الدماء؛ لأن سفكها يوجب فقد الأمن؛ ولذا كان الأجدر بالإنسان أن يجلس في بيته في مثل هذه الحالات.

وهذا أمر عجيب؛ لأن لازمه ترك الدفاع عن كل المقدّسات لما في ذلك من إراقة دم، وبهذا نحكم علىٰ بطلان الثورة الفلسطينية لأنها حركة أُريق فيها الكثير من دماء الفلسطينيين بسبب العنجهية الإسرائيلية. وهل هذا إلّا تحكّم وتعطيل للأحكام؟

وكأن معنىٰ هذا توجيه خطاب للفلسطينيين يقال فيه: كونوا جليسي بيوتكم ولا تقاوموا اليهود الذين يتحكّمون فيكم، ويأخذون أموالكم وبيوتكم، ويستحلّون منكم ما حرّم اللّه.

ومن هذا يجب أن نوقف كل النهضات التحرّرية في العالم الإسلامي ضد الاستعمار والظلم، وأن نطالبها بالخضوع للذل والقهر، وإلّا فقد الأمان.

ومثل هذا اللون من الفتاوىٰ موجود عند المذاهب الأربعة [1]، وإلّا كيف يمكن الموافقة علىٰ فتوىٰ تطالب المسلمين بالخضوع وعدم التحرك ضد الحاكم الذي يأتي من بلد آخر أو من البلد نفسه وليس له مؤهل غير القوة

---

(١) كما مرّ ـ إضافة إلىٰ مواقف الحسن البصري وابن عربي إزاء ثورة الإمام الحسين عليه السلام ـ من موقف وابن عمر إزاء ثورة الحرّة، فراجع.

فيثب إلىٰ السلطة ويأخذها ويمارس كل الوان الظلم والتعسف ضد أبناء هذا البلد؟ بل إنهم يذهبون إلىٰ أن من بات ولم يبايعه ثم مات مات كافراً [١].

وهو رأي غريب جداً، وإلّا فلماذا ندب اللّٰه الأنبياء للوقوف بوجه الظلم والطغاة والبغي: ﴿اذهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [٢]؟ وكيف يلتئم ما يذهبون إليه مع الأدلّة؟

نعم إن ما يذهبون إليه منصبّ في الدرجة الأُولىٰ علىٰ ستر الواقعة الحسينية بما جنّد الأُمويون لذلك من أقلام.

ويتعدّىٰ الأمر إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، فكان كل من يحاول أن يقوم بمثل هذا التحرك فلابد من أن يقتلع من جذوره وأن يعدم من الوجود. ولكن هل نجح الأمر؟ بالطبع لا، فسقوط الأُمويين كان باسم الدم الذي أراقوه؛ إذ كان شعار العباسيين الذي رفعوه إبّان الثورة (يالثارات الحسين)، وهو شعار كان الأُمويون يخشونه أشدّ الخشية، حتىٰ إنهم حرّكوا مجموعة من الفقهاء ـ كما أسلفنا ـ لإصدار فتاوىٰ بشرعية قتل الحسين‌عليه السلام. وأنا في هذا المقام لا أُريد أن أقدح في علماء المسلمين لكن ما أُريد قوله هو أن بعض هؤلاء إما أنه لم يكن له دليل ناهض، أو أنّه أُخذ علىٰ حين غفلة فأفتاهم بما أرادوا [٣].

وهكذا سقطت دولة الجور بشعار الدماء التي أراقتها، مع أن العباسيين قد وقعوا في هذه المفارقة أيضاً، وتجددت المطاردة خلف أشياع الأيمة‌عليهم السلام

---

(١) انظر صحيح البخاري ٨: ٩٩، صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢.

(٢) طه: ٢٤.

(٣) فكان ابن عربي يقول: إن الحسين قد قتل بسيف جدّه: انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

وأصحابهم، وعاد شبح الحسين عليه السلام يهددهم، وكان كل ما يخشونه أن الحسن والحسين عليهما السلام ولدا رسول اللّه؛ فهما أحق بالخلافة. وهذا يعني أنهم ـ العباسيين ـ مغتصبوها من أصحابها الشرعيين؛ سواء من منظار النظرية العربية القائلة بوراثة الحكم، أو النظرية الشرعية التي نصّت عبر سنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله على إمامة الحسن والحسين عليهما السلام.

ولأجل تلافي هذه المشكلة لجأ العباسيون إلىٰ عدّة محاولات منها ادّعاؤهم أن الحسن والحسين عليهما السلام ليسا ولدي رسول اللّه صلى الله عليه وآله، بل هما ابنا بنته، وأولاد البنت ليسوا أولاداً حقيقيين، وإنما هم أبناء مجازيون، حتىٰ قال أحد الشعراء المتزلّفين:

لكم رحم يا بني بنته ... ولكن بنو العم أولىٰ بها
قتلنا أمية في غابها ... فنحن أحق بأسلابها
ونحن ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها [1]

وهكذا انتشرت هذه الفكرة وهي أن الأم مجرد مستودع يوضع فيه الولد لا غير، واقتنع بها المأمون فكان يردد:

لا تَزدَرِينَ فتىً من أن تكونَ لهُ ... أمٌّ من الرومِ أو سوداءُ عجماءُ
فإنّما أمّهاتُ النّاسِ أوعيةٌ ... مستودَعاتٌ وللأنساب آباءُ [2]

واستمرت الملاحقات والمطاردات حتىٰ عمدوا إلىٰ القبر الذي يرون أنّه منبع لهذه الصرخات فسوّوه بالأرض، بل حرثوا القبر وما حوله، وسلطوا الماء عليه كي تضيع معالمه. وحينما حاول الناس الاهتداء إلىٰ القبر عبر

---

(١) ديوان ابن المعتزّ: ٢٩.

(٢) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

شجرة كانت قريبة منه، عمدوا إلىٰ الشجرة واقتلعوها؛ لأنها بنظرهم تمثل خطّ صاحب القبر، قال الشاعر:

مولاي يومك ما يزال كأنه ... في الدهر ريان المدىٰ يتأشّب

إلىٰ أن يقول:

فدمٌ أريق كأنه من جدّة ... للآن يعبق في الثرىٰ ويخضّبُ

فكانت فكرة محو القبر أفضل وسيلة للقضاء علىٰ هذا الدم النبوي الذي يتجدد في هذه الأرض كل يوم ويسري بها فيخضّبها، واختفىٰ كل أثر للقبر:

تالله إن كانت أميّةُ قد أتَت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبرُه مهدوما

أسفوا علىٰ ألا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما(١)

وكل ذلك لأجل ألّا توحي تلك الدماء الزاكية بمبادئ ثورته المباركة وأنها رفْضٌ للظلم والقهر والباطل، وقد وقفت بوجه الطغاة. لكن هذه المحاولة فشلت أيضاً، فكانوا يمنعون الناس من زيارة المكان نهاراً فيقصده الناس ليلاً، وكانوا يرمون الحرس الذين يمنعون الناس عن الزيارة بنبالهم، حتىٰ إن بعض الروايات قد نقلت أن الجن أو الملائكة هم الذين يرمونهم(٢)، مع أن الأمر خلاف هذا.

وهكذا كانوا يقفون عند القبر الشريف فيبردون غليلهم بأن يسكبوا

(١) الأبيات للبسّامي أبي الحسين علي بن محمد بن نصر. سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥، وقد نقل البيت الثالث فقط، البداية والنهاية ١١: ١٤٣.
(٢) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

عواطفهم ومشاعرهم أمامه، فيستوحوا الثورة منه.

وما إن جاء العهد العثماني حتىٰ تجددت المأساة، فكانت لفظة الحسين مرعبة لهم. وقد يقول قائل إن من العثمانيين من يحب الحسين، فنقول له: نعم هو كذلك، لكن هؤلاء صوفية ولا يزال منهم مجاميع إلىٰ الآن في تركية وهم يحبون الحسين حباً شديداً لكن لا من حيث يتوجّب، بل هو حبٌ لا علاقة له بموضوعنا الذي نتكلم عنه الآن.

المحاولة الرابعة: تسفيه القضية وتفريغها من محتواها

علىٰ أية حال نحا العثمانيون منحىٰ العباسيين والأُمويين، وكان من محاولاتهم أن حالوا تفريغ قضية الإقبال علىٰ الدين من رؤوس الناس؛ فبدلاً من أن يحملوا فكر الحسين وفكر الرسولصلى الله عليه وآله وسلم أرادوا لهم أن يحملوا المظاهر منها، وأن يكون هذا الأمر مجرد معنىٰ ظاهري في أذهانهم. ولأجل تفريغ هذا المحتوىٰ جاؤوا بملابس ووضعوها في صندوق ونسبوها لرسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم، ودعوا الناس إلىٰ التبرك بها، ثم جاؤوا بشعرة وعصا فنسبوهما للرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم أيضاً. وكلّ ذلك لأجل إبعاد الناس عن حقيقة تعلّقهم بأهل البيت عليهم السلام.

وبهذا اللون من الشكليات ـ أي بدلاً من أن نقدس الحسين كفكرة أو جذوة تتقد ضد الظلم أو نور يضيء لنا طريق الحرية نقدسه كرداء نتبرّك به ـ كانت الدولة العثمانية تدفع الناس إلىٰ التمسّك بالقشريات.

وجاء الاستعمار ونحا المنحىٰ نفسه لكن بشكل آخر، فقد حاول إظهار الشعائر الحسينية علىٰ أنها مجموعة شكليات ممجوجة. ويجب هنا أن أُنّوه

إلىٰ أننا نساهم مساهمة فعلية في تجسيد هذه النظرة عندهم، وكمثال علىٰ ذلك جاءني جماعة قبل فترة وجيزة بكتاب، وكان عندهم مأتم سنوي، ومما كان في هذا الكتاب أن دين اللّه لا يستقيم إلّا باستخدام (التطبير) وكأن هذا الدين متوقف لا علىٰ أسبابه التي رهنه اللّه بها بل فقط علىٰ التطبير. وهذه قمّة المأساة، ومن هذا القبيل أُمور كثيرة، بل وأكثر من هذا كانوا قد عزموا هذه السنة علىٰ شراء بعير وتمثيل قضية العليل مكبّلاً ثم يدورون به في «الهايدپارك»، فما رأيك بهذه المصيبة؟

إن هؤلاء يريدون أن يحوّلوا الحسين إلىٰ سخرية. وكانوا قد جاؤوني طالبين رأيي في هذا الكتاب، فقلت لهم: لو كان الأمر بيدي لارتأيت قتلهم. فبأي عصر يعيش هؤلاء؟ إنهم يرقصون علىٰ جراحنا ويستغلون مأساتنا، وإلّا فأين واقعنا وجراحنا مما يفعله هؤلاء؟ إنني أُريد من هؤلاء أن يتأدبوا بآداب الحسين، وأن يتخلقوا بأخلاقه، وأن يحملوا عزيمته وفكره. دخل أحدهم علىٰ الإمام الصادق فقال له: سيدي، إن هؤلاء يعيّروننا ويقولون لنا: يا جعفريّة. فردّ عليه الإمام قائلاً: **«واللّه ما أقل من يتّبع جعفراً منكم!»** [1]:

ونسامت بالموت حتى أحالتــ ـــه فتوحاً سخيّة الأرداحِ
لم تفجّر لظاك يهدر بالحــ ـــقّ لتروي قرائح المُدّاحِ
بل لنحيا سعيرهُ مارداً يبـ ـعث للموت سلّماً من أضاحِ

فالحسين لم يجئ من أجل أن يتحول إلىٰ وسيلة من وسائل الابتزاز

(١) الكافي ٢: ٧٧ / ٦.

والخرافات وأمثال هذه ممّا هي محاولات تقف وراءها أيدٍ مشبوهة، بل جاء من أجل أن يكون فكراً معطاءً بل عطاءً شاملاً؛ فلا ينبغي أن ندخل في مجالس عزائه إلّا تحليل شخصيّته العظيمة تحليلاً منطقيّاً، وفهم الدوافع والأسباب الكامنة وراء حركته الكريمة، وتسليط الضوء عل مفاهيمها وأركانها؛ كي نخلق عالماً حسينياً بهذا، لا بتلك المظاهر المشبوهة التي تعكس صورة سيئة عنها.

ومن هذه المظاهر ما يحاول بعضهم إبرازه من تضخيم عدد الذين قتلهم الحسينعليه السلام، وهي عملية مقصودة لتسفيه الحركة والتاريخ، قبل فترة ذكر أحد المؤلّفين أن الحسين قتل يوم عاشوراء اثني عشر ألف رجلاً، ولما التقيته قلت له: لو أردت ذبح إنسان واقف دون أن يقاومك فكم يستغرق ذلك، أنه حتماً سيستغرق زمناً لا يقل عن نصف دقيقة، فعلىٰ هذا كم يستغرق قتل ١٢ر٠٠٠ ألف شخص؟ قال: ستة آلاف دقيقة. فقلت: أي ما يعادل (١٠٠) ساعة، فكيف قتل في ست ساعات المعركة ـ وربما أقل من هذا ـ ما يقتل في (١٠٠)ساعة، بل في أكثر من ذلك إذا لاحظنا مقاومة الكثير منهم؟ فلماذا الركون إلى عدم التثبّت هذا؟

ومما ينبغي التنويه إليه أن الحسينعليه السلام لم يقاتل بمعجزة ولو كان كذلك لكانت كفة المعركة علىٰ غيرما انتهت عليه. إذن فهوعليه السلام قاتل بشيء طبيعي، ومادام شيئاً طبيعياً فلماذا لم تلتزم به؟ إن كنت تريد خدمة الحسين فأنت قد أسأت إلىٰ حركته؛ لأن كل من يقرأ هذا فإنه سيرمي فكرنا بالخرافة والتفاهة.

فإذا أردنا أن نصف شجاعة الحسينعليه السلام فيكفينا أن نقول: إنّهعليه السلام إن نزل

إلىٰ المعركة تحاشته الأبطال[١]. وبهذا نكون قد أعطيناه النعت الصحيح، المناسب له دون أن نستخدم مثل هذه الألفاظ، فنجعلها عاراً علينا وسبّة، وإلّا فوجودنا ومبادئنا أعلىٰ وأسمىٰ وأهم من هذه الترهات، ونهضة الحسين﴿ع﴾ أكبر من كل ذلك:

وضعناك في الأعناق حرزاً وإنما خلقت لكي تُنضىٰ حساماً فتُشرعُ

وصغناك من دمع وتلك نفوسنا نصوّرها لا أنت إنك أرفعُ [٢]

فيجب إذن أن نحلل مواقف الإمام الحسين﴿ع﴾ وعطاءه ونهضته تحليلاً منطقياً عقلانياً، فكل موقف من مواقفه﴿ع﴾ يوم الطف هو دنيا ضخمة، وإن هو﴿ع﴾ إلّا روح إنساني كبير:

ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن حتىٰ علىٰ من قاتلوك حقوداً

فالإمام الحسين﴿ع﴾ سيبقىٰ مناراً ومنبع فكر، والطفّ سيبقىٰ يحمل ذلك الدم شُعَلاً وصوتاً هادراً:

أيا كربلا يا هدير الجراح وزهو الدم العلوي الأبيّ

وياصرح مجد بناه الحسين وأبدع في رصفه المعجبِ

ويا عبقاً في ثرى العلقميّ يشدُّ الأنوفَ إلى الأطيبِ

---

(١) يقول عبد الله بن عمّار: شاهدت الحسين﴿ع﴾ يوم الطفّ، فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه. وكان في غاية الصلابة وكان بين يديه ثلاثون ألفاً يشدّ فيهم كالأسد الهصور فينكسرون بين يديه كالجراد المنتشر وينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب. مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤. (٢) ديوان المحاضر ١: ٣٢.

سيبقىٰ الحسين شعاراً علىٰ أصيلك والشفق المذهبِ[1]

نعم إنها تربة إذا وُقف عليها انطلق منها ذلك الصوت: **«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ لكم إقرار العبيد»**[2]. وهو الصوت الذي كان يخشاه الظالمون، ويمنعون الناس من الوقوف علىٰ قبر صاحبه؛ لأنّهم إذا وقفوا علىٰ القبر نظروا إلىٰ نحور مقطوعة، ودماء سائلة، وكف تحمل رضيعاً:

يـا رجـواي عگـبك مـا بـعد لوليت اخلاف حسين عيب أگعد تحت ظل بيت

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

﴿٩٥﴾

نفحات من سيرة الإمام السجّاد عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تعاقب الجملتين الخبرية والإنشائية

هناك بعض الأساليب في لغتنا تأتي بصورة أُسلوب آخر؛ لأمر يقتضيه الباب، أو مراعاة لضوابط البلاغة، أو لأمر يريده المتكلّم. ومن هذا آية المقام؛ حيث إنها ذكرت بعضاً من أخلاقيات المؤمنين بصورة الجملة الخبرية مع أن المراد منها الجملة الإنشائية، أي أنها تحثّ الناس علىٰ فعل هذه الأُمور والاتّصاف بهذه الأوصاف. ويلاحظ أن هناك فرقاً بين الأُسلوبين، فنحن تارة نجد القرآن يحثّ ويأمر بصورة الأمر المعهودة (الجملة الإنشائية) كقوله تعالىٰ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ

(١) آل عمران: ١٣٤.
(٢) البقرة: ٤٣.

قَانِتِينَ ﴾[١]، وتارة يأمر ويحثّ بأُسلوب الجملة الخبريّة كما قلنا، كقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[٢]. فهذا الأُسلوب يطلق عليه اسم الأمر بصيغة الخبر.

وهكذا الأمر في هذه الآية الشريفة، فهي حينما تقول: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾، فإنها ليست في معرض تصوير حالة شريحة من الناس وأن صفتهم كذا وكذا، وإنما تريد أن تحثّنا علىٰ فعل هذه الأُمور والاتّصاف بهذه الصفات. فهي تأمرنا بفعل هذه الأشياء، وتقول لنا: إن هذه الأوصاف الواردة ممّا يجب أن يفعله كل من يريد أن يكون مؤمناً.

وقد سُلسلت هذه الصفات علىٰ النحو التالي: الإنفاق في السرّاء والضرّاء، كظم الغيظ، العفو عن الناس، الإحسان إلىٰ الناس بعد العفو عنهم، ثمّ كلّلت هذه الصفات بأن اللّه يحب من يحسن إلىٰ غيره.

المبحث الثاني: نفحات من السيرة العطرة

ونحن إذ نحتفل هذه الليلة بذكرىٰ استشهاد زين العابدين وسيّد الساجدين الإمام علي بن الحسين السجاد﴿ع﴾، فمن نافلة القول أن نذكر عنه﴿ع﴾ أنه مدرسة القرآن، أو أنه عدل القرآن؛ لأن أهل بيت النبوة﴿عليهم السلام﴾ جميعهم هم مدارس قرآنية وهم عدل القرآن[٣]. فالشيء الذي ينبغي أن يُركز عليه وأن

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) المؤمنون: ١ ـ ٢.
(٣) بنص قول رسول اللّه﴿ص﴾: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل) ٢: ٥١٠/١.

يؤكّد في أذهان الناس أنهم عليهم السلام ما افترقوا لحظة عن أخلاق القرآن الكريم ولا بعُد القرآن الكريم عن أخلاقهم أبداً. وسيمرّ علينا هذا المعنىٰ خلال مراحل البحث إن شاء اللّه.

ولادته الشريفة (سلام اللّه عليه) وإخوته

لقد ولج الحياة سنة ثمانٍ وثلاثين من الهجرة، ويبدو أنه باكورة أولاد الإمام الحسين عليه السلام، لأن عليّاً الأكبر عليه السلام هو ليس كذلك بل ـ كما يقول الشيخ الطبرسي ـ: «إنه الأصغر، والناس يسمونه الأكبر خطأ، والأكبر هو الإمام السجاد عليه السلام»[(١)]. ويأتي بعد علي الأكبر جعفر وأُمه من قضاعة. وقد توفي جعفر هذا في حياة أبيه الحسين عليه السلام.

ثمّ عبد اللّه الرضيع الذي استشهد يوم الطفّ. وابنتان هما رقية وفاطمة.

قضية دخول التشيع إلىٰ إيران

فالسجاد عليه السلام بناء علىٰ هذا هو أكبر أبناء الحسين عليه السلام من زوجته بنت يزدجر.

ويذهب الطبرسي إلىٰ أن بنات يزدجرد اثنتان: واحدة تزوّجها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وقد ولدت له القاسم الذي يعتبر أحد فقهاء المدينة. والثانية تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام فأنجبت له الإمام زين العابدين عليه السلام[(٢)].

ولقد دارت حول هذا الزواج مناقشات ومطارحات عكست العقليّة الهمجية وعقلية التشنّج الغريبة التي كان ولا زال البعض عليها. فكثير من

☚ ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(١) اعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ ١: ٤٧٨. (٢) اعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ ...

المؤرّخين والكتّاب يعتبرون دخول التشيّع إلىٰ إيران لهذا السبب، حيث إنهم يعزون دخول التشيّع لهذا البلد إلىٰ زواج الإمام الحسين عليه السلام من امرأة فارسية، فأصبحوا أصهار أمير المؤمنين عليه السلام، فكان هذا عاملاً رئيساً في دخول التشيّع إلىٰ مجتمعهم.

والحقيقة أن هذا النمط من التفكير يجعل أولادنا يسخرون منا، ذلك أن هؤلاء الذين يكتبون مثل هذا ليسوا كتّاباً عاديين وإنما هم معروفون ومشهورون مثل أحمد أمين، وهو كاتب رائع ومنتج، لكن الهوىٰ إذا أراد أن يتحكّم بقلم الكاتب فإنه يجعل منه قلماً أبله و«يهرف بما لا يعرف». وإلّا فليس من المعقول أن يكون رجل بهذه الدرجة من العمق والإحاطة، ثمّ يقول: إن أُمّة بكاملها تشيّعت لأن الإمام الحسين عليه السلام تزوّج إحدىٰ بناتها.

ويحقّ لنا هنا أن نقاضيه فنقول: لماذا لم يصبحوا علىٰ مذهب التسنّن لأن محمد بن أبي بكر قد تزوّج من أخت التي تزوّج منها الإمام الحسين عليه السلام، وبالتالي أصبحوا أصهار أبي بكر؟ فحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وهناك رواية أُخرى تقول: إن بنات يزدجر كنّ ثلاثة، وقد تزوّج الثالثة عبد اللّه بن عمر[1]. وهذا يدعّم الإشكال الذي طرحناه آنفاً وهو لماذا لم يتسنن الإيرانيون؟ فالدائرة السنية أصبحت أوسع هنا حيث تزوّجت إحداهن محمد بن أبي بكر فأصبحوا أصهار أبي بكر، وتزوّجت الثانية عبد اللّه بن عمر فأصبحوا أصهار الخليفة عمر بن الخطاب. وهذا يؤدّي بنا إلىٰ نتيجة هي

(١) البداية والنهاية ٩: ١٢٢.

أن التشيّع لم يكن عاطفياً، ولم ينشأ عن عامل عاطفي.

ثمّ إن التشيع أقدم من هذا بكثير، فهو أمر قد حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأولىٰ، ومنذ أن فتح الري؛ حيث كان هناك أفراد ـ وإن كانوا قلائل ـ في الجيش الإسلامي ممن يحملون الحبّ والولاء لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكان أن انتشر التشيّع بهذه الصورة في إيران.

وفوق هذا فإن هناك بعضاً من الكتاب ممّن يصرّون علىٰ أن التشيّع في إيران أيام الصفويين قام بهذه الصورة وبالسيف والدم. مع أن الواقع ليس كذلك؛ لأن العقائد التي تفرض بالدم ستضمحلّ وتذوب وتزول، فالفكر إذا لم يأخذ طريقه الطبيعي بشكله المألوف فلن يخلد ولن يتجدد أبداً.

نشأة السجاد عليه السلام

لقد ولد (صلوات اللّه وسلامه عليه) في فترة من أحرج الفترات التي مرّت علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أبصر النور بعد مضيّ سنة واحدة علىٰ تسنّم الإمام بالحق أمير المؤمنين عليه السلام تقاليد الحكم، وهكذا يكون عليه السلام قد عاش ثلاث سنوات مع جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وهي فترة تميّزت بأن الأحداث فيها كانت تشكّل وتمثّل قمّة الصراع وحمّة الكفاح بين الحق والباطل؛ فأمير المؤمنين عليه السلام ـ كما هو معلوم ـ قضىٰ سنوات حكمه كلّها في القضاء علىٰ الفتن الداخلية والحروب الجائرة التي استعرت ضدّه، فهو عليه السلام لم يُلقِ بيضة الحرب عن رأسه أبداً. وفي هذه الفترة التي كان السجاد عليه السلام فيها في حجر أبيه الحسين عليه السلام كان يلقىٰ رعاية خاصّة وتمهيداً بيّناً من قبل أبيه عليه السلام مع انشغاله التام في الحروب مع أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد انتقال أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ الرفيق الأعلىٰ بجوار ربّه راضياً مرضيّاً مرّت أدوار أُخرىٰ علىٰ الإمام السجاد عليه السلام، وكانت من أحرج الأدوار التي مرّت علىٰ أهل بيت الرسالة ومختلف الملائكة، ولعلها السنوات الأصعب في تاريخهم سيما تلك السنون التي شهدت مقتل سيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

ونقول: أحرج ما مرّ علىٰ أهل البيت عليهم السلام لأن معاوية هو الذي جاء للحكم بعد أمير المؤمنين عليه السلام والفترة القصيرة للإمام الحسن عليه السلام، وما أدراك ما معاوية، صاحب الدور الذي لم يقتصر علىٰ إشهار السيف بوجه الحق وإعلان الحرب عليه، وإنما مارس أمراً أبعد من ذلك ودوراً أخطر. فقد أعلن حرباً فكرية وثقافية علىٰ أهل البيت عليهم السلام عبر ما كان يفعله عامداً من تزوير الحقائق وتحريف سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وهكذا عمد إلىٰ جملة من المعلومات الفكرية والحقائق التاريخية، فأبعدها عن متناول الأيدي عبر تزوير الأحاديث والحقائق وإخفاء بعضها بتهديد رواتها بالقتل إن حدّثوا بها، وكذلك بإحراق الكثير من الكتب، وسجن الكثير من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وتعريضهم لأشد أنواع التعذيب والتنكيل بهم(١).

ملامح فترة شبابه عليه السلام

وقد عاش هذه الفترة الحرجة الإمامُ الحسن والإمامُ الحسين عليهما السلام ثمّ من

---

(١) كقتله حجر بن عدي، وميثماً التمّار، وسعيد بن جبير، ومالكاً الأشتر حيث دسّ له السمّ وهو في طريقه إلى مصر بعد أن قلده إيّاها أمير المؤمنين عليه السلام، وغيرهم، وتهديده آخرين في مجلسه كما حدث مع جارية بن قدامة السعديّ، والوليد بن جابر بن ظالم الطائي، وصَعصَعة ابن صُوحان العبدي، والطرمّاح بن الحكم الباهلي، وشريك بن الأعور الحارثيّ الهمدانيّ رحمهم الله، حيث كانت لهم مواقف مشرّفة في الدفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام في مجلسه.

بعدهما الإمامُ السجاد عليه السلام، وتعرّضوا لآلامها ومآسيها، وقد تركت بصماتها السيئة على تاريخنا حتى الوقت الحاضر؛ إذ لازال الكثير من الكتاب والمؤرخين واقعين تحت تأثيرها السلبي.

أولاده عليه السلام

وكما مرّ قبل قليل فإن أشدّ أيام هذه الفترة هي فترة وقعة الطفّ التي كان عمره فيها ثلاثة وعشرين عاماً، وكان متزوّجاً، وكان أوّل أبنائه اسمه عبد اللّه على رواية، وفي رواية أُخرى أنه الإمام الباقر عليه السلام.

وكان له خمسة عشر ولداً: أربع بنات، وأحد عشر ابناً. وأبرز أولاده أربعة: الإمام الباقر عليه السلام امتداد مدرسة جدّه صلى الله عليه وآله، ثمّ زيد ثمّ عمر، ثمّ عبد اللّه.

وكان زيد من فقهاء أهل البيت عليهم السلام المعدودين. ويحاول البعض أن يثبت أن هناك تأثّراً منه بأبي حنيفة حينما ينقل مطابقة رأيه لرأي أبي حنيفة. وللحقيقة نقول: إن المسألة ليست مسألة تأثّر وتأثير بقدر ما هي موافقة آراء الفقهاء من غير مذهب أهل البيت عليهم السلام مع فقههم (سلام اللّه عليهم)، وإلّا فمن غير المعقول القول: إن زيد بن علي سليل أمير المؤمنين عليه السلام قد تأثّر بمدرسة خارج مدرسة آبائه وأجداده.

المدارس الفقهية في تاريخ الفقه الإسلامي

ومعلوم أن هناك أكثر من مدرسة فقهية مرّت في تاريخ تشريعنا، ولعل أبرزها مدرستان:

الأولى: مدرسة الرأي وأبرز ملامحها

وهي مدسة تُخضع النصّ الشرعي للمصلحة، وتسترشد بالمصلحة في

النص، وكمثال على ذلك ما فعله الخليفة الثاني حول زكاة المؤلّفة قلوبهم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1]. ففرض رسول الله ﷺ لهؤلاء المؤلّفة قلوبهم بأمر اللّه سهماً، لكن حينما جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض الله سهماً لهؤلاء؛ لأن الإسلام كان ضعيفاً، فهو تعالى يريد أن يقي المسلمين شرّهم، أما وقد قوي الإسلام الآن فلا حاجة له بهم. فمنع هذا السهم عنهم. فقيل له في ذلك: إنك إنما تخالف النص. فأجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

وهذا أشبه شيء بما ينقله الدكتور أحمد أمين باستخدامنا المعاصر حينما نقول: إن فلاناً يتصرّف بروح القانون لا بنصّ القانون. فكأنه يريد أن يقول لهم: إن هذه هي العلّة التي يدور عليها التشريع وجوداً وعدماً، فلمّا انعدمت العلّة لم يكن ضرورة لإعطاء هذا السهم[2]. والحال أنه ليس كذلك، وقد خالفه الصحابة فيه. فهؤلاء ـ ومنهم أبو سفيان ـ كان الرسول ﷺ يتألّف قلوبهم بالأموال ليقي المسلمين شرّهم.

فقول عمر بأنه يسترشد بروح النص يعتبر مثالاً واضحاً علىٰ مدرسة الرأي. وهذا القول نقله عنه أحمد أمين الذي علق عليه بعد ذلك بقوله: إنه أشبه شيء بالاسترشاد بروح القانون الآن. فالخليفة الثاني كان بطل هذه المدرسة بتعبيره، أما أبو حنيفة فكانت مدرسة الرأي هي الغالبة علىٰ تفكيره وهو ما اتخذته مدرسة الكوفة بعد ذلك منهجاً لها، لكن يبقى أبو حنيفة من أبرز أصحاب هذه المدرسة.

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ١٥٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، والبداية والنهاية ٧: ٦٣.

الثانية: مدرسة المأثور

وهي المدرسة التي يُمثلها الإمام الباقر عليه السلام ومن قبله آباؤه عليهم السلام، والتي تلمذ لها زيد بن علي. والأحكام وفق هذه المدرسة تؤخذ من القرآن الكريم والسنة والنبوية الشريفة. دخل رجل علىٰ الإمام الباقر عليه السلام فسأله عن الحكم الشرعي إذا لم يجده في القرآن، فمن أين يأخذه؟ فأجابه عليه السلام بأنه حينئذٍ سيجده في السنّة الشريفة. فقال: فإن لم أجده؟ قال: **«ليس من شيء غير موجود في كتاب الله وسنّة نبيه»**. فاللّه عزّ وجلّ ما فرّط في الكتاب من شيء[1]. فالأحكام الشرعيّة التي نحتاجها موجودة كلّها في القرآن الكريم وفي السنّة النبويّة الشريفة.

الشيعة هم أهل السنة

وهنا أمر يُثير العجب في النفس وهو أن غير الشيعة يُسمون أهل السنة، مع أن مدرسة المأثور هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام. فالشيعة هم أولىٰ بأن يسموا أهل السنة لتمسّكهم بأحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأيمّة المعصومين عليهم السلام في استنباط أحكامهم الشرعية، ولم يجنحوا إلىٰ الرأي أو القياس وغيرهما.

وعليه فإن زيد بن علي لا يمكن أن نقول عنه: إنه قد تأثر بفقه أبي حنيفة؛ لما قدمنا من أن فقه زيد قائم علىٰ الأخذ بالمأثور وفقه أبي حنيفة قائم علىٰ الأخذ بالاستحسان والقياس والمصالح المرسلة، وغيرها من

---

(١) قال الله جلّ وعلاً في كتابه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨.

النظريات الكثيرة التي لم تكن معمولاً بها عند أهل البيت عليهم السلام وعند أتباعهم.

أما الولد الثالث للإمام السجاد عليه السلام فهو عمر، وكان يُعتبر من الرواة الذين رووا عن أبيه السجاد وأخيه الباقر عليهما السلام، وروىٰ عن عمّته فاطمة.

وأما الولد الرابع فهو عبد اللّه بن علي، ويعتبر من فقهاء أهل البيت عليهم السلام، وكان يتولىٰ صدقات جدّه أمير المؤمنين عليه السلام.

نشاطه العلمي

كان (سلام اللّه عليه) يجلس في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله في المدينة للفتيا وتعليم الناس. وغير خفي أن إمامته في زمن أبيه كانت محجوبة، لكنه لم يكن بالذي يتوانىٰ عن أداء دوره ورسالته اللذين أناطتهما السماء به.

الحكام الأمويون الذين عاصرهم الإمام السجاد عليه السلام

لقد عاصر عليه السلام في طفولته معاوية بن أبي سفيان ثمّ ابنه يزيد ثمّ ابنه معاوية ابن يزيد الذي لم تطل مدّة خلافته، حيث إنه لم يبقَ في الحكم سوىٰ أربعين يوماً؛ إذ أنه خلع نفسه بعدها قائلاً: إني أروي عن النبي صلى الله عليه وآله أن الخلافة محرّمة علينا، فإذا كان أبي وجدي قد تحمّلا هذا الوزر فأنا لا أستطيع أن أتحمله. ومن أراد أن يتثبّت من هذا فلينظر (حياة الحيوان)[1] للدميري

---

(١) حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩، وقد جاء في خطبته: أيها الناس ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم. وإني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لأنا بلينا بكم وبليتم بنا.
ألا إن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولىٰ به منه ومن غيره؛ لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وعظم فضله وسابقته، وهو أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وصهره وأخوه، زوّجه صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة، وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو

في ترجمته لهذا الرجل.

ولما خلع نفسه وعاد إلىٰ منزله، استقبلته أُمّه قائلة: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك. فقال لها: وددت والله ذلك. ثمّ قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثمّ إن بني أُميّة قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص: أنت علّمته هذا ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزيّنت له حبّ علي وأولاده، وحملته علىٰ ما وسمنا به من ظلم، وحسّنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق وقال ما قال. فقال: والله ما فعلته، ولكنه مجبول ومطبوع علىٰ حبّ علي. فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حياً حتىٰ مات.

وعاصر (سلام الله عليه) بعد معاوية بن يزيد مروان الذي لم يطل حكمه أيضاً فقد كانت فترة حكمه ستة أشهر، وكانت كما عبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام

☛ سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأُمة، تربية الرسول وابني فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية، فركب جدي معاوية منه ما تعلمون وركبتم معه مالا تجهلون، حتىٰ انتظمت لجدي الأُمور.

فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهناً بعمله فريداً في قبره، ووجد ما قدمت يداه ورأىٰ ما ارتكبه واعتداه، ثمّ انتقلت الخلافة إلىٰ يزيد أبي، فتقلد أمركم لهوىً كان أبوه فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه علىٰ نفسه غير خليق بالخلافة عن أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم علىٰ ما أقدم من جرأته علىٰ الله، وبغيه علىٰ من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلّت مدته وانقطع أثره وضاجع عمله، وصار حليف حفرته رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، وحصل علىٰ ما قدم، وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه: فليت شعري، ماذا قال وماذا قيل له؟ هل عوقب بإساءته وجوزي بعمله وذلك ظني؟

إلىٰ أن قال: والله لئن كانت الخلافة مغنماً، فلقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه.

«كلعقة الكلب أنفه»[١].

ثمّ جاء بعد ذلك حكم ابنه عبد الملك بن مروان الذي وطّد عصر المروانيين وعهدهم، وثبّت حكمهم. وهو الذي يروىٰ عنه أنه وصّىٰ ابنه بوصيّة جاء فيها: لا تقعد بعد موتي تعتصر دموعك كالأمة الوكعاء، جرّد سيفك؛ فمن قال لك برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا[٢].

والغريب أن بعض المسلمين يأخذون أحكامهم الشرعيّة عن هذا الرجل، بل ويعتبرونه من الفقهاء، وأنكىٰ من ذلك أن كثيراً منهم لا يروي عن الحسن والحسين عليهما السلام ويروون عنه ظناً منهم أنه أكثر وثاقة. يقول عميد إحدىٰ الكليّات الإسلاميّة: إنما لم يروِ البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه[٣]. فالبخاري وغيره إنما لم يرووا عن الصادق عليه السلام ورووا عن غيره؛ لأنهم لم يجدوا طريقاً صحيحاً واحداً اليه عليه السلام من وجهة نظر هذا.

وهذا إدّعاء عجيب وغريب فإننا نقرأ في تاريخنا عن الحسن الوشّاء أنه قال: «دخلت إلىٰ مسجد الكوفة، فوجدت أربعة آلاف شيخ كلّاً يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام»[٤].

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنما يدلّ علىٰ عظمة مدرسة هذا الإمام العظيم، وضخامتها العلمية علىٰ شتىٰ الأصعدة؛ سواء الفقهية منها أو الكلامية أو

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٧٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

(٣) سيأتي بيان هذا وردّه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) ج ٦ ص ١٣١ ـ ١٥٥ من كتابنا هذا.

(٤) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

التفسيرية، أو غير ذلك من أنواع العلوم. فهل يقال لمثل هذه المدرسة ولمثل هذا الإمام العظيم بأنه لا يوجد طريق واحد صحيح إليه حتىٰ يُروى عنه، ويقال في الطريق إلىٰ عبد الملك: إنه طريق صحيح؟ إن هذه مفارقات عجيبة في تاريخنا المدوّن. وهذا طبعاً لا يضير الإمام الصادقعليه السلام أو غيره من أيّمة أهل البيتعليهم السلام بشيء، وهذا الشعار لا ولن يدنّس مقدار شعرة شيئاً من فيوضات أهل البيتعليهم السلام. أما قارئ هذا التاريخ المزوّر فهو الذي سيتضرّر به؛ لأنه سيشرب من منبع ملوّث.

وكل هؤلاء الذين عاصروا الإمامعليه السلام كانوا يمثّلون الخطّ المعادي للإسلام والخطّ الذي حاول هدم الإسلام؛ ولذا فإنها كانت فترة صعبة وعصيبة بكل ما تحمله من شدّة وقسوة وأحداث رهيبة مروّعة[1].

تهمة عدم استغلاله الفرص في الثورة علىٰ الأمويين

لقد اصطدم الإمام السجادعليه السلام في حياته بالكثير من الأحداث والاتّهامات، فواجهها بمنتهىٰ الحكمة والحصافة. ومن هذه التّهامات أنهعليه السلام لم يستغل الفرص التي سنحت له بعد ذلك استغلالاً كاملاً في الثورة علىٰ الأُمويين.

وهذه التهمة والمواجهة هي أوّل السهام التي رميعليه السلام بها، فهؤلاء يقولون: إن الإمامعليه السلام لم يستغلّ كلّ الفرص التي سنحت له، وكان بإمكانه استغلالها لصالح خطّ الحق ضد الأُمويين؛ من قبيل واقعة الحرّة التي كان بوسعه أن يشارك فيها بشكل فاعل؛ لأنه موتور من الأمويين، وقد أصبح أمامه خصم

---

(١) من قبيل واقعة الحرّة وقتل المختار الثقفي، وغيرهما من حركات التوابين التي عاصرت الإمامعليه السلام.

قوي مناهض للأمويين، وكان من الممكن أن يؤدّي دخوله في الحركة إلىٰ قلب الموازين لصالح هذه الحركة.

وهذا كلام غير صحيح؛ لأن الإمام كان أعرف من غيره بتكليفه. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن هذا التدخّل ينبغي أن يكون مبتنياً علىٰ خطّة مدروسة وعلىٰ ضوء النظر إلىٰ الربح والخسارة، فحينما نريد أن نقدّم دماً فيجب أن نأخذ شيئاً قباله أسمىٰ من الدم.

ثمّ إن الإمام السجاد كان يعلم علم اليقين أن النهضة علىٰ الأُمويين في تلك الحالة لم تعدُ كونها عملية تشنّج ولم تكن مدروسة أو مخطّطاً لها.

وقد يقول قائل: لقد أعطىٰ الإمام الحسين في واقعة الطف دماً، ولم يأخذ مقابله شيئاً.

فنقول: الأمر علىٰ العكس من ذلك؛ فإن واقعة الطفّ أخذت حقّها وثمنها مقدّماً، كما أنها قد أهاجت الدنيا وأماجتها وحرّكت كل الثورات التي جاءت بعدها بشكل متلاحق منطقع النظير، ولولاها لما قامت تلك الثورات التي منها ثورة الحرّة. وقد تتابعت هذه الثورات وتلاحقت إلىٰ أن زلزلت عرش الأُمويين وأزالته.

فواقعة الطف إذن كانت مدروسة ومخطّطاً لها تماماً، ولم يكن فيها شيء غير منظور له بموازين الثورات والحركات. أمّا واقعة الحرّة فلم تكن كذلك من جهة نظر الإمام السجاد؛ حيث إنه رأىٰ أن المعيار غير متكافئ والمعادلة ليست متوازنة بالدرجة التي يمكن معها الوثوق بشيء من النتائج، وأن العلمية سوف تؤدّي إلىٰ مجزرة يربأ الإمام بشيعته أن يذهبوا

ضحيتها. وقد تتضاعف المجزرة؛ لأن الأمويين لا رادع لهم يردعهم أو وازع يمنعهم عن ارتكاب مثل هذه الأفعال الشنيعة، وهم الذين فعلوا ما فعلوا بسبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيّد شباب أهل الجنة، فالدم ليست له أي قيمة أو حرمة في حساباتهم.

وهذا هو الذي حصل فعلاً؛ فقد بلغ عدد القتلىٰ في واقعة الحرّة أكثر من عشرة آلاف قتيل منهم سبعمئة من حملة القرآن(١).

تهافت الغزالي

وممّا يحزّ في النفس أنك تمرّ بتاريخنا المدوّن فتجد أقلاماً تمدح يزيد، وتصفه بصفات المؤمنين، بل وتدافع عنه كما فعل الغزالي حيث يقول: لا ينبغي شتم يزيد ولا سبّه؛ لأنه مسلم وقد تاب. ثمّ يتساءل فيقول: من قال: إنه هو الذي قتل الحسين، أو إنه تسبب في ذلك؟ مع أن الغزالي نفسه يكفّر من يسبّ أحد الصحابة(٢). فهل يعقل أن يحكم بكفر من سبّ صحابيّاً ولا يحكم بكفر من قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسبعمئة صحابي كلّهم من حملة القرآن؟

علىٰ أية حال فإن الإمام عليه السلام لم يشترك في واقعة الحرّة لهذا السبب؛ لأنه عليه السلام كان يرىٰ أن هذه المعركة سوف لن تنتهي إلىٰ نتيجة إيجابية، فواجه زحمة الأحداث بما هو معروف عنه من حكمة وحصافة رأي.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٢٥، الاستيعاب ١: ٢٥٨، الإصابة ٦: ١٩٦، أنساب الأشراف ٥: ٤٢، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤٢.

(٢) إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، وانظر حياة الحيوان ٢: ١٧٦.

المبحث الثالث: أخلاق الإمام﴿ع﴾ من منظار الآية الكريمة

ولنحاول الآن أن نطبّق الآية الكريمة علىٰ أخلاق الإمام السجاد (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه)؛ لنرىٰ مدىٰ تأثّره﴿ع﴾ بأخلاق القرآن الكريم وتأثير القرآن الكريم عليه، وكيف أن القرآن الكريم لم يفارق سلوكيّاته وأخلاقه العالية، وكلّ حركاته وسكناته. فلنتناول هذه الآية الكريمة فصلاً فصلاً، ولنتدارسها علىٰ ضوء ما قدمنا:

الأول: إنفاقه﴿ع﴾ في السرّاء والضرّاء

تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، أي فيما ساء وضرّ وفيما سرّ. والإنفاق في الضرّاء له عدّة وجوه، منها الإنفاق علىٰ العدوّ ومساعدته وإطعامه وإيواؤه وتوفير الملجأ والمسكن له. فالبعض حينما يأتيه عدّوه طالباً منه أمراً، أو يرىٰ عدوّه في أمسّ الحاجة إلىٰ مساعدته هو، فإنه لا يمدّ له يد العون والمساعدة، بل إنه لا يتصوّر لحظة أو يدور في خلده أنه سيأتي عليه يوم يساعد عدوّه فيه.

لكن القرآن يريد أن يعوّدنا علىٰ هذا الخلق؛ فهو يطلب منا أن نمدّ يد المساعدة لكل إنسان ظاهره يوحي بأنه فعلاً محتاج للمساعدة، وألّا ننقّب خلفه.

وهذا مع من تشكّ في فعليّة حاجته أو مع من لا تميل له ولا ترغب فيه، وهنا يكمن موضع العظمة والكرامة؛ فأن تُجبر نفسك علىٰ فعل يريده اللّه منك فيما ساء وسرّ لهو أمر يوحي بالكرامة والعظمة. والآن لنرَ ذلك وموقعه من الإمام السجاد﴿ع﴾:

إنفاقه عليه السلام في السرّاء

لقد تكفّل عليه السلام بإعالة جماعة كبيرة من الناس قُطعت عنهم عطاءاتهم؛ لأنهم ذوو المستشهدين مع أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه. فكان عليه السلام يتولّىٰ إيصال المال والطعام، بل وحتىٰ الماء إلىٰ هؤلاء وإلىٰ غيرهم من محتاجي المدينة، فكان يستقي لضعفة جيرانه[1] إضافة إلىٰ ما كان يقوم به من إعالة هؤلاء الذين استشهد كافلوهم مع أمير المؤمنين عليه السلام. ويروىٰ عن الزهري أنه قال: رأيته ذات ليلة شاتية ممطرة، وكانت شديدة البرد، يأخذه الهواء يميناً وشمالاً، وهو يطرق أبواب المدينة المنوّرة باباً باباً، ويعطي أهلها هداياه الكريمة بيده الشريفة.

إنفاقه عليه السلام في الضرّاء

كما أنه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه) كان ينفق ويساعد حتىٰ عوائل أعداء أهل البيت عليهم السلام، ومن ذلك أنه بعد أن استفحل الوضع المتشنّج في المدينة قبل ثورة الحرّة وأثناءها، لجأ أكثر من أربعمئة عائلة إليه فأعالهم وأعانهم هو وصحابته الخلّص بعد أن هاجمهم أهل المدينة وقرّروا القضاء عليهم، وبعد أن سدّ كل أصحاب الشأن في المدينة أبوابهم في وجوههم، حتىٰ أُولئك الذين كان هواهم مع التيار الأُموي كعبد اللّه بن عمر وغيره؛ حيث رفض تقديم العون لمروان وعائلته[2].

فالذي حصل أن الإمام السجاد عليه السلام تكفّل بحماية هذه العوائل الأربعمئة

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.
(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

وبإعالتهم ومعيشتهم وحمايتهم إلىٰ أن انتهىٰ الوضع المتشنّج في المدينة وعاد الهدوء إليها.

الإمام يجير عائلة مروان

وكما ذكرنا فإن أربعمئة من العوائل الأُموية طوردت وحوصرت، وكان من جملة هذه العوائل الأربعمئة عائلة مروان بن الحكم، وكان مروان نفسه معهم، فما كان من الإمام إلّا أن أجاره وعائلته، ثم أخرج عائلته إلىٰ الطائف؛ لأن الثوار أرادوا قتله وقتلهم مع من كانوا يريدون قتله من الأُمويين في المدينة؛ حيث أمر الإمام السجاد ابنه عبد اللّه أن يأخذ زوجة مروان عائشة بنت الخليفة الثالث ـ حينما أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة ـ إلى الطائف، ففعل وبقي مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[١].

وهذا ليس غريباً من رجل عظيم مثل الإمام السجّاد؛ ذلك أن جدّه أمير المؤمنين وقف بعد واقعة الجمل منادياً، والقتلىٰ تنيف على الثلاثين ألفاً: «**لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ**»، ولينادي: «**لا يصلن لزوجة رسول اللّه منكم أذىٰ**». ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: «**ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك**». ثمّ وضع لها بيتاً وعشرين خادمة[٢]. فتأمل النبل.

فهذا معدن أمير المؤمنين، فهو تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الطامن الثابت، وتلك الروح الكبيرة؛ فليس غريباً منه أن يقف ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٢) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

الموقف، أما هي فحينما وصلها نعيه عليه السلام خاطبت ناعيه قائلة:

فإن يكُ نائياً فلقد نعاهُ نعِيٌّ ليس في فيه الترابُ(١)

وهذا في الواقع يبيّن لنا المفارقات التاريخية التي احتلّت مساحة واسعة من تاريخنا، وشغلت مجالاً كبيراً منه. فكان أن عاش تاريخنا هذه المفارقات بكلّ أبعادها.

فالآية الكريمة تقول: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾، أي سواء كان الإنفاق فيما يجب الإنسان أن ينفق وفيمن يحبّ، أو فيما يكره وفيمن يكره من أعدائه؛ لأن المطلوب وراء الإنفاق هو وجه اللّه تعالىٰ.

الثاني: كظمه عليه السلام غيظه وعفوه

ثمّ قالت: ﴿**وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ**﴾، أي لا يظهرون غيظهم وغضبهم. يقول البيهقي والمراغي في تفسير هذا المقطع من الآية الكريمة: إن عليّ بن الحسين عليه السلام كان في بيته، وكانت جارية له تصبّ الماء علىٰ يده من إبريق تحمله، فسقط الإبريق علىٰ جبهته فشجّها حتّىٰ أدماها، فارتعدت الجارية وقالت له: مولاي، ﴿**وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ**﴾. فقال عليه السلام: «**كظمت غيظي**». قالت: ﴿**وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾. قال عليه السلام: «**قد عفا الله عنك**». قالت: ﴿**وَاللّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**﴾. فقال عليه السلام: «**اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى**»(٢).

---

(١) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب كانوا يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ اللّه فمك تراباً، وهي هنا تقول له: لا ملأ اللّه فمك تراباً؛ كرهاً منها له عليه السلام.

(٢) لم يتوفّر لدينا تفسيراهما، انظر: الأمالي (الصدوق): ٢٦٨ / ٢٩٤، الدر المنثور ٢: ٧٣، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٧، البداية والنهاية ٩: ٢٥.

وهو﵇ إنما شابه بهذه الخصلة جدّه أمير المؤمنين﵇، فقد روى الإمام الصادق﵇ ـ وكان يذكر سيرة جدّه علي بن أبي طالب﵇ لحضّار مجلسه ـ أن أمير المؤمنين﵇ كان يلبس الخشن ويقوّت نفسه بالعجوة، ويطعم اليتامىٰ الجوز. وكان يعمل عمل رجل وجهه بين الجنة والنار. ثمّ قال: **«والله ما أطاق عمل جدّي أمير المؤمنين﵇ إلّا علي بن الحسين»**.

وفعلاً كان هذا من سمات شخصيّة زين العابدين﵇، فمن جملة الأُمور التي شابه بها جدّه أمير المؤمنين﵇ أنه كان يجمع كلّ الأرقّاء الذين عنده ليلة العيد من كلّ سنة في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا كان أحدهم قد أذنب ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، ثم يأمرهم أن يدعوا له حيث يقول لهم: **«قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا»**[1]. ثم يعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول لكل واحد منهم: **«استعن بها علىٰ دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها»**.

وكذلك كان أمير المؤمنين﵇، فقد أعتق من كدّ يده وعرق جبينه ألف مملوك.

ثمّ قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وهنا موضع العجب؛ فقد مرّت بالإمام﵇ فرص كان بوسعه فيها أن ينتقم بها من أعدائه؛ ومن ذلك حينما دخل مسرف بن عقبة المدينة بعد واقعة الحرّة، وقال لهم: ايتوني بالناس ليبايعوا بالقوّة، إلّا الإمام السجّاد﵇ فأحضروه مكرّماً محترماً، فلما دخل عليه أعظمه مسرف وأكرمه، ولما أراد أن يخرج ودعه بأدب واحترام وقال

---

(١) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه﵇ في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

له: مرني يابن رسول اللّه. فقال له عليه السلام: **«لا أريد لنفسي شيئاً، ولكن رفقاً بالمسلمين»**.

وهذا في الواقع قمّة تجسيد مفاهيم القرآن في أخلاق الإمام السجاد عليه السلام.

الإمام يجير إسماعيل بن هشام الأموي

وممّا يذكر في هذا الصدد ـ كما يروي عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام ـ أن هشام بن إسماعيل المخزومي كان والي عبد الملك في المدينة وكان ناصبياً يسيء لأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، فكان يجمعهم كلّ يوم جمعة تحت المنبر ويأخذ بشتم أمير المؤمنين عليه السلام حتىٰ يُبلغ، وهو إنما يفعل هذا مبالغة في إيذاء العلويّين، وكان أذاه للإمام السجاد عليه السلام أشدّ. وقد بقي والياً إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي عزله؛ لأنه اختلس أموالاً كثيرة من بيت المال، وولّىٰ مكانه عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلىٰ عمر أن أوقف إسماعيل في الشمس واضربه بالسياط وأرجع الأموال.

فكان هشام هذا يخاف أن يمرّ به زين العابدين عليه السلام فيشمت به، إذ أنه كان يظن أن الإمام علىٰ شاكلته. وذات مرّة كان الإمام عليه السلام يمشي وإذا به يرىٰ حشداً، فسأل فأخبروه الخبر، فمنع عليه السلام الإساءة إليه، حيث إنه عليه السلام جمع كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: **«لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً»**. فقال أحد أولاده: يا أبه، نحن إنما ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: **«كِله إلى اللّه»**. وطلب منهم ألّا يبدوا على وجوههم أي امتعاض، ثم همس في أُذنه قائلاً: **«انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به، فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا»**.

وأرسل له الإمام عليه السلام كلّ ما أعوزه من مال؛ ليسد به عجزه، فكان بعد ذلك

يقول فيه: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(١)، وكان أن ترك هذا الأُموي النصب له(٢).

المبحث الرابع: عطاؤه العلمي والفكري والعبادي

يمكن توزيع الفترة التي عاشها الإمام﵇ علىٰ الصعيدين العلمي والفكري إلىٰ عدّة أقسام؛ فهو﵇ قد أعطىٰ وقتاً طويلاً للعلم والمعرفة، وله في هذا الطريق منفذان:

المنفذ الأوّل: الفتوىٰ المباشرة

حيث إنه﵇ كان يجلس في مجلس فتياه في مسجد جدّه رسول اللّهﷺ فيبين للناس حلالهم وحرامهم.

نماذج من نشاطاته العلمية

وقد كان الإمام﵇ يأخذ مجلسه كما قلنا في المسجد النبوي المقدّس ليفتي الناس ويبين لهم غوامض التفسير وأحكام الشريعة. ومن هذا ما يروى من أنه دخل عليه شخص فقال له: يابن رسول اللّه، ما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(٣)، ما معنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فأجابه﵇ بقوله: «ما ظهر منها الزنا، وما بطن نكاح زوجة الأب».

والغريب أن أحد الفقهاء يقول: إذا عقد أحد علىٰ أُمّه أو علىٰ أُخته فإنه يدرأ عنه الحدّ؛ لأن هذا العقد عقد شبهة، والرسولﷺ يقول: «ادرؤوا الحدود بالشبهات». فلذا يجب درء الحدّ هنا(٤).

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) الأعراف: ٣٣.

(٤) في الفصول المختارة: ١٦٢ – ١٦١، وفي تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي ١٣: ٣٧٠ عن

وهكذا فإن الإمام عليه السلام كان يمارس دوره التربوي والتوجيهي في التوعية من منبع الإسلام.. مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكل رحابة صدر وتواضع.

المنفذ الثاني: الدعاء والعبادة

وهو المجموع في (الصحيفة السجادية) المعروفة بإنجيل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو زبور آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهي صحيفة حقّ علىٰ كل بيت مؤمن أن يحتفظ منها بنسخة؛ لأنها أهم رابط يحدد مسلك الإنسان إلىٰ اللّه ويربطه به.

وكما أنه عليه السلام خصّص قسماً من وقته للدعاء، فكذلك خصّص قسماً منه للعبادة. يروي المؤرّخون أن لونه عليه السلام كان يصبح شديد الاصفرار بمجرّد إقدامه علىٰ الوضوء، ويسأله أحدهم: ما بالك يا بن رسول اللّه؟ فيجيبه: **«ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا»**[1]. وهكذا لا يعرف عظمة اللّه إلّا أولياء اللّه الذين يعرفونه حق المعرفة، فهو الذي **«من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها»**[2].

فالإمام عليه السلام يقول له: **إنك لا تدري بين يدي من أقف، أنا أقف بين يدي جبار السماوات والأرض**[3].

☚ الخلّال أنه قال: اجتمع سفيان الثوري وشريك والحسن بن صالح وابن أبي ليلي، فبعثوا إلى أبي حنيفة، فأتاهم، فقالوا له ما: تقول في رجل قتل أباه ونكح أُمّه وشرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال له ابن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادة أبداً. وقال له سفيان الثوري: لا كلّمتك أبداً. وقال له شريك: لو كان لي من الأمر شيء لضربت عنقك. وقال له الحسن بن صالح: وجهي من وجهك حرام أن أنظر إلى وجهك أبداً.

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) مصباح المتهجّد: ٥٨٠ / ٦٨٩، الاقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٤٠.

(٣) كما ورد من أنه عليه السلام كان قائماً في صلاته فزحف ابنه محمد عليه السلام - وهو طفل - إلى بئر كانت

وهكذا كانت هذه الفترة بمثابة فرصة ذهبية تسنّت للإمام ليعبّر فيها عن مدىٰ خضوعه للّه واندكاكه في ملكوته عبر هذه الأدعية المباركة وألوان العبادة الأُخرىٰ التي كان يمارسها، إضافة إلىٰ دوره التثقيفي والتوجيهي. فكان يسهر ليله في عبادة اللّه تعالىٰ، ويقضي نهاره صائماً. أما الحجّ فقد حجّ مراراً عديدة. وكان﴿ع﴾ معروفاً عنه شدة السهر في سبيل اللّه خاشعاً متهجّداً.

ومما يروىٰ عنه في هذا الصدد أن أُخته فاطمة بنت الحسين﴿ع﴾ دخلت عليه فرأت دقة ساقه واصفرار وجهه وإلىٰ جبينه المعفّر وكوعيه وقد أكلتهما الأرض فرقّت لحاله وأدركتها العبرة وبكت، ثمّ قالت له: سيدي، حسبك هذا الذي أنت فيه؛ فقد أرهقت نفسك ووقفت حتىٰ انتفخ ساقك وورم قدمك، وبكيت حتىٰ قرحت عيناك، وأصابك الضعف والهزال مما أنت فيه من طاعة اللّه تعالىٰ. فكان جوابه﴿ع﴾ أن قال لها: **«أعطوني هذه الصحف التي فيها بعض عبادة جدي علي بن أبي طالب»**. فلما أعطوه إياها فأخذها ثمّ نحّاها قائلاً: **«من يصبر ويقوىٰ علىٰ عبادة علي بن أبي طالب؟»**(١).

☛ في داره بعيدة القعر، فسقط فيها، فنظرت إليه أُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعا على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها - وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل - فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء.
دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨.

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.

أي أنه عليه السلام يقرّر أن هذه العبادة لا تعدّ شيئاً إذا ما قيست بعبادة علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنه عليه السلام يريد أن يتأسّى بجدّه إمام العارفين عليه السلام.

المبحث الخامس: نشاطه الاجتماعي

وأُحبّ أن أُنوّه إلىٰ أن نشاطاته العلمية والعبادية تلك لم تكن لتعيقه عن ممارسة واجباته الاجتماعية، فقد كان يزور المرضىٰ ويحيي مناسبات الناس العامّة. وكان يستشار من قبل الدولة، فيعطي مشورته بكل صدق[1]. كما أنه عليه السلام كان يدعم الجيوش الإسلامية الفاتحة بروحيته العالية، وهو ما يثبته وجود دعاء طويل في صحيفته المشرّفة يعرف باسم «دعاء أهل الثغور» يدعو فيه للمسلمين وجنودهم المرابطين علىٰ ثغور البلاد الإسلامية بالنصر والظفر.

المبحث السادس: أثر واقعة الطف علىٰ حياته الشريفة عليه السلام

وهذا ينبئك عن روح تتسامىٰ فوق كل حقد وفوق كل نفس بشرية؛ ذلك أنه كان يمدّ تلك الجيوش بدعائه المرفوع والمستجاب دون ريب، مع أنها تشتمل علىٰ ذلك الجيش الذي ارتكب تلك المجزرة العظيمة في التاريخ، بل أعظم مجزرة مرّ بها التاريخ، أي في واقعة الطف. تلك الواقعة التي خلّفت حزناً وألماً في نفسه الكريمة وأشبعتها لوعة وأسىٰ.

ولقد استأثرت واقعة الطفّ بجانب كبير من حياته الشريفة متمثّلة بالحزن الذي لم يكن يفارقه؛ ذلك أن أشباح الواقعة لم تكن تبارح ذهنه أو عينيه، ولا تبتعد عنه، وكان (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه) كلّما دخل عليه

---

(١) قد مرّت قصة سكّ النقود الإسلامية وأنها بمشورته عليه السلام في ج١ ص ١٣٢ من كتابنا هذا.

أصحابه وجدوه غارقاً بدموعه، غاصّاً بعبراته، وهو يشهق بالبكاء. وقد دخل عليه ذات مرّة أبو حمزة الثمالي ﷺ فوجده علىٰ تلك الحالة فقال له: سيدي، القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، مَن مِن آبائك ﷺ مات حتف أنفه؟ فقال ﷺ: **«شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن ما وقعت عيناي علىٰ عماتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلىٰ خيمة ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: احرقوا بيوت الظالمين»**.

فهو ﷺ لم يفارق خياله طيف واقعة الطف، وكيف له أن ينساها وينسىٰ ما أعقبها من مأساة مرّوا بها بعد ذلك؟ يقول المؤرّخون: خرج زين العابدين ﷺ يوماً يمشي في أسواق دمشق، فاستقبله المنهال بن عمرو، فقال له: كيف أمسيت يابن رسول الله؟ قال ﷺ: **«أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون؛ يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. يا منهال، أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشرّدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال»**(١).

وفي رواية أخرىٰ أنه قال له بعد أن رأىٰ ساقيه محمرّتين من القيد ويشزبان دماً عبيطاً: سيدي، ما الذي أخرجك مع ما أرىٰ بك من الضعف؟ فقال له: **«يا منهال، إن الخربة التي نحن فيها لا تقينا من الحرّ، يا منهال لقد تقشّرت وجوه عمّاتي وأخواني من حرارة الشمس. فأنا أخرج قليلاً لأُروّح عن ضعف بدني»**(٢).

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٤٣، مثير الأحزان: ٨٤.

(٢) قريب منه في الأمالي (الصدوق): ٢٣١ ـ ٢٣٢ / ٢٤٣، مثير الأحزان: ٨١.

يقول: ثمّ جاءت امرأة تقوم وتسقط وهي تنادي: إلىٰ أين يا حمانا؟ إلىٰ أين يا بقية السلف؟ فتركني ورجع إليها، فسألت عنها فقيل لي: هذه عمته زينب.

ثمّ رجعوا إلىٰ المدينة، وكان أكثر ما يقضّ مضجعه أن أكثر بيوت آل محمّد صلى الله عليه وآله والهاشميين كانت فارغة، فكان عليه السلام لا يمرّ بمحلّة من محلّات الهاشميين ويرىٰ بيوتها فارغة من أهلها إلّا خنقته العبرة؛ فلم يكن بها إلّا الأرامل واليتامىٰ.

أما بيت عقيل فكان فارغاً إلّا من أطفال صغار، فلذا كان عليه السلام يقول: **«إذا مررت علىٰ دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامىٰ»**(١).

فقد كان أوّل من قُدّم في الطفّ من آل عقيل ـ بعد مسلم الذي قتل قبل ذلك ـ هو ابنه عبد اللّه بن مسلم الذي يخاطبه الإمام عليه السلام في زيارته: **«السلام على القتيل ابن القتيل، عبد اللّه بن مسلم بن عقيل»**(٢).

وكانت عمته زينب (سلام اللّه عليها) في بعض الأحيان ترافقه في هذه المأساة وتشترك معه في هذا الألم، وكان إذا رأىٰ نهر الفرات خاطبه قائلاً: **«إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول اللّه ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول اللّه إلى جانبك؟»**:

أفاطمُ لو خلت الحسينَ مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فراتِ

إذن للطمت الخدّ فاطمُ عنده ... وأجريت دمعَ العين بالوجناتِ

---

(١) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

(٢) العوالم (الإمام الحسين): ٣٣٧.

أفاطمُ قومى يابنة العزّ واندبي ... نجومَ سماوات بأرض فلاةِ(١)

* * *

خويه ما بعيني دمع واسجيك ... بنفسي يبو السجاد اداويك
يا نور عيني اتمرمرت بيك ... طلّعت متني وكمت اراويك

* * *

أشرب لذيذ الماي حاشا ... واهلي كضوا كلّهم عطاشى

(١) شرح الأخبار ٣: ١٧٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٧، ٤٩: ٢٤٨.

﴿٩٦﴾

أمير الزاهدين عليه السلام

عن نوف البكالي رضي الله عنه قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم، فقال لي يا نوف : أراقد أنت أم رامق ؟ فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين. فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام بيدي وقال: « يا نوف، طوبىٰ للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة، أُولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح »(١).

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: الحياة الدنيا في نظر المشرّع الإسلامي

لعل أوّل تساؤل يرد هنا هو أن علي بن أبي طالب عليه السلام لما كان تلميذ الإسلام، وأوّل من استوعب أحكامه ومفاهيمه استيعاباً كاملاً بكل أبعادها ومستوياتها، ولما كانت الدنيا من جملة اهتمامات الإسلام، بل إن درجة الاهتمام بها عين درجة الاهتمام بالآخرة(٢). فلذا كان من المفروض أن

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

(٢) قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص: ٧٧.

تحظىٰ بنوع اهتمام عنده﵇، مع أن الملاحظ غير هذا؛ فهو﵇ لم يكن للدنيا عنده شأن، ولم تأخذ منه مأخذاً أو يعرْها أي اهتمام[1]، فلم ذلك يا ترىٰ؟

☚ وكما في قول الإمام الكاظم﵇: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» الفقيه ٣: ١٥٦، ونسب للرسول ﷺ بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

(١) فهو﵇ القائل: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.

وقال﵇: «من زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات». نهج البلاغة / الحكمة: ٣١.

ورئي عليه إزار خلق مرقوع فقيل له في ذلك، فقال: «يخشع له القلب، وتذلّ به النفس، ويقتدي به المؤمنون». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٣.

وقال﵇: «إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها. وهما بمنزلة المشرق والمغرب ومابينهما، كلّما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعدُ ضرّتان». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

وقال﵇: «مثل الدنيا كمثل الحية؛ ليّن مسّها، والسمّ الناقع في جوفها، يهوي إليها الغرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل». نهج البلاغة / الحكمة: ١١٩.

وقال﵇ من ضمن ما قال وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا: «من ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور، وراحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا؟». نهج البلاغة / الحكمة: ١٣١.

وقال﵇: «الدنيا دار ممرّ إلى دار مقرّ، والناس فيها رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٣.

وقال﵇: «إنما المرء في الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب. ومع كلّ جرعة شرَق، وفي كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلّا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلّا بفراق آخر من أجله. فنحن أعوان المنون، وأنفسنا نصب الحتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلّا أسرعا الكرّة في هدم ما بنيا،

إن ديننا الإسلامي في تعاليمه وأحكامه لم يفرّق بين جانب وآخر، ولم يفرّط في جانب لحساب آخر، فهي (تعاليمه) واحدة؛ سواء كانت فيما يخصّ العقيدة أو فيما يخصّ الفقه أو فيما يخصّ الأخلاق. فقد وضع أخلاقيّات تنظّم الدنيا. وهناك عقائد وفقه لهما علاقة بالدنيا ويختصّان بها؛ فهناك فقه سياسي وفقه أخلاقي وفقه اقتصادي وآخر اجتماعي، وكل هذه الأقسام للعناية بالدنيا والحياة وتنظيمهما. فالتشريع الإسلامي يعطي الدنيا اهتمامات واسعة جداً، ويخصّص لها مساحة واسعة من أحكامه وقوانينه؛ بحيث إنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلّا كان له فيهما حكم أو رأي، ولم يترك باباً يلجه إنسان أو حالة من الحالات يمكن أن يقع فيها أحد إلّا وضع لها علاجاً مسبقاً؛ فهو يضع الحلول والأحكام لجميع المسائل والمشاكل مسبقاً، أي قبل الابتلاء بها؛ كي يجد المكلّف أحكاماً لكلّ ما يمكن أن يَبتلي به، أو يقع فيه من ابتلاءات.

المبحث الثاني: تعريف الزهد

إذا تقرّر هذا فما معنىٰ قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«طوبىٰ للزاهدين في الدنيا»**؟ وهل أن لدينا تصوّراً مسبقاً عن الزهد؟ وما هو تعريف الزهد الذي يقصده

وتفريق ما جمعا؟». نهج البلاغة / الحكمة :١٩١.

وقال عليه السلام: «من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً». نهج البلاغة / الحكمة :٢٢٨.

وقال عليه السلام: «يا أيها الناس متاع الدنيا حطام موبئ، فتجنّبوا مرعاه...حكم على مكثرٍ بها بالفاقة...ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً لهن رقص على سويداء قلبه، هم يشغله وهم يحزنه؛ كذلك حتى يؤخذ بكظمه فيلقى بالقضاء منقطعاً أبهراه، هيّناً على الله فناؤه وعلى الإخوان إلقاؤه...إن قيل: أثرى قيل: أكدى». نهج البلاغة / الحكمة: ٣٦٧.

أمير المؤمنين﵇؟ هل إنه﵇ يقصد به ترك الدنيا والاستمتاع بها وبملذّاتها، وبما وضع اللّه تعالىٰ فيها من مباهج؟ فمعلوم أن الحياة فيها حاجات للطعام والشراب والسكنىٰ والجنس، ويجب إشباع كلّ هذه الحاجات عند الإنسان بالطرق المشروعة طبعاً. فما معنىٰ الزهد في الدنيا إذن؟ وهل الدنيا المأمور بالزهد فيها إلّا هذه؟

إن الدعوة إلىٰ الزهد في الدنيا دعوة قديمة، وقد وردت علىٰ ألسنة المصلحين والأولياء والأخلاقيّين، فهناك نداء مستمرّ إلىٰ الزهد علىٰ مرّ تاريخ البشرية. أمّا أبعاد هذا الزهد وتعريفه فيحتاجان إلىٰ توضيح وبيان علىٰ ضوء قول الإمام﵇: «**طوبىٰ للزاهدين في الدنيا**»؛ ذلك أن الزهد الذي يخالج أفهام الناس لأوّل وهلة كما مرّ هو الابتعاد عن الناس واعتزالهم، وعدم التفاعل مع المجتمع من بعيد أو من قريب. وهو تصوّر مخطوء ومغلوط؛ لأن الإسلام لم يأتِ ليواجه الحياة بهذه السلبيّة والعدمية، بل إنه واجهها بكلّ مشاكلها وأبعادها بشكل إيجابي فاعل وكامل، وحشد لذلك العديد من النظريات، وهيّأ لكلّ بعد من أبعادها الأجواء المناسبة لتطبيقها؛ مراعاة للمنهج السليم في الحياة ومشاكلها وتطبيق نظريات الحلول لها ولما يعترض الإنسان فيها.

الإسلام ينظم الحياة

الإسلام ونظام استصلاح الأراضي

وهكذا فقد وضع الإسلام النظم والقوانين التي تحكم العلاقات الإنسانية، والتي تنظّم الزراعة وأحكامها، وأحكام الأراضي وإصلاحها واستصلاحها؛

فقنّن توزيع الأراضي وتمليكها وجعلها وسيلة الإنتاج الأُولىٰ. فقد وضع أحكام امتلاك الأراضي بحيث إنه قنّن المقدار الذي يمكن للفرد أن يأخذه منها، والثمن الذي سيبذله إزاءها.

حالات امتلاك الأرض

هناك حالتان من حالات التملّك التي يمكن أن يستفيد منها الفرد حيال مسألة استثمار الأراضي، هما:

الأولى: الحالة الاعتيادية

وهي الحالة التي تكون فيها الأراضي الصالحة للزراعة واسعة متوفّرة، فلكل إنسان هنا أن يأخذ مايستطيع إصلاحه وإعماره وزراعته بأي مساحة كانت. فلو أن شخصاً يستطيع استصلاح عشرين دونماً من الأرض أو أكثر بماله وما يتمكّن من توفيره من وسائل ومكائن وآلات لحراثة الأرض وزراعتها وحصاد منتوجها وبيعه، فإن له الحقّ في أن يتملّك كلّ تلك المساحة ويزرعها ليُفيد منها ويستفيد.

الثانية: الحالة الاستثنائية

وهي الحالة التي تكون فيها مساحة الأراضي الصالحة للزراعة محدودة، ولا يمكن أن تغطّي حاجات من يريد، فيعطى ما يريد، أو يُعطى بما يتناسب مع إمكاناته المادية. وهنا لفقهائنا رأي هو أن الإنسان يعطىٰ من الأرض مقداراً يستطيع أن يعالجه ويصلحه بنفسه لا بمن يستأجرهم. فعليه هنا أن يأخذ أرضاً لا تزيد إمكانية إحيائها عن إمكانياته الشخصيّة؛ سواء كان ذلك الإحياء بيده أو بآلة يملكها، أما أن يأخذ أرضاً أكبر من ذلك ثمّ يستأجر لها أناساً يحيونها ـ بحجّة أنه يملك الإمكانات الماديّة لذلك ـ فلا.

كما أن الإسلام يعطي الأرض من يحييها ويملّكه إياها، أمّا إذا عطّلها ولم يستثمرها فإن الإسلام يسحب ملكيّته لها ويقوم بمصادرتها ثمّ يعطيها لمن يزرعها ويستثمرها[١].

قانون العمل في الإسلام

وكما أن الإسلام قنّن الأراضي ووضع لها أحكاماً، فكذلك قنّن العمل ووضع له ضوابطه وأحكامه وضمن حقوق العامل والمستثمر. وقانون العمل في الإسلام لا يضاهيه قانون أبداً، فما فيه من ضوابط وقوانين وضمانات لكلّ أطراف العمل يجعله صاحب ريادة بين القوانين التي تحكم العمل والمنظِّمة له. ونظرته لعوامل الإنتاج ـ الإنسان والمعمل والخامة المستعملة في الصناعة، كما يطلق عليها ذلك علم الاقتصاد الحديث ـ تختلف عن تنظير كلّ قانون آخر لها. والفقهاء المسلمون ذكروا لهذا الجانب قوانينه وتشريعاته الخاصّة به، فرسموا بها حقوق العامل وحقوق صاحب العمل؛ عبر حساب كلفة الإنتاج وكيفية توزيع الفائض عنها. وهذا بطبيعة الحال يدخل في مجال الفقه الاقتصادي الذي أخذ صورته الكاملة في الإسلام.

ونحن نأمل من الكتّاب المسلمين أن يتناولوا هذا الموضوع بشكل موسّع، وأن يوفّوه حقّه من البحث والتنقيب؛ فهو موضوع ما زال في بداياته. وقد تناولت موضوع العمالة وعالجته برسالتي التي تقدّمت بها في جامعة القاهرة، وكان موضوعها حول العمالة بالذات، أي بخصوص فائض القيمة.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له». تهذيب الأحكام ٧: ١٥٢ / ٦٧٣، فتح الباري ٥: ١٤، وقال أمير المؤمنين ﵇: «من أحيا أرضاً فهي له». تهذيب الأحكام ٤: ١٤٥ / ٤٠٤.

نظرية فائض القيمة

لقد تعبت كثيراً وعانيت ما عانيت في سبيل استخلاص هذه النظرية من مصادرها؛ ذلك أني لاحظت أن بعض الكتّاب حينما ينقلون نظرية لأحد العلماء أو المنظّرين فإنهم لا ينقلونها عنه مباشرة؛ بل إنهم ينقلونها عن غيره، وهذا عن غيره أيضاً دون الرجوع إلىٰ مظانّها الأصلية أو مؤلّفات صاحبها. وحينما ترجع إلىٰ تلك المظانّ أو المصادر الأصليّة لهذه النظرية فإنك تجدها مغايرة تماماً لما ينقل بخصوصها. كما أن هناك من ينقل نظريّة وهو لا يعيشها، وهذا في الواقع لا يُعدّ عملاً علميّاً. فمن لم يكن هذا عمله فإنه سيجهد نفسه، وسوف لن يصل إلىٰ نتيجة ما خصوصاً في مجال نظرية فائض القيمة؛ لأنها معقّدة جداً.

والذي يريد أن يدرس هذه النظريّة دراسة واعية فإنه ينبغي عليه أن يقوم بدراسة المصطلحات الماركسية؛ لأنها تدخل في صميمها. وإن شاء اللّه تعالى سنتطرق لها بشكل مفصل، وسنتعرّف علىٰ ملامحها وطبيعتها في بعض محاضرتنا القادمة.

فالإسلام إذن واجه صاحب العمل وواجه العامل، وأعطىٰ كلّاً منهما ضمانات وحقوقاً كاملة. وعليه فإن النظرية العمّالية قد عُولجت بشكل كامل في التشريع الإسلامي.

الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعيّة الأُسريّة

ومن جهة أُخرىٰ فإن الإسلام قام بتنظيم العلاقات الأُسرية والاجتماعية كافّة، ووضع ضوابط تحكم علاقة الإنسان بمجتمعه وبنفسه وبأُسرته. وهو يخرج مع الإنسان في أوّل خطوة من خطواته وهو يجتاز باب بيته، ويدلف

معه إلىٰ الشارع، فهو يقول له: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(١). ثمّ إنه يأمره بأن يحمل الخير لغيره كما يحمله لنفسه، بل وأن يحمل الخير للدنيا لا الشرّ. ويأمره بأن يكون متواضعاً ومتخلّقاً بأخلاق الأنبياء ووَرَثتهم، وألّا يصعّر خدّه للناس، وألّا يمشي في الأرض مرحاً، ثمّ يؤكد ذلك بقوله الكريم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾(٢).

ويدخل مع الإنسان إلىٰ الأسوق والشركات، ويقول له: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(٣).

وبهذا فالإسلام يجعل الإنسان دائماً في مواجهة الحدث الذي هو ذاهب إليه، ولن يترك له منطقة فارغة دون أن يملأها بما يناسبها من القوانين والأحكام. فالإسلام إذن لا يكتفي بتنظيم الدولة فقط، بل إنه ينظّم البيت والسوق، والنفس والذوات، وعلاقة الإنسان بزوجته وأخيه، وأُسرته ومجتمعه، ويؤطرها بقواعدها المناسبة، ويدفع الإنسان للعمل الدؤوب لتحصيل هذا.

يروي المفضل بن عمر أنه لقي الإمام الصادق في فصل الصيف، وبيده مسحاة وهو يرشح عرقاً. فسأله قائلاً: إلىٰ أين يا سيدي؟ فقال له: «عندي بستان، وأردت أن أسقيه وأُصلحه». فقال له: إذا متّ فماذا تقول للّه؟ فأجابه بأنه سيقول حينها بأنه قد خرج إلى حيث وجّهه وأمره، أي من حيث يكتسب قوته. فقد قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(٤)؛

---

(١) النساء: ٨٦.
(٢) الإسراء: ٣٧.
(٣) الأعراف: ٨٥.
(٤) الملك: ١٥.

لأن اللّه يحبّ العبد المحترف[١]، وما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[٢]، فسكت المفضّل. فهو عليه السلام يريد أن يقول له: إذا لم تكن تفقه المسائل، فلا تتفيقه على غيرك؛ فإن اللّه قد أمرني بأن أعمل وأعول عيالي، فأنا ذاهب لأمر اللّه، بل أنا في حدود طاعة اللّه تعالى وفي نطاق أوامره.

المبحث الثالث: الزهد شعبتان

إذن كيف يكون توجيه كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: **«طوبىٰ للزاهدين»**؟ إن توجيه هذا الحديث الشريف يمكن أن يتمّ بالقول: إن الزهد له شعبتان في المنظور السليم والتصوّر الصحيح اللذين رسمتهما لنا الروايات الشريفة والسنة المطهّرة:

الشعبة الأولىٰ: عدم إهلاك النفس حسرات علىٰ الدنيا

فالآية الكريمة تقول: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**[٣]. وهي هنا تصوّر حال الانسان حينما يتوقّع من عمل ما، يقوم به أو مشروع اقتصادي يدخله أن يكون مردوده المادي ونفعه المالي كبيرين، ثمّ يأتيه منهما أقلّ مما توقّع بكثير، وتكون النتيجة أن يترك نفسه تتأكّل تحت وطأة الحزن، فينتابها الألم والحسرة علىٰ ما فات من متاع زائل.

---

(١) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

(٣) الحديد: ٢٢ ـ ٢٣. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال اللّه سبحانه: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. ومن لم يأسَ على الماضي ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه». نهج البلاغة / ٤٣٩.

فالإسلام يقول لهذا: لا تهلك نفسك حسرات على الدنيا. وهنا يتدخّل القرآن الكريم ليقول له: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾. فالإنسان باستسلامه لليأس والحزن علىٰ الدنيا، ولحسراته عليها لن يستطيع أن يحصل علىٰ شيء من الدنيا ثانية.

فالإسلام يوجّهنا ويحذّرنا من أن ننظر إلىٰ ما عند غيرنا نظرة غير مشروعة، ويضع لجاماً لتصرّفاتنا إزاء هذا الأمر؛ ليهذّبنا ويحدّ من تطرّفنا: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾[1]. وهو يطالبنا بأن نكتفي بما عندنا مما آتانا اللّه تعالىٰ، ولا نطمح إلىٰ ما وراء ذلك مع بذل الجهد لأجله.

الشعبة الثانية: اجتراح المال في الحلال وصرفه في الحلال

وهذا أيضاً تصوّر سليم للزهد رسمته لنا السنة المشرّفة. فالإنسان يجب أن يعمد إلىٰ الطرق المشروعة في الكسب فينتهجها، وبعد أن يحصل علىٰ المال الحلال يضعه في قناة نظيفة مشروعة توصله إلىٰ هدفه الصحيح من موارد الصرف التي يرتضيها اللّه لنا. فهذا التصرّف في الكسب والعطاء عبارة عن تفاعل مع المجتمع بالمورد، كما أنه لأجله. فإن كان هذا التفاعل غير سليم ومنحرفاً فسوف ينعكس سلباً علىٰ المجتمع.

والانحراف هنا قد يتمثّل بسرقة حقّ الغير، أو غشّ الغير في المعاملة وغيرها، أو خديعته لأجل الاستيلاء علىٰ ما يملك، وهي نوع من السرقة أيضاً ووجه من وجوهها. وقد يتمثّل الانحراف باحتكار السلع والبضائع والأطعمة فيجيع المحتكر الآخرين، وقد يتمثل الانحراف أيضاً بالصرف غير

---

(١) طه: ١٣١.

المشروع، كإنفاق المال على موارد الحرام من شرب خمر وانخراط في مجالس اللهو والفجور وغير ذلك. ومما يروى في هذا المجال أن أبا حنيفة صاحب المذهب الإسلامي المعروف كان له جار من الكيّالين مغرم بالشراب، وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

قال فأخذه العسس ليلة وحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيّال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس. فلما أصبح أبو حنيفة توجّه إلى الأمير عيسى بن موسى فاستأذن عليه، فأذن له، فلمّا دخل عليه أقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلح الله الأمير، إن لي جاراً من الكيّالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كلّ من في الحبس إكراماً له، فأقبل الكيّال على أبي حنيفة يتشكّر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرّض له بشعره الذي ينشده، قال: لا والله[١].

فمعنى الانحراف في الصرف: انحراف المجتمع بالنتيجة، وإلّا فإن شارب الخمرة إنما يشرب ما يُنفد عقله ويضرّه بعد أن كان قد اشتراه بما تعب من أجله وعرق لكسبه في حرّ الصيف أو في برد الشتاء، فها هو يصرفها في مورد ملوّث. وربما يصرفها كذلك في الاعتداء على أعراض الناس الذي هو أبرز مصاديق الانحراف في المجتمع.

فالزهد إذن على ضوء هذا التصوّر الذي نحن بصدده هو اكتساب المال من

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

الحلال وصرفه في الحلال، وهذا هو معنىٰ الزهد في أسلم مفاهيمه، لا أنه ترك لذائذ الحياة؛ لأن هذا مفهوم سلبي للزهد، ويتعارض مع المفهوم الإسلامي له. سئل الإمام الصادقعليه السلام عن الزهد فأجاب السائل بأن اللّه عزّ وجلّ خلق النعم فإن لم يتمتّع بها الإنسان، فمن يتمع بها إذن؟

علىٰ أي حال فإن اللّه خلق الأرض وسخّرها لنا بأجمعها، بما فيها من بحار ومحيطات، وما أودع داخلها من حلية ولباس وطعام ومعادن وزراعة وغيرها. فإذا كان الإنسان لا يتمتّع بهذا كلّه فلمن يُترك إذن؟ هل يترك للحيوان يتمتّع به وحده؟ طبعاً لا؛ فإن لبسك من حلال وأكلك من حلال وتصرّفك من حلال لا ينافي الزهد أبداً. فكلْ ما شئت والبس ما شئت لكن لا تتعدّ حدود اللّه أو حدود مراعاة المجتمع، وهي الضوابط الأخلاقية التي حثّنا الإسلام علىٰ لسان الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرينعليهم السلام علىٰ اتّباعها(١).

أما القائل خلاف هذا، والداعي إلىٰ نبذ الحياة الدنيا كلّها، فهو شاذّ لا علاقة له بالإسلام ولا للإسلام به؛ لأنه بعيد عن الإسلام وواقع الإسلام

---

(١) قال رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.
وقال أمير المؤمنينعليه السلام: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.
ورواهُ الصدوقرحمه الله وزاد عليه: ثم قالعليه السلام: «حلال بيِّن، وحرام بيِّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى اللّه عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

الذي يتعامل مع الحياة بشكل واقعي بعيد عن الطوباويّة والمعالجات السلبيّة لمشاكلها، وبعيد عن الهروب من مشاكلها أو آفاتها. كما أن هذا الداعي يصوّر الإسلام بصورة غريبة عنه لا تمسّ حقيقته بشيء أبداً.. بصورة تنفرّ الناس منه وتبعدهم عنه.

وقد يسأل سائل فيقول: لكن ألم يكن أهل البيت عليهم السلام كذلك؟ ألم يمتنعوا من لذائذ الدنيا ويأكلوا الجشب ويلبسوا الخشن ويعيشوا عيشة الفقراء مع أن اللّه تعالىٰ سخّر لهم الدنيا؟

والجواب: أن هذا صحيح، لكن وضع أهل البيت عليهم السلام يختلف عن غيره، ذلك أنهم عليهم السلام قمم ونجوم أهل الأرض وأمانهم ومقتداهم[1] فهم يتأسّون بأضعف الناس[2].

---

(١) قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤، وانظر شواهد التنزيل ١: ١٨٩، ١٩١.

(٢) فعن الرضا عليه السلام أنه قال لمحمد بن أبي نصر: «البس وتجمّل؛ فإن عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يلبس جبّة الخز بخمسمئة درهم، ومطرف الخزّ بخمسين ديناراً، فيشتو فيه، فإذا خرج الشتاء باعه، فتصدّق بثمنه». وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. تفسير العياشي ٢: ١٩ / ٣٤.

ودخل سفيان الثوري وعليه ثياب الصوف على الصادق عليه السلام وكان عليه ثياب رقاق، فقال له: يا مولاي، إن جدّك علياً عليه السلام كان يلبس من الثياب ما خشن، فلم لا تقتدي به؟

دخل أمير المؤمنين﴿ع﴾ على العلاء وقد بنى له داراً ولا يريد أن يدخلها، فأنّبه الإمام﴿ع﴾ على ذلك، وبيّن له أن الله أكرم من أن يأمره ببناء دار له، ثم يكره له أن يسكنها. ولما احتج له العلاء بسيرته هو﴿ع﴾ في هذا الباب أجابه بما معناه: أن حالك غير حالي؛ فإني أريد أن أعايش أضعف الناس، وأن أُشاركهم مستواهم المعيشي؛ فلا أتميّز عنهم؛ لأن هذه هي وظيفة القائد

☚ فقال﴿ع﴾: «كان جدّي في زمان ضيق بعدُ، لم تتّسع الدنيا على المسلمين كاتّساعها في هذا الوقت، ونحن قوم إذا وسّع الله علينا، وسّعنا على أنفسنا؛ لأن الله إذا أنعم على عبده بنعمة، أحبّ أن يرى أثرها عليه. وإنما خلق الله الدنيا وما فيها من الملاذّ للمؤمن، لا للكافر؛ لأنّه لا قدر له عنده. ولو كان عليّ﴿ع﴾ في مثل هذا العصر، لما وسعه إلّا أن يسلك مثل ما سلك أهله؛ لئلّا يقال: إنه مُراءٍ، ولئلا يشتم بثيابه ومأكله، مع أن علياً﴿ع﴾ كان والياً، فلو أنّه لبس مثل هذا؛ لاتّهمه المسلمون على أموالهم. فينبغي له أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتّى يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالي وما هو عليه، وأمّا أنا، فلست بوالٍ، ولو كنت والياً لاقتديت به». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨.

ويؤيّد قول الإمام الصادق﴿ع﴾ هذا ما روى ابن عبد ربّه من أنه أصابت الربيع بن زياد الحارثيّ نشّابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه أمير المؤمنين﴿ع﴾ عائداً له، فقال له أخوه الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك أخي عاصماً؟ قال: «وما به؟». قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغمّ أهله، وأحزن ولده. فقال﴿ع﴾: «عَلَيَّ عاصماً».

فأُتي به، فعبس الإمام﴿ع﴾ في وجهه وقال: «ويحك يا عاصم، أترى أن الله أباح لك اللذّات، وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك. أوما سمعته يقول: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؟ فاطر: ١٢؟ أما والله، إن ابتدال النعمة بالفعال، أحبّ إليه من ابتدالها بالمقال. وقد سمعته تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾؟».

قال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشب؟

فقال﴿ع﴾: «إن الله افترض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلّا يشنع بالفقير فقره».

فما برح أمير المؤمنين﴿ع﴾، حتّى لبس عاصم الملا، ونبذ العبا. العقد الفريد ٢: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

والراعي. ومن ناحية أُخرىٰ فأنا إن فعلت ذلك فربما يظنّ البعض أني أسرقهم أموالهم، ولا أُريد لأحد أن يقول: سلبني علي بن أبي طالب حقّي وتمتّع به في قصر وتركني أرزح في كوخ، بل أُريد أن أُشعره بأني وإياه في مستوىً واحد.

وهذا قد وقع فعلاً، فبعد قدومه الكوفة أعدّ له الجند قصر الأمارة وهيؤوه، وطلبوا منه أن ينزل به، فرفض ذلك وقال: **«لا واللّه، إنه قصر الخبال، جنّبونيه»**. ثمّ اشترىٰ له بواري وحصراً، وبنىٰ له بيتاً من قصب يلامس رأسه إذا قام فيه، ذلك البيت الذي استحال ـ بعد لحوقه عليه السلام بالرفيق الأعلىٰ تبارك وتعالىٰ ـ قمّة شمّاء تناطح السماء عزّة وسموّاً ورفعة وطيب ذكر. وقد قارن أحد الأُدباء المعاصرين بينها وبين قبّة الخضراء التي كان يسكنها معاوية، والتي كلّفته من بيت مال المسلمين ثمانية عشر بعيراً ذهباً وفضّة، ثمّ بعد ذلك حوّلها إلىٰ سجن. وقد كان معاوية يسكنها في الوقت نفسه الذي كان الخليفة الشرعي المنصوص عليه والمنتخب من الأمة أمير المؤمنين عليه السلام يسكن تلك الخربة التي بناها من البوراي والحصر، يقول هذا الأديب:

قُم وارمُقِ النجفَ الأغرَّ بنظرَةٍ ... يرتدُّ طرفُكَ وهوَ باكٍ أرمدُ
تلكَ العظامُ أعزَّ ربُّك شأنَها ... فتكادُ لولا خوفُ ربك تُعبَدُ
أبداً تُباكرُها الوفودُ يَحُثُّها ... من كلِّ صوبٍ شوقُها المُتَوقِّدُ
نازعتَها الدنيا ففزتَ بورِدِها ... ثُمَّ انطوىٰ كالحُلْم ذاكَ الموردُ
وَسعَت إلىٰ الأخرىٰ فأصبحَ ذِكرُها ... في الخَالدينَ وعطفُ ربِّكَ أخلَدُ [١]

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجذوب بعنوان (علىٰ قبر معاوية)، وقد مرّ قسم منها في ج ٢ ص ٣٤٤ من كتابنا هذا.

وأي سعي كان الناس يسعون إليه مع علمهم أنه لم يكن إلّا قصباً وحصراً وبواريَ؟ كان عظماء الناس يسعون إليه علىٰ جفونهم فضلاً عن أرجلهم. وما أروع ما صوّره عبد الباقي العمري في قصيدته، وكان قادماً نحوه في سفينة في نهر الفرات، وفيها أنشد قصيدته التي يقول فيها:

بنا من بنات الماء للكوفة الغرّا صبوح سرت ليلاً فسبحان من أسرىٰ[1]

وبعد أن لامست قدماه الرمل الطاهر أنشد قائلاً مرتجلاً أبياتاً رائعة منها:

ولمّا سرينا للغريّ عشيّةً لمن قد ثوىٰ فيه احتراماً وتبجيلا
ربطنا بأخفافِ المطيّ ثغورَنا فأوسعت الصحراءَ لثماً وتقبيلا

فالدنيا بطبيعة الحال بالنسبة لأمير المؤمنين﵇ ولأهل البيت﵈ لا تعني شيئاً، وهم يريدون ألّا يمتازوا عن غيرهم من ضعفة الناس. ثمّ إن القرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار منادياً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّـهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2].

المبحث الرابع: في معنىٰ الرغبة في الآخرة

ثمّ قال﵇: «**الراغبين في الآخرة**»، وتتجلّىٰ الرغبة في الآخرة بطاعة اللّه والرغبة فيما عنده وطلبه، وذلك بعلائق الإنسان مع الناس والمجتمع. وهذه العلائق يجب أن يحكمها الدين والشرع، وألّا تكون تحت مقياس وتوجيه الحاجة والمصالح الشخصية، بحيث إن عيادة المريض وإلقاء التحية وغيرهما

(١) ديوان غبد الغفّار الأخرس: ١٦٤ (تخميس قصيدة العمري).
(٢) الاعراف: ٣٢.

تصبح أُموراً تقيّدها تلك المصلحة فلا يعاد المريض إلّا إذا كان من أصحاب الأموال والجاه، ولا تلقىٰ التحية إلّا علىٰ ذوي الشرف والغنىٰ، ويترك الفقير دون مراعاة لتلك الأخلاقيات معه لا لشيءٍ سوىٰ أنه فقير معدم. وهذا الذي يوقف فعله علىٰ مثل هذه المقاييس الدنيوية النفعيّة لا يبتغي وجه اللّه حتماً؛ لأن وجه اللّه يؤتىٰ من كل جهة ومع كلّ مورد، بغض النظر عن خصوصيّات ذلك المورد.

فالذي ينشد وجه اللّه تعالىٰ يرىٰ في عيادة الفقير إحساناً لمؤمن يستوجب عليه رضا اللّه، ويرىٰ أن إلقاء التحيّة عليه مرتبة من مراتب الأخلاق والسموّ الروحي، ويرىٰ أن علاقته الطيّبة مع الناس وودّه لهم وقضاء حوائج المحتاج منهم والفقير هي من موجبات مغفرة اللّه ورضوانه. فمثل هذا ينمّ سعيه وعمله عن أنه للآخرة، وعن رغبته فيها.

المبحث الخامس: معنىٰ اتّخاذ القرآن شعاراً

ثمّ قال عليه السلام: **«الذين اتّخذوا القرآن شعاراً»**، ومعنىٰ اتّخاذ القرآن شعاراً: أن القرآن يلاصقهم كما يلاصق الشعار الجسم، وهو الثوب الذي يلاصق الجسم، فعند العرب أنه شعار، والذي يكون فوقه دثار.

فالزاهدون هم الذين يريد منهم ألّا يفارقهم القرآن ولا يفارقوه بحال من الأحوال، وهو ملاصق لعقولهم وتفكيرهم كما يلاصق الثوب أجسامهم. وهذا الزاهد هو المسلم الحقّ في نظره (سلام اللّه عليه)، وهذا المسلم الحقّ هو الذي يكون كلامه من القرآن وفيه، وآدابه آداب القرآن وخلقه خلق القرآن؛ فالقرآن مستودع وافٍ لكل هذه المفاهيم. وكم هو أمر جميل أن يتفهم المسلم القرآن ويعرف أهدافه ومراده، وهذا طبعاً لا يتأتىٰ إلّا بالتواصل اليومي

المستمرّ مع القرآن؛ فلابد للمسلم أن يقرأ كل يوم منه ما يتيسّر ولو عشر آيات من أجل العظة والتأدّب بآدابه والتبرّك به. ومن لم يستطع أن يقرأ فبإمكانه أن يستمع لمن يقرؤه. وعلىٰ المسلم ألّا يكتفي بقراءة القرآن، بل أن يسأل عن معانيه وشروحه ومسائله وحِكمه وأحكامه ومغازيه[1]؛ كي يكون علىٰ مستوىٰ المسلم الواعي المثقف بالثقافة والوعي الإسلاميين.

العرب والقرآن

وأُحبّ أن أُلفت نظرك إلىٰ نقطة هامة هي أن العرب في الجزيرة كانت آذانهم تستذوق النغم الموسيقي في الكلام ـ أي أنهم كان عندهم حسّ منغّم ـ فكانوا إذا سمعوا الشعر طربوا له سيّما إذا نال إعجابهم ووقر في سمعهم إيقاعه، فهم ذوّاقون للفن الأدبي؛ وهذا هو الذي يجعل أحدهم يطرق وهو يسمع مقطوعة أدبية أو قصيدة شعر حتىٰ ينتهي منشدهما منهما. يروىٰ أن أحد الشعراء لمّا أنشد هذا البيت:

تزجي أغنّ كأن أبرة روقه　　قلم أصاب من الدواة مدادها

سجد له الشعراء، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نحن نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن[2]. فهم يقولون: كما أنكم تسجدون حينما تصلون إلىٰ موضع السجود في آيات معلومة من القرآن الكريم فكذلك نحن نسجد حينما نسمع ما يستوجب السجود من الشعر؛

---

(١) قال أمير المؤمنين ﷺ: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

(٢) البيت لعدي بن الرقّاع. أمالي المرتضىٰ ٣: ٩٨، ٤: ٣٧ ولم يذكر موضع الشاهد، شرح نهج البلاغة ١١: ١٥٢.

لعظمته ورفعته وروعته.

وهذا طبعاً ناشئ مما خلّفه الإيقاع الموسيقي للبيت في مسامعهم، فهو الذي يجعلهم يحبّون سماع الشعر ويطربون له.

وكذلك القرآن الكريم فإنه حينما نزل لم يَبقَ للنصوص الأدبية شعراً ونثراً ذكر، ولم يُسمع لها أثر؛ لأن القرآن الكريم بما فيه من معانٍ وإيقاع وفن أدبي رفيع رائع، وجوّ روحي قد ملك عليهم أسماعهم[1]. وقد خلق بتلك الروحية العالية التي كانت تغطي كل مساحاته وأبعاده من ذلك العربي الذي كان لا يعرف في ليله إلّا السلب والنهب والقتل والشدة، خلق منه إنساناً مؤمناً عطوفاً شغوفاً يعمر ليلَه القرآنُ الكريم تلاوة وتفكراً وعملاً بمبادئه وأحكامه. وقد أصبح ينزل في كل واقعة عند حكم القرآن ولو كان عليه، بعد أن كانت أنفته تمنعه حتىٰ من تقبيل أطفاله.

وهكذا يُسمع إيقاع القرآن ليلاً من بيوتات المسلمين وهو يأسر سامعه بما فيه من صور أدبية رائعة تشخّص وتبيّن الكثير من الحقائق. وحينما يُصغىٰ إليه وهو يصف ما أعد اللّه تعالىٰ للصالحين من ثواب وجزاء ومكافأة يُلفىٰ وقد أخذ يمنح الوجود والمسامع صوراً كلّها عطاء وذوق، ويستشعر الإنسان معها لذّة النعمة تخالجه. فمثلاً حينما يقول: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

---

(١) وكمثال علىٰ ذلك فإن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠] قال: واللّه إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمونق وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر. مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩، مجمع البيان ٦: ١٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥، ١٧: ١٥١، ١٩: ٧٤.

نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾[1]. فإن السامع سوف يحسّ بروعة الإيقاع وشريط الصور الممتعة المشرقة، فهو يستعرض نعيماً قد صُوّر بأدقّ تصوير.

وحينما يصف سخط اللّه تعالىٰ علىٰ المجرمين بقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[2] فإن السامع يجد نفسه وهو يتلقّى أروع وصف لحال المجرمين الذين سيعذبهم اللّه، وسيجد صوراً مرعبة ملؤها الرهبة والخوف. وهذا طبعاً كلام مع الإنسان الذي يملك خلفية ثقافية أدبية ولغوية جيّدة، فهو الذي سيؤخذ بها وستأسر له مجامع قلبه.

فقوله﴿: «**الذين اتخذوا القرآن شعاراً**» أي جعلوا القرآن هاديهم وإمامهم ومرشدهم، وهو معهم أينما كانوا في عقولهم وأذهانهم وعلىٰ ألسنتهم. وأنا أعتقد أن أغلب بيوت المسلمين الآن لا يُسمع فيه صوت القرآن الكريم، فهم يقتنونه ويركنونه علىٰ الأرفف للتبرّك بوجوده ليس إلّا، أما أن يقرؤوه ويتّبعوا

---

(١) الدهر: ١ ـ ١٤.
(٢) إبراهيم: ٤٨ ـ ٥٠.

ما جاء الرسول به فهذا لم يكن من أغلبهم. وهذه كارثة كبرىٰ، وإلّا أين الذي يستيقظ عند الفجر ويناجي اللّه بكلامه الذي أنزله علىٰ نبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم[1]؟

وقد سئل أحد العبّاد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتَك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن يكلمني اللّه قرأت القرآن؛ لأنه كلام اللّه، وإذا أحببت أن أُكلّم اللّه صلّيت.

وأنا لا أُريد من علىٰ هذا المنبر من كلّ إنسان أن يكون كذلك؛ لأنه لا يمكن لكل إنسان أن يفعل هذا الفعل من جهة، ولاشتماله علىٰ جنبة سلبيّة من جهة أُخرىٰ، وهي اعتزال الناس وعدم التفاعل مع المجتمع. كما أني لا أُريد أن أخلق هذا الاستعداد للتصوّف عند الإنسان، أو أُحتّم عليه أن يملكه، لكن كل ما أُريده هنا هو أن يجلس المؤمن كلّ يوم صباحاً فيؤدّي صلاته ويناجي اللّه تعالىٰ بالقرآن والدعاء. وما عندنا من الأحاديث التي وردت في السنة النبويّة الشريفة في الحثّ علىٰ قراءة القرآن الكريم شيء كثير، ومنها قوله عليه السلام: **«من قرأ القرآن في المصحف متّع ببصره وخفّف عن والديه وإن كانا كافرين»**[2].

المبحث السادس: المراد من الأرض في الحديث الشريف

ثمّ قال عليه السلام: **«وأرض اللّه فراشاً»**، المراد بالأرض هنا: التواضع، حيث إن

---

(١) عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: متى يحرم الطعام والشراب على الصائم، وتحلّ الصلاة.. صلاة الفجر؟ فقال: «إذا اعترض الفجر وكان كالقبطية البيضاء، فثم يحرم الطعام ويحلّ الصيام وتحلّ الصلاة صلاة الفجر». قلت: فلسنا في وقت إلى أن يطلع شعاع الشمس؟ فقال عليه السلام: «هيهات أين تذهب؟ تلك صلاة الصبيان». الكافي ٤: ٩٩، الفقيه ٢: ١٣٠ / ١٩٣٤.

(٢) الكافي ٢: ٦١٣ / ١، ثواب الأعمال: ١٠٢.

الأمر ينتهي بهؤلاء الزاهدين إلىٰ أن يجلسوا حيث هم وحيث ينتهي بهم المجلس، ولا يداخل أحدهم أمر دنيوي من قبيل أن الرفعة والسموّ وغيرهما هي أُمور تكون بتسنّم الكراسي وتناول المناصب. كما أنهم يعلمون جيداً أن الكرسي الذي يمتطيه صاحبه يكون أفضل من صاحبه في كثير من الأحيان. يقول أحد الأدباء، وقد رأىٰ طبيباً اسمه توما راكباً علىٰ حمار له:

قال حمار الطبيب توما لو أنصفوني لكنت أركبْ
لأنـني جاهل بسيط وراكبي جهله مركّبْ[1]

وكرامة الإنسان ليست من كرسي يجلس عليه أو طنفسة يفترشها ويتربّع عليها، بل إن من هو أهل لأن يكون كذلك إذا جلس علىٰ التراب أحاله إلىٰ عرش وقمّة من أنفس وأثمن ما في الوجود؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يفرح إذا ما كُنّي بأبي تراب. وسبب تلك الكنية وحبّه لها أن النبي صلى الله عليه وآله أدركه ذات يوم نائماً، وقد خلص التراب إلىٰ جسمه، فقال صلى الله عليه وآله له: **«قم أبا تراب»**[2].
يقول أحد الأُدباء:

أأبا ترابٍ للترابِ تفاخرٌ أنْ كانَ منْ أمشاجِهِ لكَ طينُ
الناسُ من هذا الترابِ وكلُّهم في أصلهِ حمأٌ بهِ مسنونُ
لكنما من ذا الترابِ حوافرٌ ومن الترابِ حواجبٌ وعيونُ
فإذا استطالَ بك الترابُ فعاذرٌ فلأنتَ من وجهِ الترابِ جبينُ
وإذا رجعتَ إلىٰ الترابِ فلمْ تمتْ كالجذرِ ليس يموتُ وهو دفينُ
لكنَّهُ ينمو ويفترعُ الثرىٰ وترفُّ منهُ براعمٌ وغصونُ[3]

---

(١) المثل السائر ٢: ٣٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٦٠.
(٣) ديوان المحاضر ١: ١٩.

فالحقيقة أن هذا الرجل العظيم قد اتّخذ له من التراب عرشاً، وهو الذي أصبح فيما بعد ذهباً متألّقاً يناطح السماء؛ فهو أبو تراب الذي عشق التراب، وما كان لينقص من قدره أو يقلّل من قيمته، بل التواضع هو الذي يرفع الإنسان ويسمو به[1]. وهذا لا يعرفه ولا يدركه إلّا ذو النفس الكبيرة والهمّة العالية..النفس التي تدرك أن كبرها وسموّها هما فيما تحمل من إنسانيّة وعطاء للمجتمع.

المبحث السابع: الإسلام نظيف

ثمّ قال عليه السلام: **«وماءها طيباً»**، إن أطيب الطيب هو الماء، والماء هنا كناية عن النظافة، فهؤلاء الزاهدون من صفاتهم أنهم دائماً علىٰ نظافة وطهارة. والرواية تقول: **«المؤمن قاذورة»**[2].

---

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن فى السماء ملكين موكلين بالعباد؛ فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبّر وضعاه». الكافي ٢: ١٢٢، مشكاة الأنوار: ٤٠١.

وقال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... علىٰ صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه ... إلىٰ طبقات الجو وهو وضيعُ

وقال آخر:

حبلىٰ السنابلِ تنحني برؤوسِها ... والفارغاتُ رؤوسُهن شوامخُ

(٢) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان قاذورة، لا يأكل الدجاج حتى يعلف. والقذر: خلاف النظافة، وهو مجتنب؛ فمن ثم قيل: قذّر الشيء، إذا اجتنبه كراهة له. قال العجاج:

وقذّري ما ليس بالمقذور

ومنه قالوا: ناقة قذور، إذا كانت عزيزة النفس لا ترعى مع الإبل، ورجل قاذورة، إذا كان متقذّراً. الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٧٥.

فالقذر لفظ من الأضداد.

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تحثّ علىٰ النظافة[١] هو الذي جعلنا ننظر إلىٰ الزهد بهذا المنظار الإيجابي المستقىٰ من السنة، وإلّا فإن البعض يعتقد واهماً بأن الزهد هو الاعتزال عن المجتمع وعدم التفاعل معه، وهو الثياب المتّسخة والجسم القذر. فالإمام﴿ع﴾ يريد أن يصحّح هذا المفهوم المخطوء في أذهان الناس فيقول: «**اتّخذوا... ماءها طيباً**». فاللّه تعالىٰ قد خلق لنا هذا الماء كي نتطهر به ونتنظف، دخل يوما أبو الأحوص الجشمي إلىٰ المسجد، فرآه النبي﴿ص﴾ وسخ الثياب نتن الرائحة، فقال﴿ص﴾ له: «**هل عندك أموال؟**». قال: نعم. فقال﴿ص﴾: «**من أيها؟**». قال: أعطاني اللّه من كلّها؛ من الإبل والبقر والغنم والمزارع والتجارة. فقال ﴿ص﴾: «**أما وجدت ما تلبسه؟**».

فكأنه﴿ص﴾ يقول له: ألم تجد ما تغسل به بدنك؟ مع أن هذا الأُسلوب ليس من خلق النبي الأكرم﴿ص﴾، فهو واسع الخلق بتعبير القرآن الكريم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٢]. لكنه حينما وصل الأمر إلىٰ النظافة وعدم الاهتمام بها

---

(١) كقوله﴿ع﴾: «تنظفوا بالماء من النتن، والريح الذي يتأذى به. وتعاهدوا أنفسكم فإن الله؛ عزوجل يبغض من عباده القاذورة الذي يتأنّف به من جلس إليه». الخصال: ٦٢٠.
قال النبي﴿ص﴾ لأنس: «يا أنس، أكثر من الطهور يزد الله في عمرك، فإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة متّ شهيداً».
وقال أمير المؤمنين﴿ع﴾: «تنظّفوا بالماء من الرائحة المنتنة؛ فإن الله تعالى يبغض من عباده القاذورة».
وعنه﴿ع﴾: «غسل الثياب يذهب الهم وهو طهور للصلاة». مكارم الأخلاق: ٤٠:
«تنظفوا بكل ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». الجامع الصغير ١: ٥١٧ / ٣٣٦٩، كنز العمال ٩: ٢٧٧ / ٢٦٠٠٢.
(٢) القلم: ٤.

وإلىٰ إيذاء الغير بتركها ضاق ذرعاً بأبي الأحوص وقال له ما قال.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يذكّره بأن اللّه تعالىٰ حينما أنعم عليه بكل هذه النعمة فمن الواجب عليه أن يظهر الشكر له علىٰ ما أنعم به عليه، وأن يتمتّع بهذه النعمة؛ فيلبس اللباس الحسن، وينظف جسمه ويطهره من الأقذار والنجاسات. ويريد من الناس أن يقتدوا به، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم مثال النظافة والطهارة[1].

وقد كان الحسنان عليهما السلام غاية في النظافة؛ فقد كانت الزهراء عليها السلام تباشر تنظيفهما والعناية بهما كلّ يوم، ثمّ تلبسهما ثياباً بسيطة ونظيفة، وتأخذهما إلىٰ جدّهما حيث يدرجان إلىٰ حجره الشريف، فيفتح صلى الله عليه وآله وسلم ذراعيه الطاهرتين ليضمّهما إلىٰ صدره ويظلّل عليهما وهما في حجره، فتأخذ اليد اليمنىٰ الحسن عليه السلام واليد اليسرىٰ الحسين عليه السلام وينحني علىٰ تلك الشفاه ليشبعها لثماً وتقبيلاً.

يا رسول اللّه، ليتك تنظر هذه الشفاه التي لامست شفاهك كيف أن عصا يزيد تعبث بها ضرباً بما يحمله من حقد وضغينة علىٰ آل بيتك (صلوات اللّه وسلامه عليهم):

يناعي اشبعد تدري اشبكالي ... وشــخلّفت عــندي اللــيالي

* * *

مــنازل كــانت نــيرّاتٍ بأهــلها ... تــوالىٰ عــليها غــبرة وقــتامُ

ألا لا تـــزان الدار إلّا بأهـــلها ... علىٰ الدار من بعد الحسين سلامُ

---

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ممسكة إذا هو توضّأ أخذها بيده وهي رطبة، فكان إذا خرج عرفوا أنه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم برائحته». الكافي ٦: ٥١٥ / ٣.

﴿٩٧﴾

روح التسامح في الدين الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أسباب نزول الآية

لقد كانت حالة المسلمين في صدر الإسلام حالة تشابك أُسري مع المحيط الذي يعيشون فيه؛ حيث إن أغلب أُمّهاتهم أو إخوانهم أو آبائهم كانوا مشركين، أي أن البعض من الأبناء قد أسلموا وبقي آباؤهم مشركين، وهكذا. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن اليهود كانوا متجذّرين في شبه الجزيرة العربية، وكانت مجموعة كبيرة منهم في المدينة وجماعة في أطراف مكّة وهؤلاء كانوا يصاهرون المشركين؛ ولذلك ترىٰ أنه كان لبعض الأنصار إخوة من اليهود.

وهذا قبل أن يأتي الإسلام؛ فكان بسببه أن حدث تشابك بينهم وأخوة

---

(١) البقرة: ٢٧٢.

وترابط نسبي ومصاهرة. لكن عندما جاء الإسلام دخل بعض المسلمين علىٰ النبي ﷺ وقالوا له: يا رسول اللّه إن آباءنا وأُمّهاتنا وإخواننا مشركون، فهل يجوز لنا أن ننفق عليهم أم لا؟ فبعضنا يرتئي أنه لا يجوز لنا أن ننفق عليهم حتىٰ نحملهم علىٰ الإيمان. وكذلك دخلت أسماء بنت أبي بكر علىٰ رسول اللّه ﷺ وقالت له: إن والدتي وبعض أقاربي مشركون، فهل أستطيع أن أُنفق عليهم؟ وكان الرسول ﷺ قد أمرهم عندما كثر المسلمون أن ينفقوا علىٰ أهل دينهم؛ لأن الأقربين أولىٰ بالمعروف، والذين ليسوا من أبناء دينهم فإن عليهم أن ينتظروا النتيجة. فنزلت الآية الكريمة تبيح للمسلمين أن ينفقوا عليهم من الصدقات غير الواجبة.

إذن سبب النزول من الناحية الابتدائيّة هو وجود اختلاف في العقيدة، وأن هذا الاختلاف لا يوجب التقاطع من الناحية المادية مع وجود القرابة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية هل إنه يختصّ بعدم إعطاء المال إلىٰ هؤلاء من المورد الخاصّ، أم أنه يمنع عنهم من كلّ الموارد؟ والجواب أنه يمكن إعطاؤهم من كلّ الموارد العامّة عدا الصدقات الواجبة، كما سيأتي.

المبحث الثاني: معنىٰ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾

لنرجع إلىٰ الآية الكريمة حيث تقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾، وفي هذا المقطع من الآية الشريفة للمفسرين عدّة آراء منها:

الرأي الأوّل: أن وظيفة الرسول ﷺ تبليغيّة فقط

فالآية حينما تقول للنبي ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾، فمعنىٰ هذا أنّ

وظيفتك التبليغ فقط، ويكون مفادها تقريباً مفاد الآية: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١].

وهذا معناه خضوع هذه الآية لقاعدة عامّة هي أن كلّ حكم شرعي مقيّد بالقدرة على فعله؛ فإذا انعدمت القدرة خرج الأمر عن التكليف. والنبي ﷺ حينما أمر المسلمين بأن يعتقدوا بالله وبوحدانيته فإنما قيّد وظيفته بما يظهرونه من ذلك. أما ما يخفونه في قلوبهم كمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر فإنه لا يمكن أن يسيطر عليه؛ لأنه ليس من اختصاصنا. فعلينا الظاهر. فهو ﷺ مذكّر هؤلاء على ضوئه.

الرأي الثاني: أنه الهدى الطوعي

وعليه فيكون معنى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ هو الهدى الذي يأتي عن طريق الرضا والقناعة، أما الذي يأتي عن طريق الجبر فهو ليس بهدى. وكمثال على هذا ينصّ الشرع على وجوب كون التجارة عن تراضٍ بين الطرفين، أما إذا أُجبر أحدهما على العقد فالعقد حينئذٍ غير صحيح، والبيع لا ينعقد؛ لأن من شروط العقد الاختيار، وإذا تخلّف الشرط تخلّف المشروط.

وبالمناسبة أوّد أن أذكر أن بعض الناس يجبر البنت على الزواج، ويأمرها بأن تقبل بفلان تحت الإكراه، وهذا العقد باطل، والنكاح لا ينعقد ولا يصحّ إلّا إذا رضيت بعدها، وحتى الولد الذي يولد منهما فهو ابن غير شرعي. ومعنى هذا أن مسألة الاختيار ضرورية في العاقد والعقد والعقيدة والمعاملة، فلابدّ من الاختيار. وهذه هي الحرية، ولذلك نقول: إن الإسلام هو دين

---

(١) الغاشية ٢١ ـ ٢٢.

الحرية، يعني بما وفّر للإنسان من حرية الاختيار في عقيدته وعقوده، وفي جميع مستلزمات حياته.

فالعقيدة التي تُفرض علىٰ المرء بالسلاح والإرهاب لا يعبّر عنها بلفظ العقيدة؛ بل إنها تسمىٰ فريضة، أي أنها تفرض علىٰ الإنسان بالقوة.

الرأي الثالث: أنه لا تقطع رزقهم كوسيلة للضغط عليهم

وهناك رأي ثالث يذهب إلىٰ أن معنىٰ الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾: لا تضغط عليهم عن طريق قطع أرزاقهم. وهذه النقطة مهمة جداً؛ فهناك أُناس يستحقّون النفقة وفق ضوابط الشريعة الإسلامية بصفتهم بشراً محتاجين لها وإن كانوا مخالفين للحاكم بالعقيدة. وهذا من مثل ما لو أن زوجة أحد علىٰ دين آخر أي أنها كتابية، ففي هذه الحالة هل يجب على الزوج النفقة عليها، أم لا؟ بحكم النفقة الزوجية طبعاً عليه أن ينفق عليها؛ فمسألة العقيدة لا تتدخّل في منع أرزاق الناس عنهم.

ومن يذهب إلىٰ هذا الرأي المهدوي ـ وهو من علماء أهل السنة ـ فيقول: هو جائز حتىٰ من الزكاة الواجبة، لكن القرطبي وغيره[1] ردّوا عليه بردّ مطوّل. أما الإمام أبو حنيفة فيذهب إلىٰ جواز إعطائهم من زكاة الفطرة أو من الصدقات غير الواجبة.

كان عبد اللّه بن رافع يتناول عشاءه مع الإمام أمير المؤمنين ﷺ بالكوفة، فسمع الإمام ﷺ جلبة، فعرف أن شخصاً واقفاً علىٰ الطريق مادّاً يده إلىٰ الناس يتوسّل بهم، فصاح الإمام ﷺ بعبد اللّه بن رافع وسأله عن أمر هذا

(١) تفسير الثعالبي ١: ٥٢٩.

الرجل، فأجابه عبد اللّه بإنه مسيحي. فردّ الإمامعليه السلام عليه بأنه يستحق العطاء وإن كان مسيحياً؛ فهذا مواطن وقد عمل علىٰ هذه التربة وسكب عرقه عليها، وتعب في إعمار هذه الأرض، ثم أمره أن يأخذه بيده إلىٰ بيت المال ويفرض له عطاء، وأمره ألّا يتكرّر مثل هذا المنظر مرّة أخرى.

فالإمامعليه السلام يريد أن يقول: إننا قد أخذنا من هذا الرجل طاقاته عندما كان قويّاً، فلا يصحّ أن يترك دون معيل عندما يكبر! ولذلك فإن الفقهاء يقولون: إن النفقات غير الواجبة يجوز أن يُنفق منها علىٰ أمثال هؤلاء.

وهذا ما تقرّره الآية الكريمة إذ تقول للنبيصلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾، أي أن تجبرهم علىٰ الإيمان عن طريق عدم إعطائهم النفقة؛ فهذا الفعل غير نبيل، وليس من النبل أن تحارب أحداً برزقه حتىٰ يدخل في عقيدتك. ويكفي أن نعرف أن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام كان يأخذ بيده العطاء إلىٰ جماعة يتقرّبون إلىٰ اللّه تعالى بشتمه، فيوصله إليهم عند أبواب بيوتهم[١]. فانظر إلىٰ الفرق بين الإمام أمير المؤمنينعليه السلام وبين الأُمويين الذين حاربوا يتامى الجماعة التي قاتلت مع الإمام عليعليه السلام، وقد كان أغلبهم من الأنصار (الأوس والخزرج).

فهل تدري ماذا فعل معاوية لهؤلاء؟ لقد قطع أرزاق أيتامهم من بيت المال. وقد أشرت سابقاً إلى أنه عندما أراد الأُمويّون أن يدوّنوا التاريخ، وشاهدوا أن للأنصار فضائل قام سليمان بن عبد الملك وأخذ الصحيفة فمزّقها وقال: لا يمكن أن نروي لهؤلاء روايات تصفهم بأن لهم الفضل. ذلك أنهم قاتلوا بأجمعهم مع علي بن أبي طالبعليه السلام إلّا واحداً وهو بشير أبو النعمان بن بشير،

---

(١) الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

ومن بعده لحقه ابنه النعمان بن بشير الذي أصبح فيما بعد والياً علىٰ الكوفة زمان دخول مسلم بن عقيل إليها.

فهذان الاثنان فقط هما من لحقا بمعاوية، وإلّا فإن الأنصار بأجمعهم كانوا أبعد من أن ينصروا الأمويين أو يدافعوا عنهم.

ولذلك فإن الأُمويين حركوا شعراء البلاط ضدهم، وكان شعراء البلاط آنذاك أشبه بجرائد اليوم؛ حيث إن كلّ حزب لديه جريدة تمثّله. فكان أن حركوا الشعراء لشتم الأنصار؛ لأنهم كانوا مع علي. فوقف شاعرهم الأخطل ـ وهو شاعر البلاط، ويجب ألّا ننسىٰ أن الأخطل كان مسيحياً، وكان يخدمه تمزيق وحدة الأُمّة الإسلامية؛ فلا مانع عنده أبداً من السعي في تمزيقها ـ فأنشد قصيدته:

خلّوا المكارم لستُمُ من أهلِها ... وخذوا مساحيَكم بني النجّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والندىٰ ... واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ[1]

وهي قصيدة معروفة. كما حرّكوا جماعة أُخرىٰ أيضاً لهجائهم، وحرّكوا التاريخ ليخفوا فضائلهم، أي أنهم مارسوا لوناً من الحصار حتىٰ يضمّوهم إلىٰ جانبهم. ولكن الأنصار وقفوا بوجههم وصمدوا صموداً رائعاً.

---

(١) فكان أن بلغ ذلك الشعر النعمانَ بنَ بشير، فدخل علىٰ معاوية وحسر عن رأسه عمامته، وقال: أترىٰ لؤماً؟ قال: لا، بل أرىٰ كرماً وخيراً. ثمّ قال: وما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا. قال: أو فعل؟ قال: نعم. قال: لك لسانه.
وأمر أن يؤتىٰ به، فاستشفع فيه يزيد، فتركه. انظر العقد الفريد ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢.
وقال صاحب (العقد الفريد): «ورجال الأنصار من أشجع الناس. وقد قال عبد اللّه بن العباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أُقيمت الصفوف حتّىٰ أسلم ابنا قيلة».
يعني: الأنصار. العقد الفريد» ج ١ ص ١١٨.

ولما قتل أمير المؤمنين﷣ وانتهىٰ الأمر إلىٰ معاوية، اشترط الإمام الحسن﷣ عليه في صلحه معه من ضمن ما اشترط أن يجري لأيتامهم الذين ذهب آباؤهم مع الإمام علي﷣ في صفين رواتب من بيت المال مقدارها مليون ونصف المليون درهم سنوياً تنفق عليهم. وقد وافق معاوية علىٰ هذا البند الذي يعدّ من أبرز شروط الصلح، ووقّع عليه. ولكن عندما أخرج الأموال (المليون ونصف المليون درهم) حرّك جماعة وأمرهم أن يذهبوا إلىٰ الركب لينتهبوه، وفعلاً نهبوا هذا المبلغ وأرجعوه إلىٰ معاوية، فكان يقول: ماذا أفعل؟ إن الناس هم الذين نهبوا هذا المبلغ.

دخل الإمام السجاد﷣ في يوم من الأيّام على محمد بن أُسامة بن زيد يعوده فسمعه يقول: وا غمّاه. قال: **«ما غمك؟»**. قال: دَيني. ومحمد هذا هو ابن من يقول لأمير المؤمنين: أنا لا أبايعك لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[١]. والذي يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى نبايعك[٢].

وأنا واقعاً أتألّم كلّما مررت بهذه الحكاية:

وحسبُكُمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ[٣]

على أية حال سأله الإمام﷣: **«كم هو؟»**. قال: ستون ألفاً. قال الإمام﷣: **«هي عليّ»**. وكان الإمام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[٤].

---

(١) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠. (٢) المصدر نفسه.

(٣) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار ٣:١٢٩، جواهر المطالب ٢:٣١٤، شجرة طوبى ٢:٣٠٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الإمام الحسين﷣ وأسامة أبيه.

سأل المأمونَ ذات يوم أحدُ الأعراب، فرد على الأعرابي بقوله: إنني أكرهك. فقال: إن أعطيتني حقّي فافعل ما بدا لك؛ إنما أحتاج إلىٰ حب النساء. المهم أن تدع حقي يصل إلي سواء كنت تحبّني أو لا.

فآية المقام تقول للنبي ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾.

المبحث الثالث: في معنىٰ الانفاق وأقسامه

القسم الأوّل: الإنفاق لأجل مصلحة دنيوية أو أخروية

ثمّ قالت: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾، وهذا هو الفرق بين إنفاق الإنسان وبين إنفاق اللّه عزّ وجلّ؛ فاللّه تبارك وتعالىٰ يرزق عباده وينفق عليهم دون أي مقابل، أما الإنسان فلا ينفق إلّا لمصلحة، بمعنىٰ أنه حتىٰ هذا الذي يقول: أنا أُنفق لوجه اللّه فإنه يريد من وجه اللّه أن يدخله الجنة، ويجنّبه النار. وهذا الأمر ـ رضا اللّه تعالىٰ ـ أمر مشروع؛ لأن كلّ عمل بدون هدف يكون عبثاً، والهدف هنا موجود، وهو إمّا دخول الجنة، أو الخلاص من النار. والإنسان بطبعه ناقص ميّال إلىٰ الكمال، ولأجل كمال الروح عنده من الوجهة الصحيحة فإنه يميل إلى التكامل، ويكتسب هذا التكامل عن الطريق الشرعي.

فاللّه تعالىٰ عندما أمرنا بالإنفاق فإنه إنما أراد أن يكمل نقصنا به، فهو تعالى يقول لنا: ربما لم تكن أعمالكم بالتي توصلكم إلىٰ نهاية الطريق، ولذا فاسلكوا سبيل الإنفاق حتىٰ تتقربوا مني وإليّ، فهذا يبعدكم عن النار.

كان أحد أصحاب الأئمة عليهم السلام مريضاً فقال له الإمام عليه السلام: **«داووا مرضاكم بالصدقة... واستنزلوا الرزق بالصدقة؛ فإنها تفكّ من بين لحيي سبعمئة شيطان»**[1]؛

(١) الكافي ٤: ٣ / ٥، الفقيه ٢: ٦٦ / ١٧٣٠. وللمزيد حول فضل الصدقة انظر الكافي ٤: ١ ـ ١٠ / ب ١ ـ ٥ من أبواب الصدقة.

ذلك أن الصدقة أفضل دواء، فربما وقعت بيد محتاج فيرفع رأسه إلىٰ السماء ويقول: ربي كما سترني هذا وسدّ جوعي فاستره وادفع عنه البلاء.

وهنا قد تتحقّق الإجابة ويشفىٰ المريض. وفي الحديث القدسي: **«عبدي ادعني بلسان لم تعصني به»**[1]. وهذا لسان غيري لم أعصِ اللّه تعالىٰ به.

المردود النفعي للقوّة الشرائية

ومن ذلك ما يدعو إليه الفقه القانوني من تجزئة الثروة؛ وذلك حتىٰ تُعمم القوة الشرائية، فعندما أُعطي الخمس (٢٠٪) من الأرباح (أرباح المكاسب وغيرها) أو أُعطي الزكاة من موارد وجوبها، فإنها سوف تُقسم علىٰ الفقير والمريض والمحتاج للعلاج، وعلىٰ طالب العلم، والجائع والبائس. وبتوزيع هذه الثروة بالشكل المشار إليه علىٰ المجتمع سوف يصبح المجتمع ذا قوة شرائية، أي سوف تكون هناك حركة في السوق.

إذن هناك مصلحة عامة غير الخاصة، أي أن المنفق عندما ينفق مبلغاً فإنما ينفقه لأجل مصلحته؛ حيث إن هذا المبلغ سيعود إليه عن طريق القوّة الشرائية. وبالنتيجة فليس هناك إنفاق إلّا لمصلحة دنيوية أو أُخروية.

القسم الثاني: الانفاق لأجل المدح

يقول أحد الشعراء:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي إنه أوّل القرىٰ ... وأبذل معروفي له دون منكري

إلى أن يقول:

---

(١) عدّة الداعي: ١٢٨، بحار الأنوار ٩٠: ٣٩٠، وتتمّته بياناً له: «ادعني بلسان غيرك».

يـؤدّي إليّ الـنيل قـنيان مـاجدٍ كريمٍ ومالي سارحٌ مالُ مقترِ[1]

ويقول غيره واصفاً ما يقوم به:

رجاء أحاديث المجالس في غدِ

يعني أن الناس غداً عندما يجلسون فسوف يقولون: إن فلاناً قد أنفق. فهو يريد الثناء جزاءً علىٰ ما ينفق ويكرم ويجود به.

القسم الثالث: الإنفاق لاتّقاء تهمة البخل

فالمنفق هنا إنما ينفق حتّىٰ لا يهجىٰ ويقال عنه: إنه بخيل، فهو يخاف من الهجّائين، خصوصاً من الألسن التي تحترف الهجاء مهنة. فالبعض منا يظنّ أن من يعطيه هو إنسان عظيم، أو هو يصوّر ذلك لنفسه، وإلّا ـ أي فإن لم يعطه ـ فلا هو كريم ولا إنسان محسن. وبالمناسبة أروي لك أنه عندما أراد معاوية أن يعلن أن زياداً أخوه ـ أي يلحقه بأبي سفيان ـ قال: اعملوا لنا مهرجاناً كبيراً، ولنضرب الطبول، فإذا سأل الناس فقولوا: إن زياد بن أبي سفيان قد أتىٰ. ففعلوا ذلك وأقاموا مهرجاناً في البصرة، وكان فيها شخص أعمىٰ اسمه أبو الأديان العدوي، فمرَّ زياد في موكبه علىٰ أبي الأديان هذا، فقال: ما هذه الجلبة؟ قالوا: الأمير زياد بن أبي سفيان. فقال: واللّه ما ترك أبو سفيان إلّا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً فأرسل إليه بمئتي دينار، ثم مرَّبه من الغد في موكبه فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عرفت

---

(١) ديوان عروة بن الورد: ٤٤.

صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ ذلك معاوية، فكتب الىٰ أبي الأديان العدويّ:

ما ألبثتك الدنانير الّتي بعثت | أن لوَّنتك أبا الأديان ألوانا
أمسىٰ إليك زياد في أرومته | نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
للّه درّ زياد لو تعجّلها | كانت له دون ما يخشاه قربانا

فأجابه أبو الأديان بقوله:

أحدث لنا صلةً تحيا النفوسُ بها | قد كدت يابنَ أبي سفيانَ تنسانا
أمّا زيادٌ فقد صحَّت مناسبُه | عندي فلا أبتغي في الحقِّ بهتانا
من يسدِ خيراً يصبْه حين يفعلُه | أو يسدِ شرّاً يصبْه حيثما كانا[1]

والتاريخ اليوم يعيد نفسه في كل لحظة مهما امتدّت سنواته، فكل جيفة من الجيف تُمدح بمدح عجيبة وغريبة[2]، في حين أن ذوي المكانة والنفوس الكبيرة لا حظّ لهم في ثنائه، بل إن ثناءه يذهب في هذه البؤر والمستنقعات العفنة، الآسن ماؤها، ويترك من يستحق الثناء عليه والمدح.

المبحث الرابع: كيف نبتغي وجه اللّه؟

ثمّ قالت: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾. وفي هذا المقطع من الآية الكريمة عدّة آراء للمفسرين:

الرأي الأوّل: أنه مدح لمن لم يجعل ضميمة مع وجه اللّه

فهي تمدح جماعة من المسلمين بأنهم لا ينفقون إلّا لوجه اللّه تعالى، أي

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨.

(٢) كما مُدح معاوية ويزيد وعبد الملك وأمثالهما من طغاة التاريخ وجبابرة الجهلة.

أنهم ليست عندهم دواعٍ أو أهداف من تلك التي ذكرناها. فالمسلمون جميعهم ينفقون لوجه الله جلّ وعلا لا لأنفسهم، وهم يريدون به ابتغاء وجه اللّه جلّ جلاله.

ونحن عندما نسمع هذه الآية الكريمة تصدح: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**(١) يتجلّىٰ لنا إنفاق أمير المؤمنين﴿ع﴾. فقد كان له (سلام اللّه عليه) أربعة دراهم؛ فتصدّق بدرهم منها في النهار وبآخر في الليل، وبالثالث سرّاً وبالرابع علانية.

وجوه الإنفاق في الصدقات

لذا يقسم العلماء الصدقات باعتبار إنفاقها إلىٰ قسمين:

الأول: ما يكون الأولى إنفاقه علانية

حيث إن قسماً من الصدقات يستلزم الأمر أن ينفق ويعطى علانية؛ ليتأسّىٰ الآخرون بالمنفق، وذلك مثل الزكاة فإنها يستحبّ للإنسان أن يعطيها علانية؛ لتشيع بين الآخرين ولتشجيعهم علىٰ هذا العمل الواجب.

الثاني: ما يكون الأولى إنفاقه سرّاً

والقسم الآخر من الصدقات ما يكون الأفضل فيه أن ينفق ويعطىٰ سرّاً؛ لأن هناك قسماً من المؤمنين المستحقّين المال متعفّفون لا يأخذون من غيرهم علانية؛ فالأولىٰ هنا للمتصدّق أن يذهب إليه ليلاً مثلاً؛ فيعطيه حقّه الذي أوجبه الله تعالى له؛ ليصون ماء وجهه، لأن **«صدقة السر تطفئ غضب الرب»**(٢).

---

(١) آل عمران: ٢٠.

(٢) الكافي ٤: ٧ / ١، ٨ / ٣، تأويل مختلف الحديث: ١٩٠.

دخل أحد الأشخاص على الإمام الرضا عليه السلام، وكان الإمام جالساً في مجلسه، فوقف أمامه هذا الرجل وقال: السلام عليك يابن رسول اللّه، رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك عليهم السلام، مصدري من الحج، وقد افتقدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تُنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك فلست موضع صدقة. فقال عليه السلام له: **«اجلس رحمك الله»**.

وأقبل عليه السلام على الناس يحدّثهم حتى تفرّقوا فقال عليه السلام: **«أتأذنون لي في الدخول؟»**. فقال له سليمان: قدم الله أمرك. فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: **«أين الخراساني؟»**. فقال: ها أنا ذا. فقال: **«خذ هذه المئتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها، ولا تَصَدّق بها عني، واخرج فلا أراك ولا تراني»**.

ثم خرج، فقال له سليمان: جعلت فداك يابن رسول الله، لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال عليه السلام له: **«مخافة أن أرى ذلّ السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المستتر بالحسنة يعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له؟ أما سمعت قول الأوّل:**

إذا جئته يوماً إليه بحاجة   رجعت إلى أهلي ووجهي بمائِهِ»[١]

فمن مكارم الأخلاق أن تحفظ كرامة هذا المحتاج لأن كرامته عنده أغلى من كل شيء، وأنت إن أعطيته علانية وهو في مثل هذه الحالة فقد يدخل في

---

(١) الكافي ٤: ٢٤ / ٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠.

عملك الرياء، بالإضافة إلىٰ تجريح كرامة السائل. فالعطاء السرّي من هذه الناحية أفضل.

نرجع لموضوعنا، فالإمام علي دفع درهماً بالنهار ودفع درهماً بالليل ودفع درهماً سرّاً ودفع درهماً علانية، علىٰ غرار ما جاءت به الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾[١]. فيقول جملة من العلماء والمفسّرين ـ من مختلف المذاهب الإسلامية، وليست فقط الإماميّة ـ أن هذه الآية نزلت في الإمام علي[٢].

الرأي الثاني: أن هذا أمر في صورة خبر

فهناك بعض الأساليب في لغتنا تأتي بصورة أُسلوب آخر لدواعٍ مرّ ذكرها. فالقرآن تارة يحثّ ويأمر بصورة الأمر المعهودة (الجملة الإنشائية) وتارة يعبّر عن ذلك بأُسلوب الجملة الخبريّة. ومن هذا النوع هذه الآية، فيكون المعنى على هذا: لا تنفقوا إلّا ابتغاء وجه اللّه؛ لأن جميع الوجوه لا ترتجى منها فائدة إلّا وجه اللّه. فإذا أنفقت فاجعل إنفاقك من أجل وجهه لا من أجل وجه إنسان آخر؛ فوجه هذا الإنسان سيأكله التراب وتأتي عليه الديدان والحشرات بعد أيّام:

صدقت وقد سلخ ابتسامتَها الأسىٰ ... صدق الذي قال الحياة غرورُ
أكذا نموت وتنتهي أحلامنا ... في لحظة وإلىٰ التراب نصيرُ
وتموج ديدان الثرىٰ في أكبدٍ ... كانت تموج بها المنىٰ وتمورُ

---

(١) البقرة: ٢٧٤.

(٢) انظر: العمدة: ٣٤٩، المعيار والموازنة: ٧٥، خصائص الوحي المبين: ٢٠٤، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٧٦، شواهد التنزيل ١: ١٤٦، ١٤٩.

وفعلاً فإن هذا الوجه الذي تحاول أن تصونه وتحفظ له كرامته مهما يكن فسوف يعفّر في التراب. وإذا كان إنفاقك من أجل نفسك أو من أجل إرضاء القبيلة الفلانيّة أو إرضاء الحاكم الفلاني فإن تلك الوجوه زائلة لا محالة، ولا فائدة ترتجى منها. فضع لك وجهاً ينفعك. ولكن ما هو هذا الوجه؟ إنه وجه اللّه. يقول الشاعر وإن كان جاهليّاً، وكان يهزأ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين يمرّ به:

ألا كلّ شيء ما خلا اللّهَ باطلُ   وكلّ نعيم لا محالة زائلُ[1]

إذن الوجه الباقي الذي لا يفنىٰ، والعظيم والرحيم والكريم هو وجه اللّه عزّ وجلّ؛ ولذا قالت الآية: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾.

أنواع الإنفاق

وهذه النفقات كلّها مادية، ولكن هناك نفقات أسمىٰ من المال، فمن الناس من ينفق دمه في سبيل اللّه تعالى، ومنهم من يأتي بابنه فيقدّمه قرباناً في سبيل اللّه تعالى وفي سبيل دينه، ومنهم من يأتي بإخوته ويضحّي بهم في هذا السبيل، وأخيراً يلقي بنفسه فينفقها ويقدّمها قرباناً في سبيله.

وأي إنفاق أكبر من هذا؟

والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود

ولا تظن أنه يوجد أعظم نفقة من أن يضحّي الإنسان بالدم في سبيل اللّه عزّ وجلّ، ويبذل روحه لوجهه سبحانه وتعالىٰ. وأعتقد أن خير مثال لهذا هو أبو الشهداء الحسين عليه السلام، وهو ما يتّضح من التأمّل في عطائه وفيما قدّمه من أضاحٍ في سبيل المبدأ. إن الجيش بعد واقعة الطف خرج من كربلاء وأخذ الرؤوس معه، وترك رأساً لم يقطعه. وقبل تحرّكهم افتقدوا رأس عبد اللّه

---

(١) ديوان لبيد (ضمن ديوان الفروسيّة): ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الرضيع فسأل ابن سعد عنه فقالوا: إن أباه احتفر له وواراه شفقة عليه؛ كي يجنّبه أن تمرّ عليه الخيل أو أن يمثّل به. فقال: انبشوا الأرض. فنبشوها واستخرجوه برماحهم. يقول أحد الشعراء مخاطباً الإمام الحسين﴿ع﴾:

يوحدهم درب الفداء فيستوي به طاعن في سنه ورضيعُ

ثم طرحوا الأجساد علىٰ أرض كربلاء، وأخذوا الرؤوس علىٰ أطراف الرماح، وهو غاية اللؤم. ثم أخذوا السبايا في الصباح من كربلاء إلىٰ الكوفة. ثم أمر أن يُجعل طريقهم علىٰ القتلىٰ نكاية بهم وإبلاغاً في إيصال الأذى إليهم. فمروا بهم علىٰ القتلىٰ..مرّوا بعائلة الحسين علىٰ الأجساد، فجعلت زينب﴿ع﴾ تلتفت إليها، فلما رأت جسد أبي عبد اللّه﴿ع﴾ ونظرت إليه طريحاً بين الأجساد حوّلت وجهها إليه، فلمّا لحظها الإمام السجاد﴿ع﴾ قال لها: **«عمّة ارحمي حالي، ارحمي ضعف بدني. إذا رميت بنفسك فمن يُركِبك وأنا مقيّد علىٰ ظهر الناقة؟ عمّة ودّعي أخاك عن بُعد».**

نظرت إليه وأدارت وجهها وصاحت: «يابن أُمي أُودعك اللّه السميع العليم، واللّه لو خيّروني بين المقام عندك أو الرحيل عنك، لاخترت المقام عندك ولو أن السباع تأكل لحمي»:

وعيونك يابو السجاد لون يمّك يخلّوني
أحط راسي علىٰ كبرك وارشّه ابدمعة عيوني
أكضي العمر كلّه وياك وكولن لا تلوموني
شلي بالعمر بعدك وشلّي بعيشتي ابلياك

﴿ ٩٨ ﴾

الحسين عليه السلام نبراس الحق

أبا المُعطياتِ البيضِ لا العُجْبُ مُتبِعٌ
كرائمَ ما أُعطي ولا المَنُّ مُتبِعُ
غداةَ استزادَتْكَ الوغى وهي ساغبٌ
فأسرعتَ تُلهي بالضَّحايا وتُشبِعُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: ثورة الحسين عليه السلام وعنصر الألم

كل ما أُريد بيانه هذه الليلة أن أنقل مشاعر هذا المجتمع؛ لنكون على أعتاب الحسين عليه السلام، ولنستلهم دنيا الحسين عليه السلام. وفي الوقت ذاته أُريد من روح الحسين عليه السلام أن تمدَّ هذا المجتمع بما حملته من عطاء وما تحفل به من ميزات أهّلتها للريادة والقيادة.

إن الحسين عليه السلام حمل على يديه آلام الإنسانية وآمالها على حد سواء، وقُتل من أجل الإنسان؛ فيجب أن نتعرف على رسالته الإنسانية، كما يجب أن نأسى لقتل الإنسانية بقتله. والشيء الأخير الذي يجب أن نمرَّ به في هذه الأُمسية هو عطاء الحسين عليه السلام للإنسانية، أي ماذا أعطت نهضة الإمام الحسين عليه السلام وثورته للإنسان؟

أما أن الحسين عليه السلام حمل آلام الإنسان وآماله، فذلك واضح من كونه عليه السلام

في نهضته لم يحمل إلّا مبادئ الإسلام، فلم يستهدف شيئاً غيرها يمكن أن يمرّ به التاريخ فيقول: إنه ﷺ نهض من أجله. ولا شكّ أن الحسين ﷺ قتل، وهناك من يقدّسه وهناك من يحقد عليه، وهناك من يقيّمه، وهناك من يُحلّل مواقفه، فما استطاع لسان، ولم يجرؤ قلم علىٰ أن يقول: إن الحسين ﷺ قتل من أجل رغائب مؤقّتة، ولم يقل أحد: إن الحسين ﷺ استهدف مالاً أو استهدف حكماً أو منزلة، وإنما استهدف أن يعيد للإنسان كرامته المسحوقة التي وُطِئَت تحت الأرجل، وذلك هدف الإسلام الأول من الرسالة.

أما الأموال فما كان الحسين ﷺ بذلك الإنسان الذي يعوِزه المال، فقد تركت له صدقات أبيه أموالاً ضخمة، وهذا التاريخ بين أيدينا ينص على أن للإمام علي ﷺ من الصدقات ما لو أراد الحسين ﷺ احتواءه لألّف بذلك أموالاً كثيرة، ومن تلك الأموال سبع من الحوائط، وعين أبي نيزر والبغيبغة[1]، وأرض العوالي، والكثير من العيون التي استنبطت وزرعت. وكان بوسع الإمام الحسين ﷺ أن يأخذ منها ما يريد من الأموال، وكانت الحوائط السبع تغلّ أموالاً طائلة.

وهو ﷺ إلى ذلك لو أراد الأموال لانفتحت له خزائن الأُمويّين على مصراعيها، وقد رأينا خزائنهم تفتح لمُهَرِّج أو لشاعر يحمل مدحاً كذوباً لهم، أو يحمل نبرة مملوءة بالنفاق، فلا يكاد يدخل عليهم حتى تفتح له تلك الخزائن. ولو سكت الإمام الحسين ﷺ لانصبّ عليه الذهب، ولو صانع أو داهن لأتته الأموال، ولو أغضى على القذى لبذلت له الكنوز، ولكنه ابن أبيه ﷺ الذي يقول وهو يبعثر الذهب يميناً وشمالاً: **«يا بيضاء يا صفراء، غرّي**

---

(١) مرّ تعريفهما في ج ٣ ص ١٧٨ من كتابنا هذا.

غيري»[١]. والقائل للدنيا: «**أإلي تعرّضت، أم إلي تشوّفت؟**»[٢]. والقائل للأموال: «**هيهات هيهات أيها المال ما خدعت علياً، حسبه منك بلغة لعشائه**».

وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول لعمه: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذه الدعوة ما فعلت**»[٣].

وكانت قريش قد قالت له: خذ ما تريد منا واسكت، إن شئت النساء زوّجناك بمن تحب، وإن شئت الحكم ملّكناك، وإن شئت الأموال أعطيناك. فقال لهم: «**والله ما أنا بتارك ما بعثت من أجله، إنما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[٤].

فالحسين عليه السلام ابن هذين العظيمين، ولا يمكن أن يستميله بريق الذهب، وهذا الذهب الذي ركله الحسين عليه السلام برجله مازال يتراكم على ثراه، وفي خزائن من حوله، وهو في نفسٍ تمرّ على التبر فيتساوى لديها مع التراب. إنه ابن الألق والمبدأ والفكرة، إنه ابن الإسلام الذي حمل للإنسانية آمالها وآلامها ليعبّر بها عن الألم، ويوصلها إلى محطة الأمل، وليصنع لها الحياة المثلى. كلّ ذلك استهدفه الحسين عليه السلام دون أن يغرّه الذهب.

المبحث الثاني: الحسين عليه السلام يتربع عرش قلوب الناس

وماذا بعد؟ أيريد الحسين عليه السلام الحكم وأن يصل إلى كرسي؟ وما قيمة كرسي تقوم قوائمه على عظام الناس وجماجم البشر؟ وما قيمة كرسي تجري من تحته الدماء، وهو خدوع كذوب يحمل فوقه دمية يمر عليها الليل فتغرق

---

(١) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان) ٢: ٣٤.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٧٧.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٤) المصدر نفسه.

في الرغائب المؤقتة واللذائذ، ويمر عليها الصبح فتنصرف إلى الفهود والقرود؟ ذلك شأن الكرسي الذي كان في عصر الحسين، فلم يطلبه لأنه كان أكبر من الرغائب المؤقتة.

إن للحسين عرشاً في القلوب[١]، وإن له مكانة في النفوس، وكل منزلة دون النفوس تتلاشى، فكم من العروش بقيت بعد موت أصحابها؟ لقد ذهبت العروش بذهاب أصحابها، ولكن من لم يتربّع على العروش الزائفة صنع له عرشاً في القلوب. وهؤلاء هم الذين يبقون فيصنعون لهم عروشاً في قلوب الناس من الإنسانية والرحمة واللطف والشفقة:

إن الأمـــير هـــو الذي ... يُمسي أميراً يوم فَصلهْ
إن زالَ سُـــلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُل سُلطانُ فضلهْ

إذن فللحسين عرشٌ في القلوب ومكانٌ في النفوس، وذلك عرش لن تمحوه الليالي والأيام، فالإنسانية احتفلت بالحسين فصنعت له عرشاً من قلوبها؛ لأنها عاشت في قلبه النابض بها، وقد قتل مضحّياً من أجلها. فهو أكبر من عرش يمكن أن يتزلزل بعد أيام.

وهل كان الحسين يريد الجاه وهو سيد شباب أهل الجنة[٢]؟ إنه الأُنشودة التي وعاها تاريخ الإسلام على لسان النبي وهو يأخذ بضبعيه ويقول: **«حزقة حزقة ترقّ عين بقة»**[٣]. ثم يحمله ليتكئ بشفتيه على شفتيه.

---

(١) قال الشاعر:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ... ـنِ بشرق أرضٍ أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي

(٢) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٣) كفاية الأثر: ٨٢، معرفة علوم الحديث (الحاكم): ٨٩، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٣١،

وهذه منزلة وعاها له تاريخ الإسلام.

فالحسين عليه السلام أُنشودة المسلمين، وهم يسمعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**حسين مني وأنا من حسين**»[1]. فأي منزلة يمكن أن تكون أسمى من هذه المنزلة؟ وأي مكان أكبر من قلب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم؟ وأية روح يمكن أن تحنو على روح الحسين عليه السلام أعظم من روح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؟

والحسين عليه السلام في غنىً من نفسه، وفي غنىً بما احتلّ من مكانة في نفوس الناس، وفي الوقت نفسه فهو أُنشودة على فم الأجيال، وقد مرّت الأجيال وما تزال تهزج بها، وسيبقى ما بقي الوجود:

لِمْ لا يلذُّ على أنغامي السمَرُ ... وأنت لي في نشيدٍ رائعٍ وترُ
غنَّيتُ باسمك فاهتزَّ الوجودُ إلى ... دنياً يُمتَّعُ فيها السمعُ والبصرُ
إلى فتىً ليس مجدُ الواهبين سوى ... قدرٍ ضئيلٍ إلى جَدواهُ يفتقرُ
إلى البطولةِ يستضري بها وَهَجٌ ... وعي الشعوب إذا استشرى بها الخورُ
إلى الصلابة من أجل الحسين ترى ... حربَ المقاديرِ أو يستسلمَ القدرُ
إلى الحسين وهل مثلُ الحسين إذا ... ما التاثَ فكرٌ وضاع الورِدُ والصَدَرُ
آمنت أنك حقلٌ ما تَمتَّعَ إذْ ... يُستافُ عِطرٌ وإذْ يُستَقطَفُ الثَّمرُ[2]

المبحث الثالث: أسباب النهضة ومحاولات طمس معالمها

إذن لم يخرج الحسين عليه السلام طلباً لحكم أو مال أو منزلة، فقد كان له من ذلك النصيب الأوفر، فلماذا خرج إذن؟ لقد خرج ليعلن هذه المقولة التي كانت

☚ كنز العمال ١٢: ٦٤٩ ـ ٦٥٠ / ٣٧٦٤٣.

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٣٦.

وماتزال شعاراً يحمله الأحرار: **«ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها، وذهبت حذّاء، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقّاً. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»**(١).

ولم تمت أبا الشهداء ولن تموت، إنك لن تموت وما يزال في الأسماع نبرة من صوتك وأنت تقول:

«وإن تكن الأبدانُ للموت أُنشئت ... فقتل امرئٍ بالسيف في اللّه أفضلُ»(٢)

وكيف يموت الصوت الهادر الذي هو أملٌ للإنسانية، وقد انبعث ليحقق آمالها؟ ولأن الحسين﴿ع﴾ كان صوتاً للإنسانية فقد حاول يومئذ الظلم والظالمون أن يحولوا بين هذا الصوت وبين الوصول إلى أسماع الإنسان.

محاولات القضاء على ثورة الحسين﴿ع﴾

لقد كان صوت الحسين﴿ع﴾ يُخيف الظالمين ويرعبهم، فحاولوا ألّا يصل هذا الصوت إلى أسماع الإنسان، فماذا صنعوا من محاولات لإسكاته؟

المحاولة الأولى: وأد صوت الحسين﴿ع﴾

لقد حاول الأمويّون دفن هذا الصوت الذي كان يشدو بفكر الإمام الحسين﴿ع﴾ تحت التراب، ولكنه تمرّدَ على التراب، وحاولوا ألّا يقربه أحد؛

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤، نزهة الناظر: ٨٨.

(٢) بيت له﴿ع﴾ من ضمن أربعة أبيات، وهناك من رواها ثمانية. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤، البداية والنهاية ٨: ٢٢٨، مختصر تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٣٣، حماسة الظرفاء ١: ١٨١، الفتوح ٥: ٧٢، ينابيع المودّة ٣: ٨١.

لأن في الدنوّ منه خطراً يخشاه الظالمون، فماذا صنعوا؟ إن أول ما يمكن أن يوصل للحسين عليه السلام هو ذكرُه والاحتفال به؛ ولذا صبت عليه القوة كلّ ما تملك من وسائل الإرهاب لتمنع من الاحتفال بذكره. فكان المسلمون في أيام الأُمويين إذا أراد منهم أحد أن يحتفل بذكرى الحسين عليه السلام فإنه لا يقوى على ذلك إلّا في طيّ الكتمان والأقباء المظلمة، ولكن هذا الصوت ارتفع رويداً رويداً وأخذ يدوي وينبعث، وإذا به يتمثّل به الشعراء ويقوله الأُدباء ويتناقله الحكماء، ولا يكاد يمر عام إلّا وتجد ذكره في أسماع الناس في أغلب أصقاع المسلمين، وإذا بنا نسمع من يقول:

من لقلبٍ متيمٍ مستهامِ غير ما صبوةٍ ولا أحلامِ

أخلصَ اللهُ لي هواي فما أغـ ـرقُ نزعاً ولا تَطيش سِهامي

إلى أن يقول:

وقتيلٍ بالطفّ غودرَ منهم بين غوغاءِ أمّةٍ وطُغامِ[1]

فما إن فُرض على هذه المجالس أن تكون سرّيّة حتى خرج ذلك الصوت من قمقمه وانطلق ثائراً متمرّداً على استبدادهم. فهو لم يبقَ في طيّ الكتمان، بل إنه ارتفع عالياً مطالباً بدم الحسين عليه السلام.

الثانية: منع زيارة قبره عليه السلام

ثمّ انتقلوا من مرحلة منع الصوت إلى مرحلة منع الاتّصال الحسي بالحسين عليه السلام، فحيل بين قبره وبين زائريه، وأُوقف الحرس على تراب كربلاء ليمنعوهم من الوصول إلى القبر الشريف. وكأن مجرد الوقوف على القبر

---

(١) الأبيات للكميت الأسدي من قصيدة أنشدها بين يدي الإمام الصادق عليه السلام. مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٣٧، الهاشميات والعلويات: ٢٠.

يؤدّي إلى استلهام الثورة منه والاتّصال بروحه، وتكهرب نفسية الزائر، فأرادوا منع حصول هذا عبر منع هؤلاء من زيارته؛ لئلّا يحصل هذا الأثر غير المرغوب فيه، فوضعت المسالح على أرض كربلاء، وزرعت الجيوش في الطريق، وبعث الإرهاب، وشنت الحملات ضد كل من يدين له بالحب والولاء[1].

ولا أستطيع أن أصف لك ما جرى، فهذه القطع منذ أن وضعت في القبر وإلى الآن تومئ إلى الأحرار من قرب أو بعد، والناس تنثال عليه، والدويّ كان وما زال يرتفع: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[2]. وقد حاول المتوكل أن يمنع الزائرين بشتى الوسائل فلم يستطع[3].

امرأة تدفع الضريبة لزيارة الإمام الحسين

وها هي الشمس تشرق كل يوم على مشهد كان وما يزال إذا تملّته النفوس الكبيرة عرفت قيمته.. امرأة عجوز حنى الدهر ظهرها، تتوكّأ على عصا وتحمل بيدها صرّة أثقلها حملها، فيها ألف دينار، وتقف على المسلحة فتقول لأصحابها: بلغني أنكم منعتم الزائرين فلا يصل أحد إلى قبر الحسين حتى يدفع ألف دينار، وهذه الألف قد جمعتها من ألم وكدّ منذ صغري وأنا أغزل لأجمع لأيام فقري وفاقتي، فخذوها مني، ودعوني أصل إلى قبر الحسين. ويقشعرّ جلد رئيس المسلحة، ويتساءل: أي دافع يدفع هذه

(١) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

(٢) إبراهيم: ٣٧، وانظر تأويل الآيات الباهرة ١: ٢٤٦ / ٨.

(٣) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥، وفيهما قصّة إبراهيم الديزج، وهي مشهورة، وقد مرّت في ج ١ ص ٩٧ ـ ٩٨ من كتابنا هذا.

المرأة لتضحّي بأغلى أمل في حياتها لتصل إلى الحسين عليه السلام؟

إنه صوت الحسين عليه السلام الذي يصل إلى الأعماق والمشاعر..إنها جاذبية الحسين عليه السلام التي تنجذب نحوها النفوس وتدور حولها، ولا لوم على الفَراش إذا عشق السراج، ولا لوم على النفس إذا هفت للطيب، ولا لوم على الإنسانية إذا رنَّ في سمعها صوت البطولة فطربت له، فتلك سجايا خلقها اللّه تعالى في النفوس، وما تزال تعيش في النفوس.

ضريبة الدم لقاء زيارته عليه السلام

ثم رأى المتوكل أن الأموال يسهل دفعها ففرض ضريبة من الدماء، وكان يقتل من كل مئة عشرة، وكانت الأعناق تتسابق للقتل أو زيارة الحسين عليه السلام. ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل (٩٠٪) من الزائرين، ومع ذلك تمتدّ الأعناق وتتسابق لتصل إلى القبر، فكان الزائر يصل إلى القبر بعد أن يعبر على تسع من الجثث، ليلتمس القبر ويقول: «**لبيك داعي اللّه، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك سمعي وبصري**»[(١)].

ولم يكن هذا الزائر بالأبله، فهو لا يقدّس الأحجار، إن المسلم عندما يستلم الحجر الأسود المقدّس فهو لا يقدّس فيه حجراً، إنما يقدّس فيه أمراً للّه من وراء الحجر، ومعنىً سامياً، وإلّا فلا فرق بين حجر وحجر. إن من يمسك قبر الحسين عليه السلام لا يقدّس حجراً ولا ذهباً وُضع على القبر، ولا هيكلاً أخذ بريقُه ببصره، كلا إنما يقدّس روحاً مرفرفة على جسد وُزِّعَ أشلاءً في ميدان البطولة، وإنساناً قتل في معترك الحق من أجل الإنسانية.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، بحار الأنوار ٩٨: ٣٣٧.

إذن ما استطاعت الوسائل التي وضعها المتوكل في طريق الزائرين أن تقف حجر عثرة في طريقهم إلى الحسين، وإنما قُدمت الأعناق وضربت وسالت الدماء من أجل الوصول إلى هذا القبر المطهّر.

المبحث الرابع: ما الذي يريده الزائر من القبر الشريف؟

ماذا يجد الإنسان في هذا القبر؟ كلّ إنسان يتحرّك من أجل إشباع شيء ما عنده، فالتاجر يتحرك ليشبع عنده غريزة جمع المال، ومن يرد الأكل يتحرك لإشباع المعدة، والأديب المفكر يتحرك ليشبع تطلعه إلى المعرفة، فماذا يريد هذا الزائر من وقوفه على قبر الحسين؟ إنه يريد إشباع حاجة عظيمة، وهي أن يقدّس الدم الذي أُهرق من أجل الإنسانية، ويستوحي الدم الذي صرخت كلّ قطرة منه في وجه الظلم: «**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد**»[١].

والزيارة الشريفة تقول: «**أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق**»[٢]. فما هي أظلة الخلائق التي اقشعرت؟ إنها المشاعر التي تلتفّ حول هذا الدم.. إنها المشاعر التي يستقطبها الجسد، ولكنه لا يستقطبها جسداً، وإنما يستقطبها موقفاً، وإصبعاً ما زال يشير من وراء القرون الطويلة منذ ألف وأربعمئة سنة وهو يومئ للأحرار: إن هذا هو الدرب الذي يجب أن يسلكه الشهداء والمضحّون:

وتركتَ للأجيال حين يلزُّها ... عَنَتُ السُّرى ويضيقُ عنها المهربُ

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.
(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

جثث الضحايا من بنيك تريهمُ ... أن الحقوق بمثل ذلك تُطلب

إن الحسين عليه السلام هو الإنسان الذي تمرّد على التراب وعاش ألقاً وفكراً، وقتل من أجل الإنسانية. ونحن في هذه الليلة نستجلي موقف إنسان حمل تطلّعات الإنسانية وآلامها، وكان خطراً على الظالمين؛ لأن آمال الإنسانية حملتها النبوّات، وحملها القادة والمضحّون، فضحّوا من أجلها. أما الظالمون فهم نبت مسموم في الدنيا، وغريب على طبع الإنسانية، يخاف أن يزحف إليه صوتها فيجتثّه؛ لذلك وقفوا بوجهه ليمنعوا وصوله إليهم. فماذا صنع المتوكّل؟ جاء لبقايا الأثر المادي، فهدم قبر الحسين عليه السلام وحرثه، ثم جاء إلى سدرة كانت على القبر فأبى إلّا أن يقتلعها؛ لأنها علامة تُوصل إلى القبر، فقطع السدرة، وأجرى الماء على القبر حتى خفيت معالمه(١).

لكن تلك العظام أبت أن يضيع ذلك الأثر، وتلك الأجزاء التي تحت التراب أبت أن تكون جزءاً من التراب لا يُعرَف، ندَّ به العطر، وإذا بأعرابي يزحف إلى القبر، وكلّما وصل إلىٰ مكان أخذ شيئاً من التراب فشمه، إلى أن وصل إليه، فتناول منه حفنة ثم شمّها وألقاها وأنشأ يقول:

أرادوا ليُخفوا قبرَهُ عن مُحبِّه ... وطيبُ تراب القبر دلَّ على القبر(٢)

وكم حاول الظالمون أن يُبعدوا الأنظار عن هذا القبر، ولكن حتى لو قدّر لهذا القبر أن يُمحى فإن الحسين عليه السلام لا يُمحى من النفوس. إن له في كلّ قلب

(١) انظر ج ٤ ص ١٩٠ من كتابنا هذا.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

قبراً على حد تعبير الشاعر(١). وأنا لا أستطيع أن أُسميه قبراً وإنما أُسميه معبداً أو مسجداً؛ إذ أن للحسين عليه السلام في كلّ نفس معبد ومسجد؛ لأن النفوس ما زالت تقدّس البطولة وتعشقها، فهو عليه السلام عنوان مجد في مسجد البطولة، ومعبد الكرامة.

فإن كان الحسين عليه السلام قد قتل من أجل الإنسان فلماذا نأسى عليه؟ وهل يعتبر هذا الاجتماع أسى على الحسين عليه السلام؟ أنا لا أعتبره كذلك، لأننا إنما نأتي إلى هنا لنستلهم الحسين عليه السلام، أما المأساة فهي أمر قهري، فنحن لسنا أقوى نفساً وأعصاباً من النبي صلى الله عليه وآله، فقد مر على بيت فاطمة عليها السلام يوماً، فصاح: **«أثَمَّ لَكَع؟ أثَمَّ لكع؟»**(٢). (اللكع هو الطفل الصغير، وإن أطلق على الكبير فيعني: القليل العقل(٣)). فخرجت له فاطمة عليها السلام تحمل حسناً وحسيناً، فأخذهما فقبلهما، ثم وضع يده تحت حنك الحسين عليه السلام وأقعى بوجهه إليه فقبله، ولحظ المسلمون في عينيه دمعة، فقال له بعض أصحابه: نراك تبكي يا رسول الله، قال: **«ذكرت ما يتعرض له هذا الجبين»**.

ويقول لأم سلمة: **«يا أمَّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً**

---

(١) وهو قوله:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ... ـنِ بشرق أرضٍ أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي

وقد مرّ قبل قليل.

(٢) العمدة: ٤٠٣، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، فتح الباري (المقدمة)، ١٧٩، ثم قال ابن حجر: قوله: «أثم لكع؟». قال الهروي: هو الصغير في لغة بني تميم، وقيل: الجحش الراضع، وقال ذلك للحسن على سبيل الإشفاق والرحمة.

(٣) لسان العرب ٨: ٣٢٢ـ لكع.

يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»[١].

هذا موقف النبي صلى الله عليه وآله، ومهما بلغنا من قوة أعصاب فلن نستطيع أن نتعداه. ففي الوقت الذي نستلهم فيه الحسين عليه السلام فكراً وفكرة وشعاراً، فإننا لا ننسى أن ننظر إليه ونحن دمعة، ونتصوّره ونحن لوعة؛ فهو قتيل العبرة، وما ذكر عند مؤمن إلّا دمعت عيناه[٢]. وليس هو للدمع فقط إنما هو للبطولة، ونحن إن كنا صنعناه من دمع فلأن الدمع أمر قسري.

المبحث الخامس: معطيات ثورة الحسين عليه السلام

بعد ذلك كلّه نتساءل: ماذا أعطى الحسين عليه السلام للإنسانية بنهضته؟ إن الظلم الأُمويّ وصل إلى درجة أشعر فيها كلّ مسلم بفقدان الثقة بنفسه، فالأجيال التي عاصرت الأُمويين ماتت في نفسها البطولة وطأطأت للذلّ، وديست رؤوسها[٣]. فأي مجتمع هذا الذي يتقدّم ليبايع يزيد على أنه عبد قن له يتحكّم بماله ونفسه وعرضه[٤]؟ نقِّلْ طرفك في مثل هذا المجتمع وانظر، هل تسميه مجتمعاً إنسانياً؟

بالطبع كلا، فالمجتمع الذي لا تنبض فيه دواعي الرجولة، ولا يقف دفاعاً عن مقدّساته، لا تستطيع أن تسميه مجتمعاً. وهذا ما فعله الأُمويون؛ فلقد

١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.
(٢) كامل الزيارات: ٢١٤ / ٣٠٧.
(٣) وقد مر قول ابن أبي الحديد: «وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم». شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.
(٤) انظر تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

سحقوا نخوة المسلمين ورجولتهم، وسلّطوا عليهم السيف والإرهاب، فأخذتهم الذلّة وغطّتهم موجة من الشعور بالخذلان، فمات كلّ نبض فيهم، وسكت كلّ همس عندهم.

فالحسين رأى المجتمع الذي صنعه جده ألفاً قد بدأ يتحوّل إلى ظلام، فرفع مشعل الحرية، وأراد أن يعطي المجتمع الثقة بالنفس. وهكذا أعاد للمجتمع الثقة بالنفس، وبرهن على أن الأُمة لا تموت، وأن الشعب لا يموت، وإذا سكت فإنما يسكت مؤقتاً ولن يبقىٰ كذلك، وإذا غلب عليه الظلم فهو سيتمرد يوماً ما على الظلم، وسيحمل على يديه آماله وآلامه ثم يسلك منهج الحسين.

وهكذا تكون هذه النهضة المباركة قد أعطت عطاء عظيماً ولم تأخذ شيئاً، ومن معطيات هذه النهضة المباركة:

الأوّل: إعادة الثقة للأمة الإسلامية بنفسها

فأول إنجازات الحسين إذن أنه أعاد للأُمة الإسلامية الثقة بنفسها، وأشعرها أن فيها زاداً وذخيرة، ومهما مرّت عليها أيام الذلّ فسوف لن تبقى ذليلة. فهذا أول عطاء حمله الإمام الحسين للإنسان المسلم، بل وغير المسلم أيضاً[1].

الثاني: أن الحقّ ينتصر وإن قلّ ناصروه

فثورة الحسين بعد أن أعادت إلى الأُمّة الثقة بنفسها أوعزت إلى الظالمين بأن وسائل القوّة مهما كانت جبارة وعاتية فقد تطردها محجمة من

---

(١) كما مرّ من أمر غاندي واعترافه بأنه تعلم من الحسين.

الدماء. وهذا الموقف من الإمام الحسين عليه السلام يلخّص موقف النبي صلى الله عليه وآله يوم خرجت قريش بكبريائها وغرورها ومعها ألف فارس، وآلاف أُخرى من المسلحين، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلاح أصحابه جريد النخل ليس إلّا. فهزم أسلحة قريش بذلك الجريد، بل بالإيمان الذي وراء الجريد[1]. وحمل الحسين عليه السلام على يديه إيماناً يقاتل به أسلحة الأمويين بعد أن جاءه الجيش من كلّ جانب ومكان، يقول السيد حيدر الحلي رحمه الله:

وطئ الوحشَ إذ لم يجدْ مهرباً ... ولازمت الطيرُ أوكانَها
وحفَّتْ بمن حيثُ يَلقى الجموعَ ... يُثنّي بماضيه وِحدانَها
فسامَتْهُ يركبُ إحدى اثنتين ... وقد صرَّت الحربُ أسنانَها
فإمَّا يُرى مُذعِناً أو تموتَ ... نفسٌ أبى العِزُّ إذعانَها
فقال لها اعتصمي بالإباء ... فنفسُ الأبيّ وما زانَها
إذا لم تجدْ غيرَ لبس الهَوان ... فبالموت تَنزع جثمانَها
ركينٌ وللأرض تحت الكُماة ... رجيفٌ يُزلزلُ ثَهلانَها
أقرُّ على الأرض مِن ظهرِها ... إذا زلزلَ الرُّعبُ أقرانَها[2]

حمل الحسين عليه السلام إيمانه وعزيمته وموقفه فقاتل به أسلحة الأمويين وجيوشهم، وما أروع ما قال شاعر الطف:

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. الأنفال: ٦٥.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.

قـــومٌ إذا نـــودوا لدفـــع مُـــلِمَّةٍ والقـــوم بـــين مُـــدَعَّسٍ ومُكَـــردَسِ
لبسوا القلوبَ على الدُّروعِ وأقبلوا يـتهافتون عـلى ذهـاب الأنـفُسِ[1]

لقد لبس الحسين قلبه على درعه، وهو يهزأ بالسلاح ويهزم كلّ قوة؛ لأنه تجلبب بقوة الإيمان والعزيمة، واستطاع أن يعطينا درساً، ويعيد إلينا نبرة القرآن الكريم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2].

الثالث: أنها المحرّك الوحيد لما بعدها من ثورات

لقد تركت لنا هذه الحركة المباركة تياراً ثورياً وداعياً إلى الجماعة امتدّ من يوم الطف إلى يوم الناس هذا، فإذا مر المحرم فلن تجد جالية إسلامية في شرق الأرض وغربها إلّا وتحتفل بذكرى الحسين. ولو أنه لم يقتل في واقعة الطف، كم يمكن له أن يعيش؟ عاش جده ثلاثة وستين عاماً، وعاش أبوه ثلاثة وستين أيضاً، والحسين في يوم الطف كان عمره سبعاً وخمسين سنة، فلو قدّر له أن يعيش كما عاش جده، فهل سيعيش (سلام الله عليه) أكثر من ست سنوات أو عشر أُخرى؟

فلو سكت عن الظلم ومات موتاً طبيعياً هل كان سيعيش أكثر من عشر سنوات؟ ولكنه الآن يعيش منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة، وسيبقى يعيش والدنيا إلى جانبه، وستمتدّ الأجيال وللحسين فيها صوت وتيار، ولفكره فيها مسيرة:

ورأيتُك الفكرَ الحصيفَ يشُقُّ أسـ ـتار الغُيوبِ ويَستَشِفُّ بعيدا

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ٧٧.
(٢) البقرة: ٢٤٩.

فـإذا أراقَ اليـومَ زاكـيةَ الدِّمـا　　　فـغداً سـترفعُها الشُّعُوبُ بـنودا

وأنتقل بك الآن إلى الدويّ حول هذا القبر في مثل هذه اللحظات، هذا الدوي الذي يؤكّد لك أن الحسين عليه السلام مات جسداً ولم يمت روحاً:

أرجَــفُوا أنّك القــتيلُ المُــدَمَّى　　　أوَمَــن يُــنشِئُ الحـياةَ قـتيلُ

كــذبوا ليس يُـقتَلُ المـبدأُ الحـ　　　ـرُّ ولا يَـخدَعُ النُّـهى التَّـضليلُ

كذبوا كلُّ بارقٍ من سـيوفِ الــ　　　ـحَقِّ في فـاحمِ الدُّجـى قِـنديلُ

ويموتُ الرَّسـولُ جسـماً ولكـن　　　بالرِّسالات لن يـموتَ الرسـولُ

هلم معي لنعيد إلى أذهاننا ذكريات هذه الليلة، فقد بات الحسين عليه السلام هذه الليلة هو وأصحابه ولهم دويّ كدوي النحل بين قائم وقاعد، وراكع وساجد. وفي هذه الليلة لا يمكننا أن نُعرض عن الجانب المأساوي في هذا الموقف، دخلت عليه أُخته زينب عليها السلام وهو جالس يقرأ القرآن، يقول الشيخ الصدوق: فوضع القرآن في المحراب، وقام إجلالاً لها، وكان إلى جانبه جون مولى أبي ذر يُصلح السيف، والحسين عليه السلام يقول:

«يـادهرُ أُفٍّ لك مـن خـليلِ　　　كم لك بالإشراق والأصيلِ

مـن طـالبٍ بـحقِّه قـتيلِ　　　والدهـرُ لا يـقنعُ بـالبديلِ

وإنَّـما الأمـرُ إلى الجـليلِ　　　وكلُّ حيٍّ سـالكٌ سـبيلي»

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فردّدتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت**

أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، تعزَّي بعزاء الله، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا ليلاً لناما»[1]. وعند ذلك غالبتها دموعها فتوجّهت إليه:

وصيت من يحسين بينه ... من تجبل الغارة علينه
لا تعتذر يابو سكينه ... حريم وغُرب شنهو حچينه

حانت التفاتة من الحسين عليه السلام فرأى ابنته سكينة مطرقة. فقال لها: **«بنية، ارفعي رأسك، مالي أراك مطرقة؟»**. فكأن لسان حالها: أبه، وبمن أرفع رأسي وأنت غداً تفارقني؟

وصوا بنه كبلن ترحلون ... كبلن على الغبره تنامون
يحسين منته نور العيون

وكان للحسين عليه السلام في هذه الليلة موقف مأساوي آخر. فقد نظر إلى رملة وقد تعلقت بالقاسم، ونظر إلى ليلى وقد تعلقت بعلي الأكبر، ونظر إلى الرباب

---

(١) الأمالي: ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠، ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.
وقوله عليه السلام: «ولو ترك القطا ليلاً لناما» هو عجز بيت لحذام بنت الريان، وصدره:
ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا
أي أن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة، وعليه فقد أتاكم القوم. مجمع الأمثال ٢: ١٧٤ ـ ١٧٥.

وقد احتضنت رضيعها، وكلّهن يعلمن أن غداً سيفارقْنَ الأعـزّة، ونـظر إلى زينب عليها السلام تجول من خباء إلى خباء، تودّع هذا، وتـودّع هـذا، وتـصل إليـه لتعتنقه:

خويه نروح كلّ احنه فداياك إخذنه للحرب يحسين وياك

مهي غيبه يخويه واكعد اتناك

﴿ ٩٩ ﴾

الأُخوّة الدينيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تعتبر هذه الآية كما عبّر عنها حبر الأُمّة عبد اللّه بن عـباس أصـلاً مـن الأُصول العظيمة ؛ لأنها حرّمت قتال أهل القبلة[2]، وتضمّنت بعض المضامين والبحوث التي سنعرض لها إن شاء الله تباعاً :

المبحث الأول: مقوّمات التوبة

فالآية الكريمة تقول : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، وهذا بخصوص بعض المسلمين الذين كانت لديهم تحفّظات تجاه بعض المشركين ؛ حيث كانوا يشكّون فيهم لأنهم كانوا يشكّون في حقيقة إيـمانهم، فـهؤلاء حـينما انـتقلوا مـن الشـرك إلى الإسلام، هل كانت توبتهم خالصة فعلاً، أم لا؟ وهذا التساؤل حسمته الآية الكريمة فقالت : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾.

---

(١) التوبة: ١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٨١.

لكن ماهي مقوّمات التوبة؟ إن للتوبة ثلاثة مقوّمات:

الأول: الندم علىٰ مافات من الشرك وفعل المعصية.

الثاني: العزم علىٰ ترك العود إليه.

الثالث: الالتزام بأحكام الإسلام(١).

فالندم والعزم لايمكن الوثوق بمعرفتهما والتأكّد من وقوعهما وحصولهما؛ لأنهما أمران داخليّان، لكن يبقى المقوّم الثالث ـ وهو الالتزام بأحكام الإسلام ـ وهو ممّا يمكن الوثوق بمعرفته والتأكّد والاطمئنان من وقوعه وحصوله.

موقف الإسلام من الكفّار في أرض الإسلام

وهنا نقطة حسّاسة أُحبّ أن أُشير إليها، وهي أن الأُوروبّيين يتّهموننا بأننا نمنع من يريد أن يعتنق عقيدة خاصّة به. ونقول لهؤلاء: إن العقيدة تؤخذ بالنسبة والتناسب، أي حسب حالة البلد الذي يعيش فيه صاحب العقيدة المخالفة؛ فلو أنه يعيش في بلد بعض أهله مسلمون وأعلن أنه غير مسلم فلا مانع من ذلك، أمّا إذا كان (٩٩٪) من أهل ذلك البلد مسلمين، فهنا لا يمكن له أن يظهر عقيدته بشكل منافٍ للجمهور وعلى الرغم من أُنوفهم؛ لأنه تحدٍّ

---

(١) قال أحد حضّار مجلس أمير المؤمنين؟: أستغفر الله. فقال له؟: «ثكلتك أمك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ: أولها الندم على ما مضى. والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية؛ فعند ذلك تقول: أستغفر الله». نهج البلاغة / الحكمة: ٩٧.

لإرادة الأمّة بإعلانه الكفر والإلحاد. وهنا يضطرّ الاسلام لمنعه؛ لأن فيه اعتداءً على حرّيات الآخرين.

وعليه فإننا نقول: إن هذا المشرك بعد أن أسلم وآمن إذا التزم بأحكام الإسلام؛ فصلّى وصام ودخل إلى المساجد وتعبّد بما أمره اللّه. فعلينا أن نحكم بإسلامه. وإن لم يفعل ما يوجب القتال فإنه يحرم قتاله، ولا يستطيع أحد أن يحكم عليه بغير ذلك.

لكن يبرز هنا تساؤل هو: كيف نعرف أن هذا البلد الذي دخلناه بلد إسلامي؟ طبعاً إننا نعرف ذلك من المآذن ومنارات المساجد، أو من القبور المبنية علىٰ الأُسس الشرعيّة، كأن يوجّه الميت إلى القبلة. فهذه العلامات تدلّ علىٰ وجود الإسلام وأن البلد إسلامي.

الأبعاد السلبيّة للتكفير

ونلاحظ أن شرائح من الناس يروق لهم أن يكفّروا الناس، وكلّ ما عندهم من عقد يصبّونها على الورق أو يصبّونها على ألسنتهم. ونحن بدورنا نقول لهؤلاء: هل تملكون دليلاً على كفر من تكفّرون، أو أنكم لا تملكون هذا الدليل، وليس الأمر أكثر من أحقاد وفرىً؟ فتعريف المسلم قوله: «**أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه**»، ويصلّي إلى القبلة، ويأكل من ذبائح المسلمين وإن كانت الشهادتان أنفسهما تحققان دمه وتصونان ماله وعرضه. فما هو الدليل على كفر هؤلاء إذن[1]؟

---

(١) يقول الحسن عليه السلام: «حرّمت هذه الآية دماء أهل القبلة». الدر المنثور ٣: ٢١٣، لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم كما في الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من

دعوى سبّ الصحابة

إنهم يدّعون أن هؤلاء أنكروا ضرورة من ضرورات الدين، ويقصدون بالضرورة شتم بعض صحابة النبي ﷺ، ومن يشتم الصحابة فليس مسلماً. لكن هؤلاء الذين يُرمون بشتم الصحابة هل في كتبهم الفقهيّة والعقيديّة كتاب يأمر بشتم هؤلاء أو سبّهم؟ ثم هل إن السبّ يوجب الكفر؟ إن صحابة رسول اللّه ﷺ بشر، وكانت تحدث بينهم اختلافات قد تؤدّي إلى الشتم، فلاحظ علاقة عبد الرحمن بن عوف بالخليفة الثالث، وعلاقة الخليفة الثالث بطلحة، وعلاقة الخليفة الثالث بالزبير، وعلاقة الخليفتين بجملة من الصحابة، حيث كانت تحصل بينهم مشادّات تتطوّر إلى لون من الاختلاف ثم التناحر والتباغض. فهم بشر، لكن بعد ذلك يعود الصفاء بينهم ويرجعون إلى الأُخوّة الإسلاميّة[1].

فإذا كان هؤلاء يلتزمون بتكفير من يسبّ صحابيّاً فلماذا لايكفّرون الذين شتموا الإمام علياً عليه السلام (٨٠) سنة على المنابر[2]؟ ولماذا لايكفّرون الذين سفكوا دماء المسلمين[3]؟ ومع ذلك فهؤلاء السابّون السفّاكون مسلمون في نظر هؤلاء المكفّرين. فهل إن الإمام علياً عليه السلام من الصحابة أم لا؟ لقد كان

☚ سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١، وقد مرّ.

(١) فالخليفة الثاني رفع الدرة ذات مرّة على أبي هريرة وضربه على رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

(٣) قد مرّ مثلاً أنه بلغ عدد القتلىٰ في واقعة الحرّة أكثر من عشرة آلاف قتيل منهم سبعمئة من حملة القرآن. انظر: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٢٥، الاستيعاب ١: ٢٢٨، الإصابة ٦: ١٩٦، أنساب الأشراف ١: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤٢.

معاوية يقنت بسبّ علي بن أبي طالب عليه السلام، ويأتي عمرو بن العاص فيقول: بل وأزيدكم الحسن والحسين وأمهما فاطمة. فهل هؤلاء مسلمون؟

فإن كان عندك مقياس للتكفير فعليك أن تلتزم به في جميع المواضع، فلِمَ لَم تلتزم به إزاء الكثير من المواقف التي مرّت عبر تأريخنا الحافل بأمثال هذه المفارقات؟

ولأضرب لكم مثلاً، لقد دعيت إلى ندوة في إحدى محطات التلفزة، فذكرت فيها أن النبي صلى الله عليه وآله لمّا نزل عليه الوحي، ونزلت عليه أول سورة: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[1] إلى آخر السورة كان الإمام علي عليه السلام إلى جانبه صلى الله عليه وآله، وكان يسمع الوحي. وهذا ما لم أخترعه، فالإمام علي عليه السلام ذكر هذا في إحدى خطبه حيث قال: **«ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير»**[2].

وهو عليه السلام سيّد الصادقين، فلما انتهيت من ذلك، كثرت الاتصالات عليَّ إلى درجة كبيرة، وكلّها تستنكر: لماذا تقول: إن علياً سمع الوحي؟ لايجوز أن يسمع الوحي إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة.

وهذا في واقع الأمر شيء غريب جدّاً؛ إذ أن القرطبي في تفسيره عندما تناول الآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١) قال: الوحيد الذي سمعها هو النبي ﷺ وأبو بكر(٢). فكيف سمع أبو بكر الوحي؟ ولماذا يسمعه هو ولا يسمعه غيره؟

ولنعرّج قليلاً على كتاب (منهاج السنّة) لابن تيمية، فهذا الرجل حينما يأتي إلى بعثة أسامة بن زيد عندما أمّره النبي ﷺ على أبي بكر وعمر فإنه يكذّبها ويقول: إن تأمير أسامة على الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر من الكذب الذي يعرفه من له أدنىٰ معرفة بالحديث؛ فإن أبا بكر لم يكن في ذلك الجيش بل كان النبي ﷺ يستخلفه في الصلاة في حين مرض إلى أن مات، وأُسامة قد روي أنه عقد له الراية قبل مرضه، ثم لما مرض أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس، فصلّى بهم إلى أن مات النبي ﷺ(٣).

أمّا ابن سعد في (الطبقات) فيقول: وأمّر النبي ﷺ أُسامة على جيش فيه الخليفتان أبو بكر وعمر(٤).

وحينما يتكلّم ابن تيمية عن ابن سعد يعبر عنه بقوله: إنه من أهل الثقة في النقل، وأهل الصلاح، ورجل معتمد في أقواله. لكنه في الأمر يكذّب ما نقله ابن سعد، وهذا تكاذب.

فهذه مقاييس توجب الخلل، والذي يدرسنا ـ تاريخاً وفكراً ـ من الخارج يلاحظ عدم الالتزام في النقل، وسيعبّر عن ذلك بقوله: ليس عندهم مقاييس ثابتة يعتمدونها في نقل الحوادث ومقايستها.

---

(١) القصص: ٥٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٢٩٩.
(٣) منهاج السنّة ٤: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٤) الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٩.

فالآية الكريمة إذن تعطينا قاعدة مفادها أن من تاب بعد إشراك فإننا يجب أن نعامله معاملة المسلم، أما حالنا الآن فإن المسلم الذي يولد في بيت مسلم ويتمسّك بشعائر الإسلام فإنك تجد تكفيره قائماً على قدم وساق. لماذا هذا؟ ولمصلحة من؟ وما هو الدليل على كوننا كفرة؟

ونحن نتفاءل ببعض الأصوات الطيبة المتأثّرة بنبرة **«لا إله إلّا اللّه»**، والتي يجري على قلمها روح الإسلام، فمثلاً قرأت أمسِ كلمة للدكتور شملان العيسىٰ بعنوان (تسييس الاطفال) يقول فيها: رأيت أطفالاً يلبسون ملابس مكتوباً عليها (ياحسين)، فلفتت نظري هذه الظاهرة، فبدأت أُفكّر، وقد أرادوا جني شيء من التوت، فاستأذنوني وجنوا. ففكّرت بهذه الظاهرة، فتوصّلت إلى نتيجة مفادها أن هذه العملية هي ردّة فعل لتأكيد الذات، فهؤلاء بما أن السلف قد كفّروهم، فإنهم يفعلون هذا كعمليّة ردّ فعل لتأكيد العقيدة.

فالقارئ يلمح شيئاً من الإنصاف وروح التعقّل في هذا الكلام؛ ولذلك علينا أن نحرص علىٰ وحدة المسلمين وأن نكون في خندق واحد؛ حيث إن آلامنا واحدة. ولكن أقولها ببالغ الأسف: هناك ألسن تظن أن ليس عليها من اللّه رقيب.

المبحث الثاني: صلاح الفرد وصلاح المجتمع

ثم قالت الآية: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾. وهنا مسألتان أُحبّ أن أُعرّج عليهما في بحثنا هذا.

المسألة الأولى: عدم التفريق بين الصلاة والزكاة

فالواجب ألّا نفرّق بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهناك حديث نبوي

شريف يروي : **« ثلاث من فرّق بينهن فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة: من قال: أُقيم الصلاة ولا أُوتي الزكاة، ومن قال: أُطيع الله ولا أُطيع الرسول، ومن قال: إني أشكر الله ولا أشكر لأبوي »**.

فهذا لايدفع الزكاة؛ لأنها ثقيلة، فيفرق بين الصلاة والزكاة، فيصبح من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه(١). وإنما مُنع من التفريق بينهما؛ لأن في الصلاة صلاح الفرد، والزكاة فيها صلاح المجتمع، فالمجتمع الذي يمتلئ بالفقراء ليس مجتمعاً إسلامياً سيّما إذا كان في الطرف المقابل طبقة من الأثرياء. كما أن هذا المجتمع لا يستطيع أن يطيّب الفقير الجوعان بالكلام والموعظة؛ فإنّ المعدة الجائعة تحتاج إلى الخبز، والجسد العريان يحتاج إلى الثوب، والمرأة تريد رجلاً يحفظها ويصونها عن ذئاب المجتمع، وكذلك الرجل يريد امرأة تحفظ نفسه وتصونها عن الوقوع في الرذيلة. وهذه كلّها تفتقر إلى المال، فعلى المجتمع أن يوجد المناخ الصحّي المناسب حتىٰ يحفظهم من الزنا والسرقة والانحراف.

فالزكاة إذن تلعب دوراً كبيراً في هذه المسألة. ويتحصّل من هذا أنه يوجد نوعان من الإصلاح: إصلاح الفرد، وإصلاح المجتمع. فإصلاح الفرد يتحقّق عندما يقف في الصلاة ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) أي اجعلني علىٰ جادّة الحقّ ومن العابدين لك، واحفظني من الزلل، وارشدني لأن أمشي علىٰ جادّة الصواب والطريق المستقيم. فالصلاة إصلاح للفرد، واستشعار لوجود

---

(١) قال تعالى: ﴿أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ٨٥.

(٢) الفاتحة: ٥.

اللّه تعالى؛ لأنها تربّي الفرد على ذلك.

أمّا الزكاة فإنها توجِد المناخ الصحّي الملائم للإنسان حتىٰ يتخلّص من الأمراض الاجتماعيّة. فمن هنا يجب ألّا نفرّق بين الصلاة والزكاة.

أمّا من قال: «**أُطيع اللّه ولا أُطيع الرسول**»، فإن اللّه تعالى يفرّق بينه وبين رحمته أيضاً، فمثلاً هو صلى الله عليه وآله وسلم القائل: «**وأهل بيتي فلاتسبقوهم فتهلكوا**»[١]. والقائل أيضاً: «**مثل أهل بيتي كسفينة نوح؛ من ركبها نجا، ومن تأخر عنها غرق وهوىٰ**»[٢].

ومن المفارقات المؤلمة أنه يوجد الكثير من المساجد في بلاد المسلمين ليس فيها رائحة لعلي بن أبي طالب ولا للحسن ولا للحسين عليهما السلام، ولا حتى لعقبهم، أمّا الحسن البصري فهناك مسجد باسمه، مع أن ابناء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هم أسياد الجزيرة العربية والعالم: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»[٣]. وكان رسول اللّه يشمّهما ويضمهما إلى صدره ويقول عنهما: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»، ويقول: «**أحبّ اللّه من أحبّ حسيناً، وأبغض اللّه من أبغض حسيناً**»[٤].

---

(١) الكافي ١: ٢٩٤ / ٣، المعجم الكبير ٥: ١٦٧، كنز العمّال ١: ١٨٦ / ٩٤٦، ١٨٨ / ٩٥٧.

(٢) الاحتجاج ١: ٣٦١ ـ ٣٦٢، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٣٧٣ / ٣٣١٢، تاريخ بغداد ١٢: ٩١ / ٦٥٠٧.

(٣) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٤) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

وهذا الذي يعبّر عنه رسول الله بهذا التعبير لا توجد له أدنى مساحة في وسائل الإعلام الإسلاميّة ولا في الكتب الإسلاميّة، فما معنىٰ طاعة الرسول؟ وأين هي إذن؟ نحن نعرف عمليّاً أن السنّة النبويّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، أفلا يجب علينا طاعة الرسول، فلا نفرّق بين القرآن والسنّة؟ فلابد من الجمع بينهما.

أما الذي يقول: «**إني أشكر الله ولا أشكر لأبوي**»، فلأنه يخالف ما أمر الله به؛ فالله تعالى يقول: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[١]. فمثل هذا تجده يرتدي أحسن الملابس وأجملها ويظهر بمظهر جميل وأنيق ولائق، وكذلك بيته، في حين أن أباه في حالة من الفقر يرثى لها ولايحسد عليها، أو أنه يأكل ألذّ أنواع الطعام ويترك والده يأكل الرغيف الجاف، أو أنه يعطي زوجته فقط ويوسّع عليها، ويترك أمّه في حال من الضيق.

فهل مثل هذا يحمل شيئاً من روح الإسلام؟ طبعاً لا؛ فإن هذا ليس من خلق الإسلام في شيء؛ ذلك أن الله تعالى قرن شكره بشكر الوالدين، وعلّق رضاه على رضاهما وطاعته على طاعتهما[٢] وقرن طاعتهما بعبادته: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾[٣].

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) قال رسول الله: «رضا الله كلّه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما». شجرة طوبى ٢: ٣٧٤، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٣، الدر المنثور ٤: ١٧٢، كشف الخفاء ١: ٤٣١ / ١٣٩٠.

(٣) الإسراء: ٢٣.

فاللّه قد أعطاهما منزلة تتناسب مع مابذلاه من طاقة وتعب في سبيل تربية الولد وتنشئته والإنفاق والسهر عليه وتلبية متطلّباته. فالبعض يصلّي ويصوم ويعبد اللّه، لكنه عاقّ لوالديه.

ونرىٰ في أُوروبا أن الولد عندما يصبح عمره (١٥) سنة فإنه يترك البيت، ويستقل في حياته في حين يبقى الأب تقتله الوحشة، فيبحث عن حيوان يجعله بقربه. أمّا البعض فيقذفون بآبائهم في دور الرعاية، فلا تحسّ بجوّ أُسري أبداً. فالعائلة هي العشّ الذي يتربّىٰ فيه الإنسان على الأخلاق. فالذي يعقّ والديه سيكون بعيداً عن رحمة اللّه تعالى.

ونحن لاننكر أنه يوجد آباء لايعرفون كيف يتصرّفون حيال أبنائهم ومشاكل أبنائهم، لكن ليس معنىٰ هذا أن يقف الأبناء منهم موقفاً سلبياً؛ لأنهم ربما لم يكونوا ممّن يملك ثقافة تربوية، أو أنهم ليسوا على علم أو على مستوى المسؤوليّة التربوية المناطة بهم. لكن واجب الولد على أيّة حال أن يبتغي رضاهما مهما كانت الأسباب والمثبّطات.

المسألة الثانية: نوع الزكاة في الآية الكريمة

إن تحديد نوع الزكاة هنا يعتمد على تحقيق نوع (ال) الداخلة عليها، وهل إنها للعهد أو للجنس؛ فإن كانت للعهد ـ أي الزكاة المعهودة ـ فهي الزكاة المعلومة في النقدين والأنعام الثلاث: الإبل، والبقر والغنم، والغلّات الأربع: البُرّ والشعير والتمر والزبيب. فإذا بلغ مقدار النقدين والغلّات أو عدد الأنعام النصاب الشرعي فعلى المالك إخراج حقّها، أمّا إذا كانت (ال) للجنس فالمقصود يكون حينئذٍ جنس الزكاة، وبما أن الزكاة تطهير المال فهي هنا تشمل النفقات الواجبة والمستحبّة والخمس.

حول مسألة الخمس

تثار الآن زوبعة ضدّ الخمس ملخّصها أن الموجود في القرآن[1] هو خمس الغنيمة ـ أي غنيمة الحرب ـ لا مطلق الأرباح.

ونقول: إن الجواب على هذا الإشكال يكون من جهتين:

الأولى: أن الغنيمة هي كلّ ما يحصل عليه الإنسان؛ سواء كان في دار الحرب أو في دار السلم، فكلّ ربح هو غنيمة[2].

الثانية: أن مصدر التشريع الإسلامي ليس القرآن وحده، وإنما تشترك معه السنّة النبويّة في ذلك.

ولو أشكل مشكل بأن النبي ﷺ لم يطبّق مسألة الخمس في حياته.

لكان جوابه بأن يقال: إن المسألة هنا سالبة بانتفاء موضوعها، أي أنه لم يكن هناك وجود للأغنياء في صدر الاسلام ممّن يمكن أن يفضل عندهم ما يقع عليه الخمس. وبعبارة أُخرى أنه لا يوجد موضوع للخمس حتىٰ يفرض. لكن عندما أثرى المسلمون بعد ذلك وحازوا الأموال فُرض عليهم الخمس.

وقد يتساءل البعض فيقول: إن هذا موجود في رواياتكم فقط، أما في الروايات المقابلة فهو غير موجود.

ونقول: إن التاريخ يقف موقفاً ضدّ آل محمد عليهم السلام. أتذكّر حينما كنت أُناقش رسالتي ـ وكان موضوعها يتناول مسألة الضرائب في الاسلام ـ قلت للمناقش: لماذا نبحث عن أدلّة خارجية، والحال أن عندنا رأي آل محمد عليهم السلام الذي ينصّ على أن الخمس يتعلّق بجميع أرباح المكاسب؟ فقال:

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الأنفال: ٤٠.

(٢) غريب الحديث ١: ٤٦ ـ الغنيمة.

لا، هذا ما لم يتّفق عليه المسلمون.

ونحن حسبنا أن يدنا على العروة الوثقىٰ، نتمسّك بها، واللّه تعالى يعبّر عنهم بأنهم حبل اللّه المتين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[١]، وهذه تفاسير المسلمين حيث إنها تذكر أن حبل اللّه هو آل محمد ﷺ[٢]. ونحن إذا أخذنا برأيهم فإنما نقف على الأرض الصلبة.

لقد وجدت عبارة للفخر الرازي عند كلامه على الجهر في البسملة في صدر الصلاة يقول فيها: أخذت هذا الرأي اعتماداً على رأي علي بن أبي طالب، ومن أخذ برأي علي فقد أخذ بالطريق الأقوم[٣]. ولذلك فإنّ الذي يتمسّك برأي أهل البيت عليهم السلام فإنه إنما يأخذ من نبع صافٍ من القرآن.

فإذن إن كانت الزكاة بمعنىٰ التطهّر فإنها تشمل الخمس والنفقات الواجبة والزكاة المعهودة. ويكون معنى ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: وطهّروا أموالكم بإخراج الحقّ الشرعي منها.

المبحث الثالث: أقسام الإخاء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، أي إذا توجّه مسلم لقبلتك، وأكل من ذبيحتك، وشهد بشهادتك، وقرأ القرآن نفسه، وصلىٰ إلى الكعبة فإنه أخوك في الدين، وعليك أن ترتّب آثار الأُخوّة عليه؛ وهي مودّته

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) انظر: شواهد التنزيل ١: ١٦٨ ـ ١٦٩ / ١٧٨ ـ ١٨١، مجمع البيان ٢: ٣٥٦. وهم حبل بنص قول النبي ﷺ، حيث روى ابن أبي الحديد أنه ﷺ قال: «خلّفت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي؛ حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض». شرح نهج البلاغة ٩: ١٣٣.

(٣) التفسير الكبير ١: ١٦٨.

وحفظ دمه وماله وعرضه. وهذا ما يعبّر عنه بالإخاء الديني. فهناك العديد من العلاقات التي تحكم الناس في الدنيا، وهي متنوعة منها:

الأولى: أخوّة الدين

وهي مجموعة العلاقات والأُطر القائمة علىٰ أساس العقيدة. وهو ما يعبّر عنه بالأُخوّة الدينيّة.

الثانية: أخوّة الدم

وهي ربما تكون أُخوّة غير دينيّة، كأن يكون لك أخ من أُمّك وأبيك لكنه علىٰ دين غير دينك. وهذا يترتّب له عليك حقّ الدم والرحم، أي أنه تتعيّن له عليك حقوق الرحم.

وممّا يروى في هذا المضمار أن أبوي أسماء كانا مسيحيين، فدخلت علىٰ النبي ﷺ وقالت: يارسول اللّه، إن اللّه يأمر ببرّ الوالدين، ووالداي لا تربطني بهما علاقة عقيدة، فأنا مسلمة وهما كافران يختلفان معي في عقيدتي، فهل أبرّهما؟ فقال: «**نعم، برّي أبويك**». فالعلّة هنا هي الأُبوّة.

الثالث: أخوّة الإنسانيّة

وهي أُخوة سامية، ويؤكّده التعبير القرآنيّ في الناس حيث يقول: ﴿**يَابَنِي آدَمَ**﴾[1]، ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[2].

فهذا الإنسان حتىٰ لو كان كافراً أو ملحداً ما دام لم يرفع سيفاً في وجه الإسلام، فعلى كل منّا مسؤوليّة تجاهه؛ لأن اللّه يقول: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**

---

(١) الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٦، يس: ٦٠.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١].

لكن هناك اختلاف بين الفقهاء في مقدار ما يُعطى هذا الإنسان من الحقوق الشرعية ؛ ماليّة كانت ، أو غير ماليّة ، والماليّة هل يُعطاها من الصدقات أو من غيرها ، كل ذلك موضع اختلاف بين فقهائنا كما قلنا . فالبعض يرى إعطاءه من الزكاة والبعض الآخر يرى إعطاءه من الصدقات . وهذا حرص من الإسلام عليهم ؛ فإنه يرى أنهم أُناس ولهم معدة تجوع ، ولهم جسد يعرى ، ثم إن لبعضهم كرامة تمنعهم من مدّ أيديهم ، حتى مع حاجتهم للطعام واللباس : **«إذا كنتم تريدون رحمتي ، فارحموا خلقي»**[٢]. فهذا هو خُلق الإسلام .

كما أنه ليس من خلق الإسلام أن ترىٰ غيرك جائعاً ، ولا تشبعه لأنه يخالفك في الرأي والمذهب ، فروح الإسلام أكبر من هذا ، وهي تعطف حتىٰ على الذين يخالفوننا في العقيدة ، فلا تسلّط سوط العذاب علىٰ من يخالفونك ، فالناس أحرار فيما يعتقدون ، ولا ينبغي أن يقطع عنهم عطاؤهم . خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرّة من مسجد الكوفة فالتقاه أحد المسلمين وقال له : أنا لا أُبايعك ، ولا أخرج معك لقتال ، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة ، ولا أُجاهد معك . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : **«وأنا لا أُكرهك ، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»**[٣]. أي أنك تملك هذا الحقّ .

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) الرسالة السعدية: ١٦٥ / ٥٢، عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٣٦، كنز العمّال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

وقال وهب: مكتوب في الكتب القديمة: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي». الامتاع والمؤانسة: ١٣٠ / ٢.

(٣) مرّ هذا في ج ١ ص ٢٠٠ من كتابنا هذا، وأشرنا هناك إلى أنه قريب منه ما في (الإصابة) في

خلاصة البحث

فقوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يتلخّص منه ثلاثة أقسام من الأُخوّة كما أشرنا: الأُخوّة الإنسانيّة (الإطار العام)، والإطار الأقلّ عموماً وهو الأُخوّة العقائديّة، ثم الأُخوّة الأخصّ وهي الأُخوّة التي ترتبط بالدم. وهذه العلاقات تختلف شدّة وضعفاً، فالإنسان لايميل إلى بعض الإخوة في حين تجده يذوب في البعض الآخر، يقول أحد أدبائنا:

إن أخاك الصدقَ من كان معكْ ... ومن يضرُّ نفسَه لينفعكْ
ومن إذا ريبُ الزمان صدعكْ ... شتّت فيه شمله ليجمعكْ(١)

المبحث الرابع: أُخوة الحسين والعباس عليهما السلام

إن المتابع لسيرة الحسين والعباس عليهما السلام يجد أنها عبارة عن سبيكة من الارتباط والانسجام، وهذا اللون من الأُخوّة هو الذي كان يربط بينه عليه السلام وبين جميع إخوته التسعة الذين تقدّموا معه لساحة الحرب، يقول الشاعر:

عينُ جودي بعبرة وعويلِ ... واندبي إن ندبت آلَ الرسولِ
تسعةٌ كلُّهم لصلبِ عليٍّ ... قد أُبيدوا وسبعةٌ لعقيلِ(٢)

ومن بين هؤلاء التسعة أربعة أولاد لأُم البنين خرجوا مع الإمام

☚ ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

(١) نهج السعادة ٧: ٤٢٦.

(٢) البيتان لسليمان بن قتة التيمي. مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦٧، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٦.

الحسين عليه السلام يوم الطفّ: أبو بكر وجعفر وعثمان والعباس. وقد صُرعوا بين يديه (سلام الله عليه)، وقد قدّمهم العباس عليه السلام أمامه قائلاً لهم: تقدّموا حتىٰ أُرزأ بكم، وأحتسبكم عند الله فأموت وأنا مطمئنّ أنكم وقفتم كموقفي.

وفعلاً قدّمهم واحداً بعد واحد حتى وصل دوره، فدنا من الإمام الحسين عليه السلام وقال له: أبا عبد الله، هل من رخصة؟ فلقد سمعت أصوات النساء والأطفال. فبكى الحسين عليه السلام بكاء شديداً ثم قال: **«يا أخي، أنت رئيس عشيرتي وحامل لوائي، فإذا مضيت سقط لوائي وتفرق عسكري»**. فقال العباس: قد ضاق صدري وسئمت من الحياة، وأُريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين، وإني لا أقدر أن أصبر وأنا أسمع العيال يتصارخون: العطش قد قتلنا. فقال الإمام الحسين عليه السلام: **«فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»**، فذهب العباس، وأنشأ يرتجز:

لا أرهبُ الموتَ إذا الموتُ رقىٰ ... حتىٰ أُوارىٰ في المصاليتِ لقىٰ
إني أنا العباسُ أغدوا بالسقا ... ولا أخافُ الحربَ يومَ الملتقىٰ
نفسي لنفس المصطفى الطهر وقا

فنزل إلىٰ الفرات، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«كان قلب عمّي العباس عليه السلام كصالية الجمر من الظمأ»**(١). فلما أحسّ ببرد الماء ملأ قربته، ثم ملأ كفّه وأدناه إلىٰ فمه، فرماه، ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عليه السلام عطشان. ثم أخذ القربة ليوصلها إلى الفاطميّات، فصاح ابن سعد: اعصوصبوا عليه. فاعصوصب عليه القوم، واشتبكت عليه الرماح، وكمن له نوفل الأزرق

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

من وراء نخلة، فضربه على يده اليمنى فقطعها، فقال:

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقين

ثم حمل القربة على كتفه الأيسر فضربه نوفل فقطع يده اليسرى من الزند، فقال:

يا نفس لا تخشَي من الكفّارِ وأبشري برحمة الجبارِ

مع النبي المصطفىٰ المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلِهم يا ربُّ حرّ النارِ

وينادي المنادي: والله لئن أوصل الماء للحسين ليقتلن منكم مقتلة. فحمل لواءه بباقي زنديه وضمّه إلى صدره، وانحنى على السقاء فحمله بأسنانه ليوصله إلىٰ القلوب العطشى، فجاءه سهم فأصاب القربة وأُريق ماؤها. وعند ذلك استداروا عليه، وضُرب بعمود من حديد على رأسه، ثم جاءه سهم آخر فأصاب صدره، فسقط إلىٰ الأرض منادياً: عليك مني السلام أبا عبد الله، أدركني. فأقبل له الإمام الحسين عليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل إلى مصرعه فجلس عند رأسه وأخذه ووضعه في حجره:

وهوىٰ عليه ما هنالك قائلاً اليوم بان عن اليمين حسامها

اليوم آل إلى التفرّق جمعنا اليوم حلّ عن البنود نظامها

اليوم نامت أعين بك لم تنم وتسهّدت أُخرىٰ فعزّ منامها

جلس عنده واحتضنه، وأخذ يمسح التراب عن وجهه، يقول بعض المؤرّخين: أحسّ العباس بحركة رجل عند رأسه، فظن أنه من الأعداء يريد

أن يحتزّ رأسه، فقال: ياهذا أُقسم عليك بمن تعبد إلّا ما أمهلتني فواق ناقة. قال: **«ما تصنع بها؟»** قال: حتىٰ يأتي إليّ أخي وابن والدي أُودّعه ويودّعني. فقال له الحسين عليه السلام: **«أنا أخوك وابن والدك»**. قال: أبو عبد اللّه عند رأسي؟ قال عليه السلام: **«بلىٰ»**. ثم انحنى عليه الإمام الحسين عليه السلام ليحمله إلىٰ الخيمة، فأبى العباس عليه السلام:

يگله أيّست سكنه من المـاي   تجي يمّي ذليله وتوچب احذاي

ثم قال العبّاس: أبا عبد اللّه، ضع فمك علىٰ فمي، فوضع فمه علىٰ فم أبي الفضل، فأخذ يقبّله إلىٰ أن فاضت روحه الطاهرة، وهنا قام الحسين عليه السلام يكفكف دموعه بمنديل بيده وهو مختنق بعبرته[1]:

خويه العلم گلي وين اودّيه   ينور العين دربي بيش أجِد بيه

---

(١) انظر: بحار الأنوار ٤٥: ٤١ ـ ٤٢، ينابيع المودّة ٣: ٦٨.

﴿١٠٠﴾

حوار حول العقيدة
(الولد والصاحبة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة

نزلت هذه الآية للردّ على المسيحيّين، حيث كان هناك حوار يدور بينهم وبين المسلمين حول العقائد. والحوار قد تجده أحياناً حواراً موضوعياً هدفه البحث عن الحقيقة والواقع، ويتّصف المحاور فيه بمعرفته بأُصول الحوار وبكونه ذا خلفيّة علميّة. أمّا البعض الآخر فتجده يحاورك وهو ليس أهلاً للحوار، ولا يتمتّع بأي خلفيّة علميّة، وكلّ ما يعرفه أنه يرىٰ رواية فيتمسّك بها ولا يلتفت إلى راويها ومؤهّلاته من جهة كونه موثوقاً أو غير موثوق به، وهل إن له غرضاً في الرواية أم لا، وغير ذلك من المؤهّلات. مع أن

(١) الأنعام: ١٠١.

المفترض به أن يتروّى في عمليّة البحث والاستقصاء وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام.

وهناك نوع من الحوارات لا طائل منها البتّة، كأن تجد أحداً يحاور في قضايا بديهيّة، فمثل هذا الحوار في حقيقة الأمر مضيعة للوقت. ومن هؤلاء من يقول: إن يزيد لم يقتل الإمام الحسين عليه السلام[1]، والقائل بهذا هو ابن تيمية[2]. ومع احترامنا لابن تيمية إلّا إني أُوصي بأن يُطّلع على مواقفه من أهل البيت عليهم السلام بقراءة كتاباته عنهم، وأترك الحكم للقارئ.

فينبغي أن يقوم الحوار على أُسس علميّة وموضوعيّة، فعندما يجادل أحد في الأُمور الطبّية فإنه يجب أن يكون دارساً للطب.

المبحث الثاني: الإبداع في الخلق

نرجع للآية الكريمة، فقد دخل جماعة على النبي صلى الله عليه وآله، فقالوا له: أنتم تقولون: إن عيسى له أُم وليس له أب، فأبوه إذن هو الله.

فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله بجواب بعيد عن التشنّج مؤدّاه أن اللّه كثيراً مايجري الأُمور على غير العادة، أي بما يمكن أن يسمى بالـ(إبداع)، ومعنى (بديع):

---

(١) قيل لابن الجوزي وهو على كرسي الوعظ: كيف يقال: يزيد قتل الحسين، وهو بدمشق والحسين بالعراق؟ فقال:

سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من بالعراق لقد أبعدت مرماكا

فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣. وزعم ابن العربي في كتاب له ألّفه في شأن الإمام الحسين عليه السلام أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. قال المناوي في كتابه هذا بعد ذكر عبارة ابن العربي هذه: نعوذ بالله من الخذلان. وكذلك قول الغزالي المارّ في ص ٥٧ من هذا المجلّد.

الذي لم يحتذِ على مثال، فالإنسان تارة يجد تصميماً من التصاميم فينسج على منواله، وتارة يبتكر تصميماً من مخيّلته وبنات أفكاره، وهذا الابتكار هو الإبداع. وخلق اللّه كلّه إبداع، تقول سيّدة نساء العالمين: **«ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها»**[١]. أي لم يجد تصميماً مسبقاً وعمل مثله.

فاللّه تعالى أبدع الأشياء وخلقها على غير مثال، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. ولو تأمّل الإنسان في خلق السماوات والأرض فسيرى الإبداع واضحاً جلياً، فقبل فترة مثلاً اكتشفوا مجرّة مثل المجرة التي فيها مجموعتنا الشمسية، وتبعد عنا (١٢) ملياراً وثلاثمئة مليون سنة ضوئية، والسنّة الضوئية مقياس ضخم[٢]، فسرعة الضوء هي (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية، فكم هي المسافة التي بيننا وبين هذه المجرّة! وكم بينا وبينها من عوالم عظيمة لا يعلمها إلّا الله! هذا ليعرف الإنسان قيمته وقدره الحقيقيّين. وإذا قرأنا بعض الحقائق الكونيّة فإنها حتماً ستجرّنا إلى الإذعان بوجود اللّه وبعظمته كخالق مبدع عظيم.

فالآية الكريمة تقول لهم: أنتم تستكثرون على اللّه أن يخلق ولداً من دون أب، وهو الذي أبدع خلق السماوات والأرض؛ فإنه قد خلقها على غير العادة، فأبدعهن على غير مثال.

المبحث الثالث: أسباب فساد ادّعاء أبوّته تعالى لعيسى عليه السلام

ثم انتقلت الآية لتبيّن فساد العقيدة التي تقول بأنه ليس خالق النبي

---

(١) دلائل الإمامة: ١١١، الاحتجاج ١: ١٣٢.

(٢) قرابة الـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٤٦٠ر٩ كم.

عيسى ﷺ فقط، بل إنه والده أيضاً. فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾، وهنا مسائل:

الأولى: أن هذا خرق للواقع والطبيعة

فالولد إنما يتكوّن عن طريق القوانين الطبيعية، أي يجتمع الأبوان في الفراش فيحصل الحمل عند الأم، ثم يبقى تسعة أشهر حسب النظرية العلميّة للحمل الطبيعي. والباريُ جلّ وعلا لا يحتاج إلى كل هذه الفترة ليتم نموّ الطفل ويولد: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]؛ فهو تعالى لا يحتاج إلى أن ينتظر الطرق الطبيعية للحمل والولادة.

الثانية: أن وجود الابن منافٍ للغنى عن الغير

فالأب إنما يريد الولد لعجزه، فهو يطلبه لغرض هو حاجته إليه من ناحية العاطفة، أو للاستعانة به، فالولد يسد عجز أبيه ويرعاه ويكفيه حاجاته وما يهمّه. وهذا هو النظام التكويني والطبيعي، أمّا واقعنا الآن فقد اختلفت كل القيم التي يجب توافرها فيه، حيث يلاحظ فيه أن بصمات الأُسرة قد أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً. أمّا نظام الأُسرة الإسلامية الملتزمة فهو خلاف ذلك؛ إذ نلاحظ فيه عاملاً مهمّاً يعدّ من أبرز مظاهرها، وهو أن عمليّة تبادل الأدوار بين الأب والابن هي عمليّة طبيعيّة جدّاً؛ فالأب له دور التربية، والابن له دور الطاعة، فيطيع أباه ويخدمه ويقضي كل حاجاته.

فالولد خلق لهذا، أما الآن فإنّ الأُسرة الإسلامية بدأت تتفكك أيضاً حيث إن الأب بدأ يتخلّى عن دور الموجّه والمربّي، والابن كذلك تخلّى عن دور

---

(١) يس: ٨٢.

الطاعة. ومن هنا جاءت المؤثّرات المروّعة.

إن معالم الأُسرة الإسلاميّة بدأت تتلاشى، وهذا طبعاً بفعل وسائل التكنولوجيا الحديثة التي أخذت أنفسنا وأولادنا. أعرف شخصاً يسكن في لندن قد جمع كل متعلّقاته وأشياءه، وهيّأ نفسه لأن يترك بيته هناك، وكان يقول: عندي خمس بنات، ولوسائل الإعلام هنا تأثير عليهن، وكذلك هذه البيئة الفاسدة؛ ففكّرت بالسفر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾[1].

فعلى المسلم أن يستغلّ وسائل الوقاية وأن يبتعد عن المؤثّرات، كما أن المفروض أن تتمّ معالجة هذه المشاكل بكل جدّية واهتمام، وعدم تركها والانشغال بقضايا أُخرى. إننا بأمسّ الحاجة إلى الأخلاق الإسلامية والآداب الإلهية، وهذه العصرية بشكلها الحالي ما هي إلّا رجوع إلى البدائيّة وإلى الوحشيّة والإباحيّة.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾، أي أن الباري جلّ وعلا غير عاجز حتى يحتاج إلى الولد، فكيف يكون له ولد.

الثالثة: أن الولد قد يكون نقمة على أبيه

فالولد ربما يشكّل حالة لاتسرّ أباه؛ فهو كما يمكن أن يكون نعمة لأبيه، فكذلك يمكن أن يكون نقمة عليه ووبالاً، أو أن تبعاته ربما تلحق أباه وإن كان هذا الجانب ربما يؤخذ في الخير وربما يؤخذ في الشر، فمن يكره علي ابن أبي طالب عليه السلام فإنه يحمّل أباه (أبا طالب عليه السلام) ما كان يكرهه منه عليه السلام، فيحمل على أبي طالب عليه السلام ويرميه بالشرك. مع أن الحق أن تكون هذه الأمور

---

(١) التحريم: ٦.

خاضعة لقرائن معيّنة، وأن تحدّدها المواقف، وعلى ضوئها يحدّد الشخص.

فهذا الرجل كان ليلاً ونهاراً حاملاً سلاحه يدافع عن النبي وعن المسلمين، وعندما حوصر المسلمون في الشعب الذي عرف فيما بعد باسمه وقف معهم ثلاث سنين كان فيها واحداً منهم يصيبه ما يصيبهم ويناله ما ينالهم. وكان ليلَ نهارَ يلازم رسول الله هو وأولاده ويحرسونه[1].

وهو الذي وقف معه حينما اجتمع شيوخ قريش على مقارعة الحق المتمثّل بالرسول الأكرم، وذلك حينما رأوا منه تلك المواقف الصلبة إزاءهم ورأوا موقف الرسول الأكرم، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتيان قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتّخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق

---

(١) المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧-٦٦، سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤٠. وفي ذلك يقول أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيّاً وخصّا من لؤيٍّ بني كعبِ
ألم تعلما أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خطّ في أول الكتبِ
وأن الذي ألصقتُمُ من كتابكم ... لكم كائن يحسى كراعية الشعبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجنِ ذنباً كذي ذنبِ
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودّة والقربِ
فلسنا وربِّ البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كربِ
ولسنا نملّ الحرب حتى تملّنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النكبِ
ولكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرعبِ

وفي قوله:

ألم تعلما أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خطّ في أول الكتبِ

أكبر دليل وأقوى برهان على إيمانه فضلاً عن إسلامه.

جماعة قومك؛ لنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني؛ تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلّص ممّا تكره وأراك لا تنصفهم. فقال له أبو طالب عليه السلام: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت علىٰ خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[1].

وجاؤوه أُخرى فقالوا له: إذن ما يريد منّا ابن أخيك محمد؟ فإن أراد حكماً علينا ملّكناه، وإن أراد مالاً منّا أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه ممّن يريد. فالتفت أبو طالب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما فعلت»**.

فلمّا سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلىٰ هذا[2].

وهو المعلن على كل الملأ مخاطباً به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم — حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا[3]

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ١: ٢٠٢، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥، مجمع البيان ٤: ٣١، الميزان ٧: ٥٨.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٣) ومعه هذان البيتان:

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة — وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد — من خير أديان البريّة دينا

مناقب آل أبي طالب ١: ٨٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع

أدلة واهية على كفر أبي طالب

فكانﷺ يدافع عن المسلمين وعن رسول اللهﷺ بكل ما يستطيع، وقدم أولاده للتضحية في سبيل دين الله ورسولهﷺ. وكان يحمي الإسلام بنفسه، ومع هذا يقال عنه: إنه مشرك. ويستدلّون عليه بأدلّة واهية، منها مثلاً الآية الكريمة: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾**[1] حيث يدّعى أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أن النبيﷺ دخل عليه وهو في نزعه، وكان معه جماعة من قريش، فقال له: **«قل لا إله إلّا الله، حتى أشهد لك بهذا»**، وكانت الجماعة تقول له: لاتترك دين آبائك، ومنهم أبو جهل، فامتنع، فلما رفض أن يقولها، قال له النبيﷺ: **«لأستغفرن لك ما لم أنهَ عن ذلك»**. فنزلت الآية لهذا السبب[2].

الردّ على هذه الحجّة الواهية

وهذه الحجّة غير صحيحة ألبتّة، وذلك لأسباب منها:

أولاً: أن أبا طالب توفّي في مكّة، والآية نزلت في المدينة[3]. فلماذا

☚ لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥. ولله درّ ابن أبي الحديد حيث يقول:

ولولا أبــو طــالبٍ وابــنُهُ ... لما مُثّل الدّيـن شـخصاً فـقاما
فـذاك بـمكّة آوىٰ وحـامىٰ ... وهــذا بـيثرب جسّ الحـماما
فــلله ذا فــاتحاً للــهدىٰ ... وللّـــه ذا للـمعالي خـتاماً

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

(١) التوبة: ١١٣.

(٢) صحيح البخاري ٥: ٢٠٨، ٦: ١٨، صحيح مسلم ١: ٤٠، جامع البيان المجلد: ٧، ج ١١: ٥٧، ٥٨، المجلد: ١١، ج ٢: ١١٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٠، معاني القرآن ٣: ٢٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٧٣.

هذا الكذب على الرسول الأكرم ﷺ؟

ثانياً: أن النبي ﷺ قد استغفر لأبي طالب عليه السلام، ولو أنه كان مشركاً لما استغفر له الرسول الأكرم ﷺ. ومن أراد التحقّق فليرجع إلى تفسير القرطبي[١] حيث إنه قد ذكر ذلك.

ثالثاً: أن القرآن الكريم يقول: ﴿**وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[٢] والخصم يقرّ بأنه إذا كانت المرأة مسلمة وكان زوجها غير مسلم فإنهما يفرّق بينهما، وفاطمة بنت أسد بإجماع الجميع مسلمة ومن سيدات المسلمات، فلو كان أبو طالب عليه السلام مشركاً كما يُدّعى فلمَ لمْ يفرّق الرسول الأكرم ﷺ بينهما؟

ثمّ إن ما ذكرنا له من هذه المواقف الطويلة والعريضة مع الإسلام ألا ينهض حجّة كافية على إثبات إسلامه (رضوان اللّه عليه)؟ وهذا كلّه لأنه أبو طالب، أي أبو أمير المؤمنين علي عليه السلام، أما الذي يرفع عقيرته صباحَ مساءَ ويقول: يا بني أمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة.[٣] والقائل لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُمية تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار[٤]، فهو مسلم، بل ومن سادات المسلمين.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الممتحنة: ١٠، وطرف الآية الكريمة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

(٣) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤، وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة).

ونحن ندعو الشباب المسلم إلى أن يقرأ التاريخ بتمعّن؛ لأن فيه الكثير من الأكاذيب، وليتتبّع المصادر، حيث إن تاريخنا اختلطت فيه أنماط من المؤثّرات، يقول أحد الشعراء.

أيا موسع التأريخ نقداً وخبرةً	ومبتدعاً في نهجه ليس يجترُّ
تجلّى له التأريخُ بحراً فخاضه	وغاص إلى الأعماقِ فانكشف القعرُ
فأبصر زيفاً يستطيل وواقعاً	يذادُ ومقياساً إلى الخلطِ ينجرُّ
وأنباءً يرويها الهوى ونوازعاً	تحكّم فيها الحبّ والبغض والتبرُ
ومرّت به الأقلام منهن قانعٌ	بفضل فُتات الظالمين ومعترُّ

فهناك ألوان من الأقلام قد كتبت التاريخ بمختلف المؤثّرات، فإذا أراد المنصف أن يقرأ رواية ما فعليه أن يعرف ما وراءها وما هي أهدافها ومدى صحتها، فلا يحكم على الأشياء بمجرّد قراءة رواية ما، خصوصاً ما يتعلّق منها بالحبّ والبغض. ثمّ إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قد وُضع في موضع لايُحسد عليه، فقد قاتل دفاعاً عن الإسلام، لكنهم حمّلوه تبعة دماء قريش، وقريش هم الذين كتبوا التاريخ، وعبّروا عنه بتعابير عجيبة، ولذلك يخاطبه أحد الأُدباء:

أسرف الدهرُ في عدائِك حتى	ليس بين الاثنين من إصلاحِ
وتصدّى لأن يساويك بالأد	نى ويدني سنم الذرا للبطاحِ
إنها نكبة المقاييس فينا	أن يقاس الخرنوبُ بالتفّاحِ

رجع

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾، أي لا يكون له ولد، ولا يحتاج لأن ينتظر فترة طويلة كي يأتيه ولد.

المبحث الرابع: في معنى الصاحبة وبعض حقوقها وواجباتها

ثم قالت: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾، الصاحبة هنا: الزوجة، والصاحب يأتي بمعنيين:

الأول: المعاشر، أي من العشرة الزوجيّة.

الثاني: المجير، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾[1] أي لا يجارون منا.

والذي نفهمه من الآية الكريمة أن المرأة مجارة، وأن الرجل يجير المرأة، وعندما يعبّر القرآن الكريم عن الزوجة بأنها صاحبة، والزوج بأنه صاحب، فإنه إنما يريد أن يحقّق معنى (أن تجار)، أي أن تكون هذه المرأة في جيرة الرجل، وللجيرة هنا عدّة معانٍ منها:

الأول: أن تجار من الإكراه والتعسّف

ومعنى يجيرها من الإكراه أن يعطيها الأب أو الأخ الأكبر حقّ اختيار الزوج المناسب لها، حيث يُعرض عليها الزوج، ولها الحقّ في أن تراه، كما أن له الحقّ في أن يراها؛ لأن الخطأ إذا وقع بعد ذلك فإنّ الثمن سيكون فادحاً.

حالة اجتماعيّة مخطوءة

هناك معنى مخطوء ومنحل يعتمده بعض الشباب ويمارسونه هذه الأيّام، وهو أن يخطب أحدهم الفتاة، ويلبسها حلقة الخطوبة ثم يأخذ حريته معها في الدخول والخروج والتسوّق وغيرها. وهذا لا يقبل به الإسلام ألبتّة، ولا تقبله الغيرة، وتأباه أخلاقنا وحضارتنا وتاريخنا.

---

(١) الأنبياء: ٤٣.

فالحدّ المعقول هو أن يراها وتراه، حتى لا تحصل كارثة اجتماعيّة بعد ذلك، ويكون ضحيّتها الأم، وهذا الطفل الذي سيتحوّل في أغلب الأحوال إلى كيان محطّم في المجتمع.

نرجع إلى مسألتنا وهي الاختيار، فالمرأة تُستأمر في زواجها، فإذا أطرقت وسكتت وكانت بكراً فهو دليل رضاها؛ فإنّ رضاها صمتها[١].

وبعد الاختيار فإن على الزوج أن يجيرها من الضرر والتعسّف، فبعد إتمام العقد والزواج، يحدّد لنا القرآن الكريم مسؤوليّتنا ويرسم لنا الطريق في التعامل مع شريكة حياتنا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢]. فالطباع متحرّكة، وربما حصل خلاف بينهما؛ فلذلك وضع الله تعالى لنا قانون المعروف، فلا

---

(١) لم ترد هذه العبارة في شيء من رواياتنا أو كتبنا الحديثيّة، قال السيد الخوئي في كتاب النكاح: «وأما النصوص فأما ما دلّ على أن سكوت البكر إقرارها، فالاستدلال به غير واضح؛ إذ لم يرد في شيء منها أن سكوتها رضاها؛ كي يقال: إنها دالّة على كفاية الرضا، وإنما الوارد أن سكوتها إقرارها أو أن إذنها ضمانها، ومن الواضح أن التعبير بالإقرار أو الإذن دالّ على اعتبار المبرز والكاشف، وعدم كفاية مجرّد الرضا الباطني». كتاب النكاح ٢: ٣٢٨.

لكن ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذنها صمتها»، انظر: بحار الأنوار ١٠٠: ٢٧٣، ومثله عن الرضا عليه السلام كما في مستدرك وسائل الشيعة ١٤: ٣١٦ / ١٦٨١١.

نعم وردت هذه العبارة في كتب بعض فقهائنا (أعلى الله مقامهم)؛ قال المحقق الحلي: «ويقنع من البكر بسكوتها عند عرضه عليها، وتكلّف الثيب النطق». شرائع الإسلام ٢: ٥٠٤.

وقال ابن حمزة: وإذا استأذن الأخ أُخته البكر الرشيدة في تزويجها كان سكوتها رضاها. الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٣٠٠.

غير أنه وردت هذه العبارة في كتب أهل السنة، انظر: مسند أحمد ٢: ٢٢٩، المعجم الأوسط ٧: ١٤٦، كنز العمّال ١٦: ٥٣٢ / ٤٥٧٧٨.

(٢) النساء: ١٩.

تتمّ المعاملة على أساس القسر والإكراه أو على المضارّة، فإنّ من المفروض أن تقوم علاقات هذه الأُسرة على أساس الحبّ والوئام، لتكون الثمرة ناضجة، وليخرج الولد سويّاً مستقيماً.

الثاني: أن تجار من العوز والحاجة

والإجارة من العوز بالنسبة للزوجة على زوجها تأخذ بعداً كبيراً في الإسلام، وطابعاً ذا عمق واضح؛ فنفقة الأبوين واجبة على ابنهما مثلاً، لكن إذا لم يكن عنده ما ينفقه عليهما سقطت عنه حينها، أما على الزوجة فإنه لا تسقط عنه لها وإن لم يكن يملك النفقة، بل إنها تبقى ديناً بذمّته متى ما وجد مالاً أو وُسّع عليه فإنه يطالب شرعاً بسداده.

وهذا كلّه كيلا تعرض الزوجة للعوز وهي محبوسة لديه في البيت؛ ذلك أن الغالب من النساء أنهن متوجهات إلى خدمة البيت وتدبير شؤونه، وتربية الأولاد، فلابد إذن من أن توفّر لهن وسائل الحياة التي تكفيهن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن الرجل إذا كان يعرف أن المرأة تعمل قبل أن يتزوج منها وسكت على ذلك ولم يتّفق معها على ترك العمل، فليس له الحقّ في أن يطالبها بتركه ويأمرها بالبقاء في البيت؛ لأنه سكت ورضي. وهذا كحالة الاشتراط في صلب العقد. هذا على رأي البعض، أما البعض الآخر فيقول: إنه يملك الحقّ في أن يبقيها في البيت.

على أيّة حال فإنها إذا لم يكن عندها عمل تسد به حاجاتها الشخصيّة فالزوج حينئذٍ يكون مسؤولاً عنها بالنفقة بالمقدار الذي يليق بحاله وحالها. وعلى الأكثر يراعى حاله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ

مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[١]، أي بقدر حال الزوج، فإن كان ميسور الحال فعليه الإنفاق بقدره فلا يطعم أهله طعاماً رديئاً ولا يلبسهم ملابس رثة، وإن لم يكن ميسور الحال فلينفق بقدره أيضاً ولا يقترض ويبذخ ويسرف، فيسوء حاله.

فالمفروض إذن أن تجري الأُمور مجرى العدل الذي هو وضع الشيء موضعه، فالنفقة بالنسبة للإطعام والكسوة والسكن لا بد أن تكون في حدود استطاعة الزوج. وهذا هو معنى أنه يجيرها من العوز والحاجة، يروي أبو داود في (السنن) بطرق أنه دخل رجل على رسول اللّهﷺ فقال: يارسول اللّه ماحقّ الزوجة عليَّ؟ قالﷺ: **«تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلّا في البيت»**[٢].

والقبح سواء كان بقول أو بفعل، **«ولا تهجر إلّا في البيت»**، فالمرأة لها كرامة، فلا تعرّضها لكلمة نابية خارج البيت، أمّا داخل البيت فمن الممكن أن تتصالحا.

فكرامة المرأة يجب أن تبقى محفوظة، بل أكثر من هذا؛ إذ عليك أن تلطف أجواءك معها، يقول الحديث الشريف: **«كل شيء يلهو به المسلم باطل إلّا ثلاثاً: رمي الرجل بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبة أهله»**[٣].

فزوجتك لها حقوق الأجواء المنفتحة التي يتوفّر فيها لون من الشفافية

---

(١) الطلاق: ٧.

(٢) سنن أبي داود ١: ٤٧٥ / ٢١٤٢ ـ ٢١٤٣، وانظر مسند أحمد ٤: ٤٤٧، ٥: ٣.

(٣) سنن الدارمي ٢: ٢٠٥، المعجم الكبير ٢: ١٩٣، غير أنه عدّها أربعة بإضافة «مشي الرجل بين الفرضين» وأبدل بـ«رمي الرجل بقوسه» قوله: «وتعلم السباحة».

والرقّة. لكن البعض حتى هذه الساعة يعيش أجواء الجاهلية في كلّ ممارساته، في حين أن الإسلام يرفض ذلك كلّ الرفض. فالرجل إذا كان قد استحل من المرأة ما استحلّ بكلمات اللّه فليس معناه أنه قد استعبدها، ذلك أنها تعطيه أكثر ممّا تعطي لأبيها أو أخيها، فقد فُرضت عليها أُمور تجاه الزوج أيضاً.

فالإجارة إذن هي من التعدّي والمضارّة والانحراف، فيجب على الزوج ألّا يكون عاملاً مساعداً لانحراف أهله؛ فالعربي هو من يقول:

أعمىٰ إذا ما جارتي برزت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ
ويصمّ عمّا كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقرُ[١]

فنحن نعيش في محيط المفترض بنا أن تغضّ فيه أبصارنا عمّا حرّم الله تعالى، لكن البعض في مجتمعاتنا هذه تراه يمشي مع زوجته وهي مسفرة، وترتدي ملابس شبه خليعة، واضعاً يده في يدها ويريد أن يصطحبها إلى المرقص ليعلّمها الرقص. وهذا في حقيقة أمره إنما يغالط أعماقه وكيانه وحضارته وتاريخه؛ فهو يظن أن هذا مظهر من مظاهر الحداثة والتطوّر.

فالذي ينبغي على الزوج أن يوفّره لزوجته هو أجواء الستر والعفاف، وأن يحمي أهله من الانحراف، فالقرآن الكريم يعبر عنهن بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[٢]، فكما أن اللباس يستر الإنسان، فكذلك الزوجة تستره من الانحراف. ففي الفقه الجنائي أنه إذا زنى شخص؛ فإن كان غير محصن (غير متزوج) فإنه يؤدّب بالجلد، وإن كان محصناً فإنه يرجم؛ لأنه بفعله هذا

---

(١) البيتان لمسكين الدارمي أمالي السيد المرتضىٰ ٢: ١٢٣.
(٢) البقرة: ١٨٧.

إنما يريد هدم الأُسرة ونشر العدوى.

فهذا المحصن لديه امرأة تغدو وتروح عليه ويغدو ويروح عليها، واللّه قد كفاه بهذا الزواج مسألة إشباع الرغبة الجنسيّة عنده، فلماذا إذن يسطو على أعراض الناس؟ ولذا فإنه يرجم بأن يدفن إلى النصف من بدنه ويُرمى بالحجارة إلى أن يموت. فعلى الانسان ألّا ينحرف؛ فإنّ الزوجة لباس للزوج وستر له.

الزوجان سكن لبعضهما

وكذلك فإن اللّه تعالى وضع بينهما رباطاً مقدّساً عبّر عنه في كتابه الكريم بـ(السكن)، فإنّ الإنسان له همومه ومشاكله مهما كان، فعندما يرجع من العمل مثلاً فإنه حتماً يرجع منهكاً متعباً مثقلاً بهموم الحياة، فيكون محتاجاً إلى أهله (زوجته) وأطفاله، ومشاهدة أُسرته؛ ليغدقوا عليه جوّ الراحة والحب، وليخفف بهم من حدّة مشاكله، ويمسح عنه آلامه، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. فالمرأة سكن، وهي سكن للرجل لأنه ستر وغطاء لها. وهذا الرباط (السكن) هو رباط المحبّة والمودّة، والذي يهيّئ البيئة الصالحة التي تنشّئ الطفل تنشئة صحيحة، وتجعله يعيش مع المجتمع بشكل طبيعي من خلال الأبوين.

الزواج والأحكام التكليفيّة

فالصاحبة إذن مأخوذة من الإجارة، بمعنى أن الرجل مجير للمرأة، وكذلك المرأة إذ أن هناك تبادلاً بالأدوار.

---

(١) الروم: ٢١.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن الزواج يختلف من شخص لآخر وجوباً واستحباباً؛ فهو لمن يقدر عليه ومن يخشىٰ على نفسه الوقوع في الحرام يصبح من الواجبات، أمّا إذا كان لايخشىٰ الوقوع في الحرام، فإنه يصبح بالنسبة إليه من المستحبّات. لكن الزواج لا يمكن أن يخرج عن كونه نظاماً طبيعيّاً للأُسرة وللمجتمع، فلا بدّ من إقدام كلّ فرد عليه. ولاتهمنا الدعوات التي تعمل علىٰ نقض الزواج وهدم الأُسرة، فالماركسية مثلاً تعتبر أن الزواج ركيزة من ركائز الرأسماليّة، بحجّة أنه يربّي في المجتمع لوناً من ألوان الأنانية، ويربي فيه الشعور بالطبقيّة، في حين أن الإسلام يرى أن الزواج عبارة عن الأُسرة.. الخليّة التي يتكوّن المجتمع من مجموعها. وقد فشلت هذه النظريّة واندحرت، وكذلك كان مصير كل النظريات التي عارضت هذا التركيب الطبيعي للمجتمعات.

إن الزواج يقوم علىٰ أساس واحد هو خلق الأُسرة الطبيعيّة، فكل شيء مفتعل يوضع في هذا الطريق يجب إزالته، وإن الانسان يجب أن يبقىٰ في هذه الدنيا ليعمرها، ولا يكون بقاؤه إلّا عن طريق الأولاد، فهم الذين يمثلونه من بعده، وإذا رحل ولم يكن له ولد فالعرب يعيّرونه ويعبّرون عنه بالأبتر، أي المنقطع الذكر.

المبحث الخامس: حقيقة زواج القاسم ابن الإمام الحسن عليه السلام

فالأب والأُم يفرحان لزواج ابنهما أو ابنتهما، امّا بخصوص الزواج يوم الطفّ فإنه لم يحصل بالمعنىٰ المعروف، لكن ربما قد حصل عقد وإن كانت الرواية التي وردت بهذا الشأن ضعيفة لا تنهض في إثبات ذلك؛ حيث إنها رواية مرسلة.

وربما تكون هذه المسألة قد جاءت (بناء على القول بصحة هذه الرواية) من رغبة في نفس أُمّه أو في نفس الإمام الحسين عليه السلام بأن يعقد له على إحدى بناته ؛ حيث إن الإمام الحسن عليه السلام كان قد دفع القاسم قبل وفاته للإمام الحسين عليه السلام وأوصاه بأن يكفله وأن يجعله وديعة عنده. وكان آخر نبلة في كنانة الإمام الحسين عليه السلام ، ولمّا قتل لم يبقَ معه أحد في الخيمة، حيث كان عليه السلام قد وقف منادياً أمام الأشلاء المتناثرة من أهل بيته قبل أن يبرز القاسم إلى المعركة : **«أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟ »**[1].

فخرج هذا الصبي، تقول الروايات: كان عمره بين التاسعة والحادية عشرة، فتعلّق بأذيال عمّه عليه السلام وقال له : ياعم لا أقدر أن أسمعك تنادي : **«أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟ »**، وأنا قابع في أعماق المخيّم، فائذن لي حتىٰ أُقاتل بين يديك. فاستدناه الإمام الحسين عليه السلام ، وتأمّل في وجهه وقال: **«يا آل محمد بعداً لقوم يكون جدّكم خصمهم يومَ القيامة، فيعرّضونكم للقتل وأنتم ريحانة رسول الله»**. فلما ألحّ على عمّه قال: **«ابرز بنيّ»**. فبرز وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسنْ ... سبطُ النبيّ المصطفىٰ والمؤتمنْ
هذا حسينٌ كالأسيرِ المرتهنْ ... بين اناس لا سُقوا صوبَ المزنْ[2]

فقاتل قتال الأبطال، يقول حميد بن مسلم: مرّ بي وهو يفرس الناس

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

بسيفه، فانقطع شراك نعله فانحنىٰ ليصلحه فأقـبل إليـه الأزدي مـن ورائـه، مستلّاً سيفه وضربه علىٰ رأسه فسقط إلى الأرض يخور بدمه، وهو ينادي: أدركني ياعمّاه. فخفّ إليه الإمام الحسين عليه السلام علىٰ فرسه: وذاد الخيل عـنه، وأقبل إليه ونزل إلى مصرعه، وأخذ يعانقه ويمسح الدم والتراب عن وجهه، وعاد به إلى المخيّم، فاستقبلته أُمّه:

فـجعني الدهـر بـوليدي وخـيّب ضـنوة اسـنيني



﴿ ١٠١ ﴾

برّ الوالدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ
لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: رعاية الأسرة في القرآن

إن المساحة التي يعطيها القرآن الكريم لرعاية الأُسرة مساحة كبيرة، حيث إن الأُسرة هي العشّ الذي تنشأ فيه الأخلاق، وهي الخليّة في بناء المجتمع؛ فإذا فسدت فسد المجتمع، وإذا صلحت صلح.

فالشريعة تهتمّ اهتماماً واسعاً وكبيراً بالأُسرة خصوصاً فيما يتعلّق بتنظيم أُمورها والعلاقات بين أفرادها، كعلاقة الزوج بالزوجة، والأب بأولاده، والأولاد بأبويهما. ومن جملة الآيات التي عنيت بهذا الجانب هي هذه الآية. ومجتمعاتنا الإسلاميّة بحاجة ماسّة إلىٰ تربية الأُسرة، فهي مجتمعات قائمة على أساس عدم الثقة فيما بينها، والتوثّب للانقضاض على بعضها:

(١) لقمان: ١٤.

ألا لا يجلهنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[١]

فهذا يا للأسف أصبح شعار الكثير من المسلمين، وهكذا فإنهم ينشغلون بأُمور جانبيّة، فإن أُقيمت شعائر لآل محمد ﷺ انقلبت الدنيا. ولست أدري لمَ يثير هذا حسّاسية كثيرٍ من الناس؛ مع أن الحسين عليه السلام مصباح الهدى، والفعّاليّات التي تقام لأجله ينبغي أن تكون بمستواه وبما يناسب منزلته.

المبحث الثاني: دور الوالدين وأثرهما في الابن

تقول الآية الكريمة: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾، الوصية هنا بمعنى الأمر، مثل ﴿يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ﴾[٢]. فاللّه تعالى يأمر الإنسان ببرّ والديه والإحسان إليهما. والمتعلق[٣] لم يذكر هنا؛ ولذا فإنه يفيد العموم، فتكون الوصيّة بما يحقّق معنى الأُبوّة والبنوّة.

قد يسأل سائل: إن الولادة إنما نتعقّلها من طرف الأُم؛ فهي التي تلد، فلماذا نسمي الأب والداً؟ فإنه لم يلد وإنما تخرج منه النطفة في أحسن لذّاته. فالولادة الحقيقيّة تقع على الأم، فلماذا يعبّر القرآن الكريم عنها وعن الأب بقوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؟

والجواب: أن هذا في الحقيقة من باب التغليب أو المقابلة، مثل (القمران) للشمس والقمر، وإلّا فإنّ التي تلد هي الأُم دون الأب؛ فهي التي تتحمل الأعباء من حمل وطلق وولادة وتعب، أما الأب فعليه أعباء من نوع آخر،

---

(١) شرح المعلقات السبع: ١١١ ـ ١٢٧. (٢) النساء: ١٠.

(٣) أي الشيء الذي تكون فيه الوصية وتكون هي مورده، أي أنه يريد التوصية بهما بكل موارد البرّ والإحسان التي يقرّها الشرع والعقل.

حيث إنه يتحمل هموم التربية ومسؤوليّتها، إذ يقع عليه عبء إخـراجـه إلى المجتمع، وعليه حينها أن يراقبه بحذر أن يضلّ ويتيه في دهاليزه المظلمة، وأن يحميه من الخرافات والوسائل المتطرفة، ومن الانحدار الخـلقي. كـما عليه أن يحاول تغذية تطلّعاته وتوفير جوّ من الرعاية والتعليم والتربية الكافية له، وألّا يحمله على العقوق.

وهذه مسؤولية الأب الواعي، حيث إن الأب هو سبب وجوده، فهو الذي أخرجه إلى الدنيا وإلى الوجود، فـلابد مـن أن يـحميه ويـهيّئ له الأجـواء الصحيحة والصحّيّة المناسبة لتربيته.

وقد منح القرآن الكريم الأُم المزيد من العناية؛ حيث قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾، فالحمل حينما يأخذ بالتقدّم في النموّ فإنه يصبح على ظهر الأُم أثقل من حمل البعير، والحمل هو الذي في البطن. فـ﴿حَمَلَتْهُ﴾ هنا يعني في البطن ﴿وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ أي أدوار الحمل التي تمرّ بها المرأة. وتبدأ معاناتها من مرحلة العلوق، حيث تمرّ عليها أيّام الوحام وهي في غاية الشدّة، ثم ثقل الحمل والتعرّض إلى مضاعفاته؛ بحيث إنه يمنعها من الراحة والنوم والطعام. لكن هذا يقابله لذّة الشعور بامتداد الذات؛ حيث ستؤدّي وظيفتها بالأُمومة، وهي تشعر بأنها ستكون أُمّاً، وسيكون لها غبطة. لكن مع هـذا الإحسـاس العالي تبقى أعراض الحمل ومتاعبه؛ حيث تزداد ضعفاً ومشقّة.

فالقرآن الكريم يريد أن يصوّر للولد معاناة الأمّ في حملها به، ويعمّقها في نفسه، فكم تتعب وتعاني! فلا تنسَ كل شيء. ثم إن البعض من الأبناء بمجرّد أن يتعرّضوا إلى مشكلة، أو أن يصطدموا بأية عقبة في الحياة، فإنهم سرعان ما يجزعون ويفقدون الصبر، ويرفعون أصواتهم: لماذا وُلدنا؟ ولماذا جاء بنا

آباؤنا إلى هذه الدنيا حيث البلايا والمصائب والمتاعب؟ فيبدؤون بالتذمّر وتحميل آبائهم مسؤولية ذلك:

ماخيّروني يومَ جئت الوجودْ ولم أُخيَّرْ بعدها إذ أعودْ

وسوف أمضي وأنا جاهلٌ نهايتي فيم وممّ الورودْ

مع أن هذا من غير الصحيح قوله، فنحن لسنا جاهلين بالواقع، فقد خلقنا اللّه تعالى لعلّة ولحكمة، فإنّ «الدنيا مزرعة الآخرة».

المبحث الثالث: الفصال والآثار الوضعيّة للرضاعة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصال: الفطام من الرضاع، أي أي أن الطفل يُرضع سنتين، وأمّا ما زاد عليهما فهو يخضع لأحكام سنذكرها بعد قليل إن شاء الله. غير أنه لا يجب على الأم أن ترضع طفلها أكثر من سنتين لو أراد الزوج ذلك، ويجوز لها ذلك إن هي أرادته. والقرآن الكريم يوكّد هنا على رضاعة الأم ابنَها، لكن الذي نراه الآن والذي يحصل غالباً أن الأُمهات إمّا أن يدفعن أطفالهن إلى المربيات ليرضعنه، أو أنهن يعوّدنه على اللبن الصناعي؛ بدعوى أنهن يرمين من وراء ذلك إلى المحافظة على رشاقتهن.

آثار الرضاعة الوضعيّة على الوليد

إن لبن الأُم ضروري جدّاً للأطفال؛ حيث إنه يتوفّر على كلّ المواد الأساسيّة (الدهنية والنشوية والأملاح والمعادن والبروتينات والزلاليات) الضروريّة لصحّة الأطفال، خصوصاً في الأيّام الأُولى من حياتهم؛ حيث إن المادّة التي يفرزها الثدي تعتبر عاملاً مطهّراً لمعدته، وتعطيه مناعة ضدّ

مجموعة من الأمراض.

ومن حكمة اللّه تعالى أن لبن الأُم يتناسب وحاجة الطفل، فالطفل الذي عمره شهر يمتاز لبنه بأن له كثافة معينة تختلف عن كثافة ذلك الذي عمره شهران. ثم إن الثدي يعطي الطفل حسب اشتهائه، ولا يعطيه أكثر من حاجته. كما أن لبن الأم يعطي الطفل الأمان من النزلات المعويّة والأمراض والمشاكل. فلبن الأُم مصنّع ومنظّم في غاية الدقة والإتقان.

وهي إلىٰ ذلك تغذو وليدها مع اللبن العطف والحنان والرحمة والحبّ.

آثار الرضاعة الوضعيّة على الأم

أما بالنسبة للأم فإن عمليّة الرضاعة الطبيعيّة تؤدّي فيها إلى امتصاص مضاعفات الحمل منها وإلى إعادة الرحم لحجمه الطبيعي، ومنع حدوث سرطان الرحم وسرطان الثدي. وهذا يحصل كلّه بعمليّة الرضاعة الطبيعيّة.

ثم إن عمليّة الرضاعة هذه هي التي تنشر الحرمة التي يقول فقهاء الإماميّة بأنها تنشأ من اللبن الذي يتناوله الطفل عبر التقام الثدي وامتصاصه. ولذا فإن الشريعة المقدّسة تؤكّد على الأُم ألاّ تهمل هذا الواجب.

أهداف تحديد الرضاعة بالعامين

وهنا أمر ينبغي الإلماح إليه، وهو أن قول الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ لايعني أنها لا يجوز لها أن ترضعه أكثر من سنتين فلو أرادت ذلك جاز؛ إذ لا مانع منه. لكن القرآن نصّ على العامين لأهداف، منها:

الأوّل: عدم استحقاق الأجرة بعدهما

فالمرأة لاتستحق أجراً على الرضاعة لو طالبت به إذا كانت الرضاعة

واقعة بعد تجاوز الرضيع العامين، بل لها أن تأخذ الأجر على الرضاعة خلال السنتين فقط.

الثاني: درء النزاع فيما لو طالب الزوج بالرضاعة أكثر

أي لو اختلف الأب والأُم وتنازعا حول الفترة التي يجب أن ترضع الأم فيها وليدها؛ فقال الأب: أرضعيه حتى بعد السنتين. وقالت الأم: لا أرضعه بعدهما. فهنا يُرجع إلى الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾. أي أن المدّة هنا محدّدة ولا داعي معها إلى النزاع.

الثالث: بيان أجل نشر الحرمة

فإن الطفل الذي يرتضع لمدة سنتين من ثدي أُمّه، ثم يُنقل إلى مرضعة لجفاف ثديها، وكان عند المرضعة بنت، فان اللبن لا ينشر الحرمة هنا؛ لأن الرضاعة وقعت بعد السنتين؛ وعليه فإن البنت التي رضعت معه لا تصبح أُختاً، وبالتالي يجوز له أن يتزوج منها.

هذا على رأينا نحن الإماميّة، أمّا عند غيرنا فإنّ أبا حنيفة يقول: إن نشر الحرمة يستمرّ إلى الشهر الثلاثين، أي في مدّة سنتين ونصف[1].

أما البعض فيقول: إنه ينشر الحرمة من المرأة ولو كان عمر المرتضع (٢٠) سنة. وهذا رأي عائشة وعطاء والليث، مع أن أُم سلمة وسائر نساء النبي ﷺ قد خالفنهم في الرأي، وأبين أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة حتى يكون قد رضع في المهد، وكذلك خالف عائشة جملة من الصحابة. ومستندهم في ذلك ما روي من أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا

---

(١) الدر المختار ٣: ٢٢٩، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

كنا نرى سالماً ولداً فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها؛ فبذلك كانت عائشة تأخذ بنات أخواتها وبنات إخوانها يرضعن من أحبّت عائشة أن يراها ويدخل عليها[1].

وهذه أحكام غير ناهضة ولا نقبلها بحال، والرواية معارضة بما هو أمتن سنداً وأقوى دلالة.

المبحث الرابع: متعلّق الشكر في ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، فما هو المقصود بالشكر هنا؟ يقول المفسّرون: إن الشكر هنا يتوجّه إلى النعمة السببيّة، فمثلاً يتوجّه بالعبادة إلى نعمة الخلق. فهو هنا يتوجّه إلى النعمة السببية، حيث إن الإنسان يشكر اللّه تعالى؛ لأنه خالق، لكن لماذا نشكر الأبوين؟ وما هو شكرهما؟ وكيف يكون؟ فهنا أمران:

الأول: سبب شكر الأبوين

إن الله تعالى إنما أوجب علينا شكر الأبوين لأنهما السبب في وجودنا وحياتنا وبقائنا في هذه الحياة؛ حيث إنهما تحملا آلام الحمل والوضع والتربية والرعاية والإعالة كلّاً من وظيفته. فيتعين إذن على الولد شكرهما.

الثاني: كيفيّة شكرهما وماهيّته

إن الشكر له مراحل، فهناك الشكر القولي، أي أن يقول الولد لأبويه مثلاً:

---

(١) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

جزاكما اللّه خيراً، فقد تعبتما وصبرتما وتحملتما الآلام من أجلي[1]. وهناك مرحلة عمليّة من الشكر، وهي التأدّب بحضورهما، وألّا يحدّ الابن النظر إليهما[2]، أو يفعل ما يسيئهما[3]، وألّا ينظر إليهما بعين الغضب، وألّا تبدر منه كلمة نابية إزاءهما[4]. ولذلك أصبح عقوق الوالدين من الكبائر التي يؤخذ بها صاحبها؛ لأنه خلاف ما أمر به القرآن الكريم؛ حيث إنه أمر بشكرهما: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

وهكذا فقد جعل الله شكرهما بعد شكره[5]، أي أنه يتوجه الشكر للوالدين مع شكره تعالى. فصحيح أن اللّه هو الذي خلق، لكنِ الوالدان هما السبب الطبيعي للخلق.

ولذا فإنه تعالى أعقب ذلك بقوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، وهو تعقيب بكلام فيه جوّ من التهذيب، أي أنك أيها الإنسان راجع إلى اللّه الذي يعرف كيف كنت

---

(١) وكالدعاء لهما بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار عليهم السلام، كدعاء الإمام السجّاد عليه السلام لأبويه، انظر الصحيفة السجادية الكاملة: ١٢٧ ـ ١٣٣ / ٢٤.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلىٰ والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

(٣) وقد سبقت الإشارة إلى أن الإمام السجّاد عليه السلام كان يحترم أُمه ويكرمها غاية الإكرام، وكان يجلس معها على مائدة الطعام ويؤاكلها ويؤانسها، ولا يمدّ يده إلى الطعام معها، ولما سئل عن ذلك قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها». الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٤) قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ الإسراء: ٢٣.

(٥) كما قرن رضاه برضاهما، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رضا الله كلّه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما». شجرة طوبى ٢: ٣٧٤، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٣، الدر المنثور ٤: ١٧٢، كشف الخفاء ١: ٤٣١ / ١٣٩٠.

تعامل أبويك فيما إذا كانت معاملة حسنة أو معاملة سيّئة، وسوف يجازيك ويكافئك على ذلك. فإذا لم تراعِ الوالدين ولم ترعَ أمرهما فمصيرك بيده، وهو الذي يتولى أمرك وحسابك.

المبحث الخامس: الإطلاق في الوصيّة بالوالدين

هذا هو الجوّ العام الآية، لكن نودّ أن نسأل سؤالاً آخر هو: لماذا يطلق القرآن في وصيّته الولدَ بوالديه؟ أي أن القرآن الكريم عندما نصّ على توصية الولد بوالديه فإنما نص على الوالدين مطلقاً، مع أن هناك آباء وأُمهات ليسوا على المستوى المطلوب أحياناً، أي أن وظيفتهما حينئذٍ لم تكن أكثر من إخراج الولد الدنيا، ثم يكلونه إليها دون أن يكون لهما دور إيجابي في تربيته. ثم لماذا لم يوصِ في المقابل الوالدين اللذين يتّصفان بما ذكرنا بولدهما؟

ونقول: إن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد؛ لأن الشفقة على الولد تجري من الوالدين مجرى الدم من العروق، فإذا مرّت نائبة على الولد فإنها تصيب الأب والأُمّ قبل أن تصيب ولدهما، وهذا المعنى مجبول عليه حتى الحيوان، وليس الإنسان فقط.

وفي تشريعنا الإسلامي في آداب الذباحة ـ حيث أُبيحت لنا لحوم الحيوانات ـ أن هذه الحيوانات يكره أن تذبح أمام أبويها، ويروي المؤرّخون أكثر من حادثة في هذا الخصوص لحيوان يذبح ولده أمامه فيؤثّر ذلك فيه، حيث يروى أن ناقة ذبح طفلها أمامها ثم ذبحوها فوجدوا صدعاً في كبدها من الأثر الذي أحدثه حزنها وألمها عليه. فالحيوان ـ كما الإنسان ـ يحسّ

ويشعر؛ ولذا فإنه يستشعر الألم الذي يعتصره، كما أن عنده شفقة على طفله. ويمكن مراجعة الكتب التي تعنى بالسلوك الحيواني لكلّ الحيوانات على اختلاف مستويات إدراكاتها.

وهناك مسألة يثيرها الفسيولوجيون، وهي: هل إن إحساس الحيوان ناتج من الغريزة، أم لكمية محدودة من العقل؟ فنحن نرى حيواناً يقفز حفرة، فهل هذا التصرّف ينبع من غريزته أم أن عنده نسبة من الإدراك؟ يميل العلم إلى أن له نسبة من الإدارك، وهذا ما أثبته العلماء. وهذه النسبة من الإدراك هي التي تجعله يتألّم ويشعر بطفله؛ لذلك فإن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد؛ فالأبوان يعتزّان بالولد غاية الاعتزاز؛ فهو روحهما التي بين جنبيهما؛ وهو الرباط الذي يربط بين القلبين المتنافرين.

وهذا الأمر يتّضح أكثر من خلال الرجوع إلى المحاكم لمعرفة نسبة الطلاق التي تقع بين من لم ينجبوا أطفالاً بعدُ، حيث نجدها النسبة الأعلى بين المطلّقين؛ لأن الأبوين إذا رزقا بطفل انخفضت نسبة الطلاق بينهما؛ لأنهما سيفكّران ـ إن كانا واعيين ـ في أن الطفل سيضيع إن وقع الطلاق بينهما.

والولد ثمرة الفؤاد والريحانة، وخصوصاً الأب؛ فإنه إذا كان عنده أولاد فإنه سيعتزّ بهم ويفاخر، يروى أنه كان عمرو بن المنذر بن ماء السماء يسمى من شدّة بأسه محرّقاً، وقد اجتمعت الوفود عنده مرّة، فأخرج من لباسه بردين وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أُحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى الأُخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّه في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني.

فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ شاهدي. ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضُرب المثل بعزّه وببرديه[1].

فعامر بن أُحيمر هذا يعتزّ بأولاده ويفتخر بهم أمام الملوك، بل ويفاخرهم بهم. وهذا ليس عند العرب فقط، بل هو موجود حتى عند أبناء الحضارات الأُخرى كالحضارة الأوروبيّة، حيث كان الأوروبيّون يفتخرون بذلك.

مشروع الأسرة بين الإسلام والغرب

هذا مع أنه ربما يعترض أحد بأن هناك تحديداً للنسل فرضه العامل الاقتصادي، وفي أوروبّا نجد أن هناك عوامل أُخرى غير العامل الاقتصادي أوجبت عليهم أن يقتصروا في الإنجاب على ولد واحد. ومن جملة هذه الأُمور الحماية، حيث إن النظام الحاكم فيها يوفّر الحماية لكل أفراد الشعب، فلا يحتاج الإنسان حينئذٍ لعشيرة تحميه، أو لأولاد يدافعون عنه. فالنظام يوفّر لمواطنيه كلّ أسباب الحماية، في حين أننا نجد أن مسألة الحماية في بلادنا العربيّة وفي حضارتنا العربيّة الممتدّة إلى الآن قد تكون غير موجودة؛ حيث إن الحكّام يريدون المواطنين حماية لهم دون العكس.

فمسألة الاعتزاز بالأولاد كانت موجودة عند العرب منذ القدم، وموضع الشاهد في قصّة عامر بن أُحيمر أن الآباء يعتزّون بأولادهم ويفاخرون بهم.

---

(١) خزانة الأدب ١: ٤١٢، وقد مرّ نظيره في محاضرة (نظام تعدد الزوجات في الإسلام).

وهذا الأمر يجري حتى مع الأم أيضاً، فهناك مثلاً قصة تروى عن امرأة تعيش في مكان دُعي بعدُ باسم وادي السباع، وهو موضع بين البصرة والكويت قتل فيه الزبير، وقد سمي وادي السباع؛ لأن هذه المرأه كانت ضاربة خباءها فيها، فجاءهارجل يروم الاعتداء عليها، فكان أن نادت: ياذئب يافهد ياكلب يانمر، وكان هؤلاء أبناءها، وكان عددهم سبعة أسمتهم كلّهم على أسماء السباع، فجاؤوها يتراكضون، فهرب ذلك الرجل منهم. فسمي الوادي بوادي السباع من حينها لذلك.

فالأبناء إذن موضع اعتزاز من الأبوين وإن اعتزاز الأب بهم أكثر. وهذا ما تعكسه حضارتنا، حيث إن الولد يُدعى باسم أبيه، فيقال: (فلان بن فلان)، أمّا إذا أرادوا احتقار أحد فإنهم ينسبونه لأُمّه، كقولهم: (يابن الزرقاء). والغريب أن أحد المفسرين حينما يفسّر الآية الكريمة: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾[1] يقول: إن اللّه تعالى يأمرنا أن ندعو الأبناء لآباءهم لكن نبي اللّه عيسى عليه السلام ليس له أب؛ ولذلك فإنّ الناس يدعون يوم القيامة لأُمّهاتهم لأجل النبي عيسى عليه السلام، ويدعى الحسن والحسين باسم أُمّهما فاطمة تشريفاً لهما.

والذي يذكره هذا المفسر غير مقبول، بل الصحيح خلافه وأنه ليس كذلك؛ فإن فاطمة عليها السلام وإن كانت ابنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف الناس وأفضلهم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وذلك بنصّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله عليه حيث قال لفاطمة عليها السلام: **«زوّجتك خير الناس من بعدي»**. والإمام

---

(١) الأحزاب: ٥.

الحسين عليه السلام نفسه يرتجز ويفتخر بكونه ابن الإمام علي عليه السلام[١].

لماذا أوصى الله الأبناء بالآباء وليس العكس؟

ونرجع للموضوع فإنّ الآباء يعتزّون بالأولاد؛ إذ أن هناك ترابطاً قهرياً بينهم وبين أبنائهم. ونسأل سؤالاً ثالثاً هو: لماذا يوصي الله تعالى الأبناء بآبائهم ويشدّد في ذلك دون العكس؟

ونقول: إنّ الأمّ والأب يحنوان على الولد لرعايته وتربيته، أما الولد فليس عنده ذلك الحسّ؛ ولذلك فإن الله تعالى يوصيه بأبويه، ويذكّره بأنه إذا عقّهما فإنه سيقع في فعل الكبيرة، وسيكون جزاؤه غضب الله.

ثم إن الهدف من التوصية هو حماية الأُسرة وخلق نوع من الترابط والمودّة والرحمة فيها. ولذلك تجد أن الولد الذي ينشأ في أُسرة متوازنة ومنظمة يكون قرّة عين لأهله ويصبح ريحانة لهم.

ونحن الليلة إذ نمرّ بذكرى برعم من براعم الهاشميّين وهو علي الأكبر ابن

---

(١) فهو عليه السلام القائل:

أنا الحسينُ بنُ علي   أحمي عيالاتِ أبي
آليتُ ألّا أنثني   أمضي على دينِ النبي

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٩٧.

والقائل:

أنا الحسينُ بنُ علي بن أبي   طالبِ البدرِ بأرضِ العربِ
ألم تروا وتعلموا أن أبي   قاتلُ عمرٍو ومبيرُ مرحبِ
ولم يزل قبلَ كشوفِ الكربِ   مجلّياً ذلك عن وجه النبي
أليس من أعجبِ عُجبِ العجبِ   أن يطلبَ الأبعدُ ميراثَ النبي
واللّه قد أوصى بحفظ الأقربِ

بحار الأنوار ٧٥: ١٢٤.

الإمام الحسين عليه السلام، فلنتعرّف على مزاياه، إن هـذا الشـاب نشأ ورُبـي فـي أجواء النبوّة، وقد تأثّر الإمام الحسين عليه السلام عليه تأثّراً بالغاً حينما برز للقتال؛ ولذا فإنه عليه السلام قال: **«اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللـهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[١].

ودعاؤه عليه السلام هذا في حقيقته تعامل مع الله وليس مع قضيّة عـاطفيّة، فـهو بدافع موضوعي بحت؛ فلقد كان كرسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإنه (صلوات الله تعالى عليه وعلى آله) كان دمث الأخلاق، ولا وصف فوق وصفه تعالى له[٢]، وكان علي الأكبر عليه السلام كذلك، فقد تميّز بمزايا كانت على جـانب كـبير مـن حـيث الآداب والحياء والكرم والشجاعة.. كان عليه السلام يحمل هذه الخواصّ وذلك الوجه المشرق الطافح بالرحمة والدعة والمودّة، فإذا تكلّم فكأنما يفرغ عن منطق رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يتفجّر بذلك الإيمان بالله.. رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول لعمّه أبي طالب عليه السلام: **«والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما فعلت»**[٣].

وقف الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من المدينة إلىٰ كربلاء في أحـد الأماكن، فهوّمت عيناه، ثم انتبه وهو يقول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله**

(١) الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: «يابني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبرعليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلىٰ والذي إليه مرجع العباد». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسينعليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[1].

وهكذا كان علي الأكبرعليه السلام أنموذجاً سامياً، وعلى جانب رفيع من التربية التي أرادها رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لأهله وحباهم بها. وكان هذا سبباً في أن يأخذ مصرع علي الأكبر من الإمام الحسينعليه السلام مأخذاً عظيماً لم يأخذه منه مصرع قطّ. فقد أثر مصرعه عليه تأثيراً بالغاً، حيث إنهعليه السلام كان واقفاً يرقب المعركة، وكان كلّما سقط أحد أصحابه حمله وأبّنه ودعا له خيراً، لكن لم يذكر لنا التاريخ أنهعليه السلام في مصرع من المصارع نزل من علىٰ فرسه وتمدّد في ساحة الحرب مع الصريع إلاّ في مصرع ولده علي الأكبر. وهذه مكانة الولد التي لا تعدلها مكانة أو حالة.

وكان الأمر أنه لما أراد الأكبر النزول إلىٰ الساحة أقبل وتعلّق بثوب الحسينعليه السلام وقال: أبا عبد الله، أراك تطلب الناصر، أفتأذن لي يابن رسول الله بأن أنزل إلى القتال؟ فنظر إليه الحسينعليه السلام طويلاً ثم قال: «ادنُ مني نور عيني». فلمّا دنا منه قال له: «هل أنت مصرّ علىٰ النزول». قال: بلىٰ. فشدّ عليه سيفه ورداءه، ومدّ يديه، يقول بعض المؤرخين: «اعتنقه حتىٰ سقطا إلى الأرض». وهي عبارة تنبئ عن عظيم تأثرهعليه السلام، وهو أمر في غاية الإيلام أن

---

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

يشدّ الإمام الحسين عليه السلام ابنه إليه من عنقه ويودّعه ثم يقول: «ابرز بني، بارك الله فيك». فبرز وعينا أبيه الإمام الحسين عليه السلام لا تفارقانه، وراح يسمعه وهو يرتجز:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليْ ... نحن وبيتِ اللّهِ أولىٰ بالنبيْ
من شبث ذاك ومن شمر الدنيْ ... أضربُكم بالسيفِ حتى يرتويْ
ضربَ غلامٍ هاشميٍّ علويْ ... ولا أزالُ اليومَ أحمي عن أبيْ
واللهِ لا يحكمُ فينا ابنُ الدعيْ[1]

وكانت ليلىٰ في المخيّم (على الرواية التي تشير إلى أنها كانت موجودة في واقعة الطف مع الإمام الحسين عليه السلام)، وتتحسّس مايجري علىٰ ماولدها من خلال تعابير وجه الإمام الحسين عليه السلام، وفجأة رأت وجهه قد تغيّر، وكان قد برز إليه بكر، فقالت: أبا عبد اللّه، إني أرىٰ وجهك قد تغيّر، هل أُصيب ولدي بشيء؟ قال: «لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك». فرجعت إلى المخيم وجرّدت خمارها ورفعت إلى السماء رأسها وقالت: إلهي بصبر أبي عبد اللّه، إلهي بغربة أبي عبد اللّه، يارادّ يوسف على يعقوب اردد عليّ ولدي:

طبّت الخيمة الغريبه ... تبچي وعلىٰ ابنيها بريبه
وتوسّلت للّه بحبيبه ... بالحسين وشمابيه مصيبه
يا راد يوسف من مغيبه ... ليعگوب ومسچّن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢٦، شرح الأخبار ٣: ١٥٣، الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٢، ينابيع المودّة ٣: ٧٨.

ثم رجع إلى أبيه عليه السلام حاملاً رأس بكر، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبه العطش قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: «**يا بني يعزّ على محمد صلى الله عليه وآله وعلى علي بن أبي طالب عليه السلام وعليّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك. يا بني هات لسانك**». فأخذ لسانه ووضعه على لسان أبيه فإذا هو كالخشبة.

ثم أمره عليه السلام بالتعجيل إلى أمّه، وكأني به عليه السلام يقول له: يابني لا سبيل إلى شكوىٰ العطش، فهناك شيء أهمّ من العطش، بادر إلى الخيمة..إلى أمّك قبل أن تموت. فبادر إلى أمّه وأخذ برأسها ووضعه في حجره..نضحها بدموع عينه، ففتحت عينيها واعتنقته، لكنه خرج مرّة أُخرى وعينا الإمام الحسين عليه السلام تلاحقانه، ودعاؤه له يرافقه: «**ارجع إلى قتال عدوّك، فإني أرجو أنك لا تمسي حتى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً**». فنزل إلى الساحة وهو يرتجز:

الحربُ قد بانت لها الحقائقْ　　وظهرت من بعدِها مصادقْ
واللهِ ربِّ العرشِ لا نفارقْ　　جموعَكم أو تغمدَ البوارقْ(١)

وراح يذود الخيل ويصدّ بصدره كتائب القوم إلى أن سقط على الأرض، ففوجئ الإمام الحسين عليه السلام بالصوت: عليك مني السلام أبا عبد الله. أقبل إليه إلى أن وصل إلى مصرعه..ألقىٰ بنفسه عليه وأخذ برأسه ووضعه في حجره:

فجثا وأقنع للسماء بشيبة　　مغمورة بمدامعٍ ودماءِ

---

(١) العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ٢٨٦.

يا عَدلُ قد قتلوا شبيه محمد أنزلْ بساحتهم عظيمَ بلاءِ

حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يحمله ـ وهو أوّل قتيل من الهاشميّين ـ فلم يستطع. فالتفت إلىٰ فتيانه من الهاشميّين وأمرهم بحمله قائلاً: **«احملوا اخاكم والله لاطاقة لي علىٰ حمله»**. فحملوه إلى المخيم، ورجلاه تخطّان الأرض والإمام الحسين عليه السلام وراءهم، حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه(١). فلما وصل إلى الخيمة جلس عنده، وجاءت أُمه فوقعت عليه تحتضنه:

بنيَّ اقتطعتُك من مهجتي علامَ اقتطعتَ جميلَ الوصالِ

* * *

وما أمُّ خشفٍ أدركتْه على ظما وخوف حبالات نَأَتْ بالفلا ذُعرا

بأوجدَ منها حين للسبط عاينت ومنه أديمُ الوجه حزناً قد اصفرَّا

---

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٠.

﴿١٠٢﴾

الجوانب الروحيّة للصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: آيات الأحكام

هذه الآية الكريمة من آيات الأحكام، أي من الآيات التي تشتمل علىٰ التكاليف، وهنا مسائل:

الأولىٰ: المقصود من الصلاة وكيف أنها من وسائل الكمال

إن المقصود من الصلاة المذكورة في الآيـة الكـريمة بـإجماع المـذاهب الإسلامية هي الصلاة الواجبة، لكن ما الذي تعنيه إقامة الصلاة التي أمرنا الله عزّ وجلّ بها؟ إن للمفسّرين عدّة آراء حول تفسير هـذه الإقـامة، والمـعنىٰ المقصود بها:

الرأي الأوّل: أنها الإدامة

فـ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾: أدمها، أي داوم علىٰ أداء الصلاة؛ لأن النـقص مـلازم

(١) هود: ١١٤.

للإنسان دائماً. واللّه سبحانه وتعالىٰ حينما خلق الإنسان خلقه ناقصاً ولم يهبه الكمال، والصلاة وسيلة من وسائل تكميل العبد في الحدود المستطاعة. لكن كيف يتم ذلك؟ إن الإنسان باعتباره عبداً لابد أن يشعر بالعبودية، والشعور بالعبودية دائماً ذل إلّا الشعور بالعبودية للّه تعالىٰ فهي عزّة وكرامة، يقول أمير المؤمنين ﷺ: **«إلهي كفاني عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً. أنت كما أُحب فاجعلني كما تحبّ»**(١).

فالعبودية للّه تختلف عن العبوديات الأُخرىٰ بلحاظ هذه الجهة، مرّ الإمام الكاظم ﷺ علىٰ بشر الحافي المعروف بالزهد قبل أن يزهد في الدنيا فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي الطرب، وكان أن خرجت جارية له من الدار وبيدها فضلات الطعام والشراب ممّا خلّفه هؤلاء السكارىٰ، فسألها الإمام ﷺ: **«لمن هذه الدار؟»**. قالت: لسيدي. قال: **«سيدك حرّ أم عبد؟»**. قالت: بل حرّ. قال: **«صدقت لو كان عبداً للّه لاستحىٰ من اللّه»**(٢).

أي أن هذا لم يكن يشعر بعبوديته للّه، فالعبودية للّه عزّ وجلّ منزلة تستلزم تحرير الوجدان البشري تحريراً مطلقاً وتخليصه من عبودية الرذيلة والغرائز والخضوع إلىٰ العبوديات الاجتماعية.

والصلاة وسيلة من وسائل تحرير العبد وتكميله، لكن ما الذي يعنيه الدوام عليها؟ الدوام عليها هو الأُنموذج الذي يحتذىٰ فيها، والذي يعطي الإنسان شحنة كمال دائماً، أي يملأ الفراغ والنقص عنده، ويشعره دائماً بأن هذا

---

(١) الخصال: ٤٢٠، كنزالفوائد ١٨١، معدن الجواهر: ٦٧ تفسير الثعالبي ١: ٥٣٣، سبل الهدى والرشاد ١١: ٣٠١.

(٢) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

النقص الموجود عنده يعالج ويداوىٰ بالعبودية المطلقة للّه تعالىٰ عن طريق الصلاة؛ لأن الصلاة ستكمل النقص عند الإنسان. فعندما يعبد اللّه عزّ وجلّ فإنه إنما يملأ في حياته الثغرات كافة. فنحن لا نعتبر الصلاة مجرد تكليف جامد أو سلسلة نعلقها علىٰ رقابنا. بل إن الصلاة في نظرنا وسيلة تهذّب الإنسان وتحرره من النقائص.

الرأي الثاني: إقامتها بشروطها

وعلىٰ هذا فإن معنى ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾: ايتِ بها بشروطها الصحيحة. وهذه الشروط منشأ اختلاف بين المذاهب الإسلامية. فعندنا ـ نحن الإمامية ـ مثلاً أن من يريد أن يصلي فيجب عليه أن يتوضأ بأن يأخذ الماء ويسبغه من المرفق إلىٰ أطراف أصابع اليد. أما عند المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ فيجوز ذلك العكس. وهذا يعتمد علىٰ التقليد طبعاً. ونحن هنا لا نستطيع أن نقول لهذا المكلف: أنت مخطئ لأنه عامّي والعامي لا يعرف تفسير الآية الفلانية. فهذه من اختصاص العلماء والفقهاء، فهو إذن قاصر عن فعل ذلك ولا تقع التبعة كلها عليه.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرىٰ إنّ علىٰ الإنسان المكلف أن يبحث عن الرأي الصحيح. ولا ننسَ أن نذكّر بأن معظم المسلمين الآن ـ مهما اختلفت مذاهبهم ـ يتمذهبون بمذاهب آبائهم. وبعبارة أُخرىٰ أنك ولدت في بلد شيعي واسم أبيك علي واسم أُمّك فاطمة. فكنت بهذا شيعيّاً. وبالمقابل فإنّ غيرك حينما ولد في بلد سني ويجد اسم أبيه مثلاً أبا عبيدة. واسم أُمّه أسماء فإنه سيصبح سنيّاً علىٰ مذهب أبيه. لكنْ كلاكما لم يكلّف نفسه بأن يقصد دور الكتب ليبحث عن أن هذه الآراء التي هو عليها هل هي صحيحة أم لا.

وكذلك آراء مخالفيه، فيثبتها أو ينفيها بالدليل القاطع لا بالتحكّم أو الحجّة الواهية والدليل غير الناهض.

وهؤلاء يلقون تبعة كل هذا علىٰ رجل الدين أو من يحمل شعار الدين، ورجل الدين من وجهة نظر هؤلاء أشبه بمحرّك القاطرة. فالمحرك هو الذي يجر العربات وراءه وكذلك يراد من الفقيه هنا.

كما أن المفروض بالمسلم ألّا يخضع إسلامه لمذهبه، فالمذهب وسيلة للوصول إلىٰ الإسلام؛ فمن يتمذهب بمذهب أبي حنيفة أو بمذهب ابن حنبل أو بمذهب جعفر الصادق﵇ فإنما يريد أن يصل إلى الإسلام عبر مذهبه. لكن ينبغي أن يكون تفضيل مذهب علىٰ آخر وفق الدليل الصحيح، فمثلاً نحن حينما نفضل الإمام علياً﵇ علىٰ غيره فلأننا نشترط في الإمام العصمة، وعندما نشترط العصمة فإنما نقول بها عن دليل لا يمكن أن يتطرق إليه الخلل. والنتيجة هي التي ستكون طريقي إلىٰ الإسلام.

وإذا كان الأمر بهذا الشكل ـ أي قائماً علىٰ الدليل ـ فلا يمكن حينئذٍ أن يُلقىٰ اللوم علىٰ المذاهب الأُخرىٰ أو على من يتبعونها ويقال لهم: وضوؤكم باطل، أو غير ذلك.

فيجب علىٰ العلماء إذن أن يناقشوا هذه المسائل حتىٰ يصلوا إلىٰ الدليل المقنع القاطع. كما أنه يجب أن يكون لدينا لون من الموضوعية ومن المعرفة الواقعية لتكاليف الناس؛ حتىٰ لا نحكم علىٰ مسلم بالشرك؛ لأنه يخالفنا في فرع من الفروع.

وعليه فعندما تقول لي: أدِّ الصلاة بشرائطها، فالواجب حينئذٍ علىٰ العلماء أنفسهم أن يناقشوا هذه الشرائط ويصلوا إلىٰ النتيجة الحقيقية والرأي

الصحيح. والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ فإنما يريد أن يقول: أقمها بقدر استطاعتك: **«إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه بما تستطيعون»**[١]، فـ﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفساً إلا وُسْعَهَا﴾[٢]، ولكن يؤتىٰ منه قدر الإمكان[٣]؛ لأن هذا أمانة في عنق كل فقيه حيث إنه يجب أن ينتخب الطريق الصحيح، ويذهب وراء الدليل الصحيح.

الرأي الثالث: مراعاة الكيفية فيها

فـ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ تعني: ايت بها مستوياً في كيفيّتها، أمّا كيف يكون الاستواء في الكيفية فهذه مشكلة عويصة؛ لأن الإنسان له مع صلاته حالتان:

الحالة الأولىٰ: أن يأتي إلىٰ الصلاة ولديه إقبال عليها، بحيث إنه تمر عليه لحظات صفاء فيصلّي كما هي حالته وعندما يفرغ منها يحسّ بأنه قد ارتوىٰ؛ لأنه كان مقبلاً علىٰ اللّه بنفسه وجوارحه: **«ليس لعبد من صلاته إلّا ما أقبل عليها»**[٤].

الحالة الثانية: أن يسيطر الشيطان عليه فتذهب به الأفكار وتأتي، وذلك

---

(١) منتهى المطلب ٣: ٢٠، عوالي اللآلي ٤: ٥٨ / ٢٠٥، مسند أحمد ٢: ٣١٤، ٤٢٨، ٤٤٨، ٤٦٧، ٥٠٨.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لا يترك الميسور بالمعسور». عوالي اللآلي ٤: ٥٨ / ٢٠٦، وقال ﷺ: «ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه». عوالي اللآلي ٤: ٥٨ / ٢٠٧.

(٤) في الحديث الشريف: «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يُرفع له إلّا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها». الكافي ٣: ٣٦٤ / ١، الفقيه ١: ٢٠٩ / ٦٣٢.

وفي رواية أُخرى: «من صلى فأقبل على صلاته لم يُحدّث نفسه فيها أو لم يسهَ فيها، أقبل الله عليه ما أقبل عليها، فربما رُفع نصفها أو ربعها أو ثلثها أو خمسها. وإنما أمرنا بالسنة ليكمل بها ما ذهب من المكتوبة». الكافي ٣: ٣٦٤ / ٢.

حينما يقع في مشكلة ما مثلاً، فحينما يقترب من المحراب ويصلي فإنما يؤديها بالألفاظ فقط ومن دون توجّه. إذ لا يستطيع الإنسان أن يؤدي الصلاة علىٰ مستوىٰ واحد، ويكون لديه حضور ذهني دائماً، فهذا طبعاً يبقىٰ في حدود الاستطاعة. وإنني أؤكد لك أنه إذا لم يرحمنا اللّه عزّ وجلّ فإن موقفنا سيكون صعباً للغاية أمامه.

ولو تتبعنا سيرة أيمّتنا لوجدنا أن أحدهم إذا وقف في المحراب وتوجه إلىٰ اللّه تعالىٰ وصلّىٰ فإنه ينسىٰ كل شيء إلّا اللّه تعالىٰ، ويكون كل توجهه وكيانه إلىٰ اللّه، فيذهب في هذا العالم ويذوب في ذاته تعالىٰ.

والمحراب إنما سمي محراباً لأنه منزل حرب بين الغرائز وبين العقل والدين.. بين الغريزة وبين الشعيرة الدينية.. حرب بين الشيطان وبين الاتجاه إلىٰ اللّه تعالىٰ. وهذه الحرب تجري أحداثها ووقائعها في هذه البقعة من المسجد. فحينما يقول الفقيه: أدِّ الصلاة علىٰ استواء في كيفيتها فإن هذا ليس بالأمر الهيّن أو السهل؛ لأن هناك أشياء يجب أن نكون واقعيين فيها. اذكر أنني قلت يوماً لاستاذنا السيد الخوئي (تغمده اللّه في واسع رحمته): سيدنا، أنت تشترط أن يجعل المصلّي منكبه الأيسر دائماً متوجهاً إلىٰ الكعبة لا يميله لا إلىٰ يمين ولا إلىٰ شمال، فكيف نفعل ذلك في هذا الزحام الشديد؟ فضحك السيد (رحمة اللّه عليه) وقال: قدر الإمكان.

أي أن الواقع هو قدر الإمكان، وكذلك هنا؛ فعندما يصلي المصلّي فيجب أن يتوجه وينسىٰ كل همومه قدر الإمكان، وأن يتوجه إلىٰ اللّه سبحانه وتعالىٰ بكامل كيانه وكل وجوده، وأن يستعيذ من الشيطان الرجيم ويستلهم رحمة اللّه في أن يسدده والباقي عليه تعالىٰ؛ لأن ساحته أوسع وأكبر.

المبحث الثاني: في تحديد وقت الأداء

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾، وهي هنا في معرض تحديد وقت الأداء الذي تقع فيه الصلاة، والمقصود بـ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾: الفترة المحصورة بين طلوع الشمس وسقوط قرصها (غروبها). فهذه الحصة من الوقت تسمىٰ بالنهار، وطرفها الأوّل هو الصباح (الغدو)، والطرف الثاني هو العصر، وهو ما قبل غروب الشمس. وهذه الآية صريحة في أن أوقات الصلاة في النهار هي الصبح والظهر والعصر.

المبحث الثالث: إشكالية الجمع بين الصلاتين

ثمّ قالت: ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾، والمراد منه هو الوقت المقارب للنهار.

وهنا يسأل البعض: هل هناك روايات أو آيات أُخرىٰ تحدد هذه المعنىٰ؟ ولماذا تجمعون بين الصلاتين؟ مع أن القرآن الكريم حدّد أوقات الصلاة بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1]؟

والجواب: أن الروايات صريحة في هذا المعنىٰ، ومسألة الجمع بين الصلاتين بدون عذر في الحضر وفي السفر مما تسالم عليه المسلمون علىٰ الإجمال ـ يعني ليس عندنا فقط ـ فهناك مثلاً كتاب ألّفه خصيصاً لهذا الفرض أحد علماء أهل السنة، واسمه (إزالة الحظر عمّن جمع بين الصلاتين في الحضر)[2]، وهو أحمد الصديق الغماري، يذكر فيه آراء علماء المذاهب

---

(١) الإسراء: ٧٨.

(٢) عنه في الفقه على المذاهب الخمسة ١: ١٤١ / التعليقة: ٢ للمؤلّف.

الإسلامية، وهناك كتاب آخر مذكور في (المسائل الفقهية) للسيد عبد الحسين شرف الدين، يذكر أدلة الجمع بين الصلاتين، وكذلك اقرأ (فقه الإمام الصادق عليه السلام)[1] للمرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية (تغمّده اللّه برحمته)، حيث يذكر فيه آراء علماء المذاهب في الجمع بين الصلاتين، حيث إن شريحة كبيرة من علماء المذاهب الإسلامية لهم آراء واضحة في أدلتها تذهب إلىٰ جواز الجمع بينهما من غير عذر.

والآية الكريمة صريحة بهذا المعنىٰ، وكان رسول اللّه ﷺ يجمع بدون عذر، وأئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا كذلك يجمعون، ورأي أهل البيت عليهم السلام هو رأي القرآن.

سئل عبد اللّه بن عباس (رضوان اللّه عليه) ذات مرّة: لماذا يجمع رسول اللّه ﷺ بدون عذر؟ فقال: أراد ألّا يحرج أُمّته[2].

فبرودة الشتاء مثلاً أو حرارة الصيف وأعمال الناس التي يزاولونها ربما تحول دون الإتيان بها كما أمر اللّه تعالىٰ فيما لو فرقوا؛ فصلاة الصبح يأتي بها المكلّف في بيته، أمّا الظهر أو المغرب فربما جاء متعباً مرهقاً ومنهكاً من العمل فربما صلىٰ الظهر وتكاسل عن العصر أو ربما صلىٰ المغرب وتكاسل عن العشاء. فالجمع أولىٰ به من هذه الجنبة؛ فالجمع هنا يكون درءاً للحرج علىٰ الأُمّة. واللّه تعالىٰ يُحب أن يُؤخذ برخصهِ كما يحب أن يؤخذ بعزائمه؛

---

(١) الفقه على المذاهب الخمسة ١: ١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) علل الشرائع ٢: ٣٢١ / ٤، مسند أحمد ١: ٢٢٣، ٣٤٦، ٣٥٤، صحيح مسلم ٢: ١٥٢، سنن أبي داود ١: ٢٧٠ ـ ٢٧١ / ١٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ١٢١ / ١٨٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٣: ١٤٥، ١٦٧. وفي المضمون نفسه انظر: مسند أحمد ٥: ٢٠٢، صحيح مسلم ٤: ٧٥، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٢٦٠.

لأن الرخصة كرم وكرم اللّه تعالىٰ لا يُرد.

إذن جواز الجمع موجود عند الكل، أما الاختلاف الموجود فهو الاختلاف عن الإسلام وليس في الإسلام، أي الاختلاف عن الدليل.

وعليه فإنه الآية الكريمة عندما تقول: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ فإنها تعني أن الظهر والعصر يمكن الجمع بينهما في الوقت المحدد، ومن بعد ذلك يأتي ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾، أي أوقاتاً متقاربة وقريبة إلىٰ النهار، والتي هي عبارة عن المغرب والعشاء. إن هذا التأكيد علىٰ الصلاة ناشئ من كون الصلاة عبارة عن الصلة بين الرب وعبده، وهي هوية المسلم؛ حيث يأتي العبد يوم القيامة فيسأل أوّل ما يسأل عنه، عن صلاته؛ فإن جاء بها، وإلّا ضربت أعماله عرض الحائط(١).

---

(١) وردت أحاديث كثيرة في الحثّ على الصلاة والتأكيد عليها، منها أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود يثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب». المحاسن ١: ٤٤ / ٦٠.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأوصيكم... بالصلاة التي هي عمود الدين وقوام الإسلام فلا تغفلوا عنها». دعائم الإسلام ٢: ٣٥٠.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الصلاة عماد الدين». وقال: «الصلاة عمود الدين». وقال: «الصلاة عماد الإيمان». الجامع الصغير ٢: ١٢٠ / ٥١٨٥ ـ ٥١٨٧.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم؛ فإن صحّت نظر في عمله، وإن لم تصحّ لم ينظر في بقيّة عمله». تهذيب الأحكام ٢: ٢٣٧ / ٩٣٦.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أُوصيكم بالصلاة التي هي عمود الدين وقوام الإسلام، فلا تغفلوا عنها». دعائم الإسلام ١: ١٣٣.

وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلاة عمود الدين، وهي أول ما ينظر الله فيه من عمل ابن آدم، فإن صحّت نظر في باقي عمله، وإن لم تصحّ لم ينظر له في عمل. ولا حظّ في الإسلام لمن ترك

المبحث الرابع: نظرية الإحباط وبطلانها

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـئَاتِ﴾، وهنا نذكر في المقام نظرية التحابط أو الإحباط، وهي نظرية يذهب إليها المعتزلة، وجماعة من غير المعتزلة أما عندنا وعند الأشاعرة فهي نظرية باطلة. لكن ما هو التحابط؟ إن هذه النظرية تعني رفع العمل، فمثلاً لو أن رجلاً قضىٰ عمره كلّه مصلّياً صائماً وذهب إلىٰ الحجّ، وأدّىٰ واجباته كلّها لكنه في آخر عمره شرب الخمر، فإنه هذا الخمر يمسح جميع حسناته وأعماله من سجل أعماله من أوّل عمره إلى آخره.

هذا هو معنىٰ الإحباط عند المعتزلة، أما عندنا فإن الإحباط ليس بهذا المعنىٰ، بل هو بمعنىٰ الدفع، أي لو أن رجلاً قضىٰ عمره مؤمناً متقياً للّه عزّ وجلّ، مصلياً ومؤدياً تكاليفه لكنه في آخر عمره ـ والعياذ باللّه ـ كانت عاقبته السوءى، ففي مثل هذه الحالة ما أمر ذلك العمل؟ إن ذلك العمل لا يقال عنه: إنه رفع؛ لأن الذي يقع لا يرفع، لكن هذا الارتداد سوف يكشف عن أن عمله الأوّل غير صحيح.

فهذه الأعمال توزن يوم القيامة، والذي يرجح يؤخذ به، فإذا رجحت السيئات علىٰ الحسنات فكأنما الحسنات لم تعمل به وإذا رجحت الحسنات علىٰ السيئات فكأنما السيئات لم تعمل به، وإذا تساوت تساقط منه كل شيء إلّا أن تدركه الرحمة.

فمعنىٰ ﴿الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـئَاتِ﴾ هو الذي ذكرناه، أي أن الحسنات إذا

☚ الصلاة». دعائم الإسلام ١: ١٣٣.

صارت أكثر من السيئات فإنها تمحوها.

نوع اللام في قوله تعالىٰ: ﴿الحَسَنَاتِ﴾

لكن ما هو نوع الألف واللام في ﴿الحَسَنَاتِ﴾؟ وهل هي للعهد، أم للجنس؟ هناك خلاف بين المفسّرين حول هذا الأمر، وهم فيه علىٰ رأيين:

الرأي الأوّل: أنها للعهد

وهذا معناه أن هذه الصلوات التي صلّيتها ـ الصلوات الخمسة ـ هي الحسنات التي تذهب السيئات. لكن كيف تذهب الحسنات السيئات؟ سوف أنقل بعض الروايات لأُقرب لك المعنىٰ، فعن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزّه حتى تحاتّ ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ فقال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ، وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزّه حتى تحاتّ ورقه، فقال: «**يا سلمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟**». فقلت: ولم تفعله؟ قال: «**إن المسلم إذا توضّأ فأحسن الوضوء، ثم صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق. قال الله تعالىٰ: ﴿أقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلكَ ذِكرىٰ لِلذَّاكِرِيْنَ﴾...**»[١].

إذن الصلاة مطهرة للإنسان، وكل فرض يطهّر ما بينه وبين الفرض الذي يليه. هذا بناء علىٰ أن المقصود باللام في ﴿الحَسَنَاتِ﴾ هي اللام التي للعهد، أي أن المقصود بها هو الصلوات الخمس المعهودة في ذهن الإنسان،

---

(١) مجمع البيان ٥: ٣٤٥، بحار الأنوار ٧٩: ٣١٩، مسند أحمد ٥: ٤٣٧، جامع البيان، المجلد: ٧ ج ١٢: ١٧٧.

والروايات المذكورة في الباب ـ ومنها ما ذكرنا ـ كلها قرائن مساعدة علىٰ إرادة هذا المعنىٰ، وهو أن المقصود بالحسنات في الآية هي الصلوات الخمس التي يصليها الإنسان. وفي هذا المضمون روايات كثيرة(١).

الرأي الثاني: أنها للجنس

ويكون المقصود هنا جنس الصلاة أو جنس الحسنات، فالفقهاء أو العلماء لم يضعوا تعريفاً شرعياً للحسنة، ولم يخصّصوا لها اصطلاحاً. فالمشرّع يتبع فيها العرف العام، فلو سألت أحداً: ما هي الحسنة؟ لأجابك بأنها من مثل ما لو أطعم أحد جائعاً، أو كسا عرياناً أو تصدق بصدقة، أو برّ والديه أو قضى حاجة مسلم.

إذن فالمرجع في هذا هو العرف. لكن يبقىٰ عندنا أن نشير إلىٰ أن لدينا دليلين حول المسألة: الدليل العقلي، والدليل الشرعي. فالحسنات لا تقتصر فقط علىٰ الصلاة دون غيرها، بل هي تشمل كل عمل حسن، وكل ما يرضي اللّه تعالىٰ فهو حسنة كبرّ الوالدين ورعاية العيال، وإطعام الإنسان لأهله. فهذه كلها أعمال مبرورة عند اللّه تعالىٰ، وتعتبر هذه كلها حسنات؛ ولذلك كان الرسول ﷺ يمدح من كان يقوم بمثل هذه الأعمال، كما ورد في كثير من الروايات ومنها ما روي من أنه بعث رسول الله ﷺ في غزوة الخبط أبا عبيدة في سرية فيها من المهاجرين والأنصار ثلاثمئة رجل إلى حي من

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الصلاة فيكم كمثل السري على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل منه خمس مرّات. فلم يبقَ الدرن مع الغسل خمس مرّات، ولم تبقَ الذنوب مع الصلاة خمس مرّات». الفقيه ١: ٢١١ / ٦٤٠، مسند أحمد ٢: ٤٢٦، ٤٤١، ٣: ٣١٧. والسري: النهر.

جهينة، فأصابهم جوع شديد، فقال قيس بن سعد: من يشتري مني تمراً بجُزُر؛ يوفّيني الجُزُر هاهنا وأُوّفيه التمر بالمدينة؟ فقال عمر: واعجباه لهذا الغلام، لا مال له ويدين في مال لغيره!

فوجد قيس رجلاً من جهينة فقال له: بعني جزراً وأُوفّيك حقّه أوسقة من تمر بالمدينة. فقال الجهني: والله ما أعرفك فمن أنت؟ قال: أنا ابن سعد بن عبادة. فقال الجهني: ما أعرفني بنسبك! أما إن بيني وبين سعد سيد أهل يثرب خلة.

فابتاع منه خمسة جُزُر كلّ جزور بوسق من تمر، واشترط عليه البدوي أن يوفّيه من بساتين لهم حدّدها له، فقال قيس: نعم. قال: فأشهد لي. فأشهد له نفراً من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين، قال قيس: أشهد من تحب. فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب، فقال عمر: لا أشهد؛ فهذا يدان ولا مال له، إنما المال لأبيه. فقال الجهني: والله ما كان قيس ليخني بابنه في أوسقة من تمر، وأرى وجهاً حسناً وفعالاً شريفاً.

فأخذ قيس الجزر فنحر لهم كل يوم جزوراً، فلمّا كان اليوم الرابع نهاه أبو عبيدة وعمر وقالا له: عزمنا عليك ألّا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟ فقال قيس: يا أبا عبيدة: أترى أبي يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، ولا يقضي عني أوسقة من تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله؟ فكاد أبو عبيدة يلين له، وجعل عمر يقول: امنعه. فمنعه أبو عبيدة وأبى أن ينحر لهم بعد ذلك.

وكان أن بقيت جزوران، فقدم بهما قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليهما، وبلغ سعداً ما أصاب القوم من المجاعة، فقال: إن يكُ قيس كما أعرف

فسينحر للقوم. فلمّا قدم قيس لقيه سعد، فقال: ما صنعت في مجاعة القوم؟ قال: نحرت ثلاثاً ثم نهيت. قال: أصبت، فمن نهاك؟ قال أبو عبيدة. قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي، وأن المال لك، فقلت: أبي يقضي عن الأباعد ويحمل الكلّ ويطعم في المجاعة، ولا يصنع هذا بي؟ قال: فلك أربع حوائط أدناها حائط منه تجذ خمسين وسقاً. قال وقدم البدوي مع قيس فأوفاه أوسقته، وحمله وكساه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **«إنه في قلب بيت جود»**[1].

إذن فإطعام الطعام حسنة يثيب اللّه عليها فاعلها، وقيس بن سعد أُنموذج مشرّف يجب أن يحتذىٰ، وهو من محبّي الإمام أمير المؤمنين (سلام اللّه عليه)، والكلمات تعجز عن أداء حقّه؛ فقد كان ذا فتوّة وبطولة وصدق ووفاء وإيمان لا حدود لها.

ولقيس هذا موقف مشرّف مع معاوية وذلك حينما أراد أن يحجّ، فجعل طريقه علىٰ المدينة، وجاء إلىٰ الجرف ـ المعسكر الذي كانوا يعسكرون به ـ وعندما شارفها دخل جماعة إليها يهيّئون الناس لاستقباله.

وكان عند الأنصار حساسية تجاه الأُمويين، وتحكم علاقتهم بهم حالات من التوتّر؛ فهم لا يستطيعون أن ينسوا مواقف الأُمويين المشينة منهم، فقد قطعوا عنهم حتىٰ عطاء أطفالهم[2]، فجاؤوا إلىٰ قيس وقالوا له: لا بدّ أن تخرج لاستقبال الخليفة، فأبىٰ أن يخرج معهم، فأُجبر علىٰ ذلك، فخرج، فلمّا رآه معاوية وقد أتىٰ وحده استقبله، وكان عمرو بن العاص واقفاً إلىٰ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٩: ٤١١ ـ ٤١٣، ٤١٥.

(٢) انظر محاضرة (روح التسامح في الدين الإسلامي) من هذا المجلد.

جانب معاوية، وقال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ليس عندهم رواحل. فقال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يريد أنهم فلّاحون، والناضح: البعير الذي يستقى به[١])، فقال سعد: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً.

فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: دعه، فإنه امرؤ إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[٢].

فقيس هذا كان نموذجاً عجيباً، فقد كانت وقفته مع الإمام الحسن عليه السلام معروفة، حتىٰ إن معاوية لم يستطيع أن يأخذ البيعة منه لنفسه[٣]. ومما يروىٰ أنه قال لمعاوية: أني حلفت ألّا يقع بيني وبينك لقاء إلّا ويكون بيني وبينك الرمح والسيف. فقال معاوية: أنا أبرّ يمينك وأضع بيني وبينك الرمح والسيف. فأبىٰ وأراد قتال معاوية، لكن الإمام الحسن عليه السلام عزم عليه ألّا يفعل؛ لأن هذه الدماء سوف تذهب هدراً، وهي مما يجب أن يُحفظ، فترك القتال[٤].

---

(١) لسان العرب ١٤: ١٧٤ ـ نضح.

(٢) قريب منه في مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥.

(٣) قال ابن أبي الحديد: قال أبو الفرج: وقد روي أن الإمام الحسن عليه السلام لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس، وأبى أن يبايع، فلمّا بايع الإمام الحسن عليه السلام أُدخل قيس ليبايع، فأقبل على الحسن عليه السلام، فقال: أفي حلّ أنا من بيعتك؟ فقال عليه السلام: «نعم». فأُلقي له كرسي، وجلس معاوية على سرير والحسن عليه السلام معه، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه، ولم يمدّها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكبّ على قيس حتى مسح يده على يده، وما رفع إليه قيس يده. شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٨.

(٤) الغدير ٢: ١٠٤، وقريب منه في شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٣.

وعلىٰ أية حال فإن قيساً كان رجلاً ملء النفس، وموقفه هذا سُرّ به الرسول ﷺ وأثنىٰ عليه.

إذن الحسنات هي كل عمل يؤدّي إلىٰ رضوان اللّه تعالىٰ، وكل ما يؤدّي إلىٰ نفع الناس فهو حسنة. وهكذا فإن الحسنات يذهبن السيئات، والحسنة مهما كان نوعها فهي مما يصب في خانة رضوان اللّه وخانة نفع الناس.

لكن أي الحسنات أفضل؟ فإن من السهل علىٰ بعض الناس أن يدفع كمية من المال، ولكن ليس سهلاً عليه أن يُجرح في سبيل اللّه، ومن السهل علىٰ الإنسان أن يقوم بموقف كرم أو جود، لكن ليس من السهل عليه أن يقدم فلذة من أفلاذ كبده ويضحي به عطاء خالصاً لوجه اللّه، فأي حسنة أعظم من هذا العطاء؟ هذا العطاء الذي لا حدود له.. وقف أبو الشهداء ﷺ يوم عاشوراء أوّل نزوله إلىٰ الساحة ورفع رأسه إلىٰ السماء وقال: **«اللهم إني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر»**(١). وفعلاً لم يدع صغيراً ولا كبير إلّا قدمه في سبيل اللّه، وهكذا كانوا أضاحي:

يوحدُهم دربُ الفداءِ فيستوي   بهم طاعنٌ في سنّه ورضيعُ

وقف ﷺ يقدم الضحية تلو الضحية مبتدئاً بالأولاد ثمّ ختمهم برضيع حتىٰ أصبحت البيوت منهم خالية. وعندما رجعت عائلة الحسين ﷺ إلىٰ المدينة كانت كلّما مرّت علىٰ بيت من بيوت الهاشمين وجدته خالياً إلّا من الأرامل واليتامىٰ، تتعالىٰ أصواتهم بالنحيب. ولعل من أشجىٰ البيوت بيوت آل علي ﷺ سيّما بيت أبي الفضل العباس وإخوته.. بيت أم البنين.. هذه المرأة

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

التي كانت بعد واقعة الطف تخنقها العبرة، فتخرج من دارها تحمل طفل أبي الفضل العباس وتقف خارج المدينة وتندب أولادها بأشجىٰ ندبة:

لا تــدعونّي ويكَ أمّ البــنينْ ... تــذكّريني بــليوثِ العــرينْ
كــانت بــنون ليَ أدعــىٰ بـهم ... واليوم أصبحت ولا من بـنينْ
أربــعة مــثل نسـور الربـىٰ ... قد عالجوا الموت بقطع الوتـينْ
يــا ليت شعري أكما أخبروا ... بأن عــباساً قــطيع اليـمنْ[1]

ثمّ ترجع إلىٰ البيت، وتقول لجاريتها: قفي علىٰ البيت ولا تـدعي أحـداً يدخل علينا، واتركيني والعلويات، ثمّ تروح تـجول داخـل الدار. وكـذلك فعلت زينب حيث أوقفت الجارية علىٰ باب الدار وقالت لها: لا تدعي أحداً يدخل علينا. وبينما هي كذلك وإذا بالباب تضرب وعرفت الجارية من علىٰ الباب، فذهبت إلىٰ زينب عليها السلام وقالت لها: سيدتي إن أُم البـنين عـلىٰ البـاب. فقالت لها: ويحك افتحي لها فهي شريكتنا في العزاء. فدخلت أُمّ البنين، ولما وقع بصرها علىٰ زينب صاحت: واولداه وا حسيناه. فأجابتها زينب: وا أخاه وا عباساه:

صــاحت صــوت يــا فكَد الاطـياب ... واللّــه شــموع يــا دار الاحــباب
هناك وتسمع الصرخه علىٰ البـاب ... أنــا ام عــباس جــيتچ لا تـفترين
بــچت زيــنب وصــاحت تــلكَنها ... بــاللّه ويــاي كــومن ســاعدنها
هــاي أم البــنين الراح مــنها ... أولاد اربــعه خــوتي المــيامين

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

﴿١٠٣﴾

المؤمن والاختبار الإلهي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: خصوصيّات الليلة العاشرة من المحرّم

كان لهذه الليلة (الليلة العاشرة من المحرّم) خصوصيّة عند الإمام الحسينعليه السلام ؛ فقد كان يكثر من قراءة هذه الآية الكريمة فيها. وفي قراءته لها معنىً هو أن في حياة الإنسان نِقاطاً فاصلة بين الخير والشرّ، حيث يكون في منطقة اختيار؛ فإمّا أن يذهب إلى جانب الحقّ أو إلى جانب الباطل. ونحن سنستعرض محتويات هذه الليلة؛ لنعرف مدى هذه الخصوصيّة عندهعليه السلام:

الأولى: قراءة هذه الآية الكريمة

فالإمام الحسينعليه السلام أراد من خلال هذه الآية الكريمة أن يذكّر معسكر

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

يزيد بن معاوية بأن هذه اللحظات هي لحظات حاسمة في حياته وتاريخه ووجوده؛ فهو إما أن يكون بجانب الحقّ أو بجانب الباطل؛ لأنه سيكون هناك تمايز وتفضيل من قبل اللّه سبحانه وتعالى للبشر على ضوء مواقفهم. مع أن البعض يقول: إن هذا المعسكر هو معسكر عبيد اللّه بن زياد وليس معسكر يزيد؛ فيزيد لم يرضَ بقتل الإمام الحسين عليه السلام(١).

وهذه ليست أول بادرة تزوير في التاريخ؛ فالتاريخ كان ولا زال عرضة للتزوير، غير أن المحقّقين من أبناء المذاهب الإسلاميّة كافّة يلقون بتبعة الأمر وبالمسؤوليّة على يزيد نفسه.

لكن ما الذي حدث بعد قراءة هذه الآية الكريمة؟ لعل تأثير قراءة هذه الآية الكريمة كان واضحاً وكبيراً، فالذي حدث أنه التحق (٣٢) جنديّاً من معسكر يزيد بمعسكر الإمام الحسين عليه السلام ليلتها، حيث تسلّلوا واحداً بعد الآخر. وكان من المتوقع أن يلتفّ الناس حول الإمام الحسين عليه السلام بشكل أكبر؛ لأن ظلم بني أُميّة وجورهم وصلا إلى درجة أن النفوس معها تشبّعت بالألم، فهذا أحد الشعراء يخاطبهم:

وإن تأتوا برملةَ أو بهندٍ ... نبايعها أميرَ المؤمنينا

إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ ... نعدُّ ثلاثة متناسقينا

---

(١) كابن تيمية، انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣. أما ابن العربي فقد ألّف كتاباً في شأن الإمام الحسين عليه السلام زعم فيه أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. قال المناوي في كتابه هذا بعد ذكر عبارة ابن العربي هذه: نعوذ بالله من الخذلان.

فـوا لهـفا لوَ ان لنـا سـيوفاً ولكـن لا نـعودُ كـما عُـلينا
إذن لضـربتمُ حـتىٰ تـعودوا بـمكّة تـلعقون بـها السـفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا دمـاء بـني أمـيّة مـا روينـا
لقـد ضـاعت رعـيّتكم وأنـتم تـصيدون الأرانبَ غـافلينا[1]

فهذه الأبيات تعكس الألم والسأم اللذين كلكلا على النفوس ؛ ولذلك فإنّ معاوية بن يزيد بن معاوية صعد علىٰ المنبر وواجه الأمر بواقعيّة بعد أن آل الأمر إليه ، فخطب الناس واصفاً بني أُمية بأنهم قد وصل الأمر بهم إلى درجة من الاعتداء علىٰ الناس بحيث إنـهم لم يـتركوا دماً إلّا سـفكوه ، ولا مـالاً إلّا أخذوه ، ولا عرضاً إلّا هتكوه ، فيجب عليهم أن يتخلّوا عن الأمر ويدفعوه إلى أهله . وبالفعل تخلّىٰ هو عنه ؛ حيث قال : ولقد خلعت بيعتي من أعناقكم . فلمّا رجع إلى بيته قالت له أُمّه : ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك . فقال لها : وددت واللّه ذلك . ثمّ قال : ويلي إن لم يرحمني ربي .

ثمّ إن بني أُميّة قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص : أنت علمته هذا ولقنته إياه ، وصددته عن الخلافة ، وزينت له حب علي وأولاده ، وحملته علىٰ ما وسمنا به من الظلم ، وحسنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق وقال ما قال . فقال : واللّه ما فعلته ، ولكنه مجبول ومطبوع عـلىٰ حب عـلي . فـلم يـقبلوا مـنه ذلك ، وأخذوه ودفنوه حياً حتىٰ مات[2] .

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام ، وقيل: حمام ، ابن نبيشة بن رياح ، المـلقّب بـالعطّار ؛ لجـودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا ، وقد ذكر بيتين منها فقط ، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

(٢) انظر حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩. وقد ذكرنا أغلب كلامه في محاضرة (نفحات من سيرة

فالأمويّون لم يتركوا شيئاً إلّا انتهكوه، فمثلاً دخل رجل على سليمان بن عبد الملك ـ وكان جالساً علىٰ كرسي الخلافة في يوم من الأيّام ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، أناشدك اللّه وأسألك أن تذكر يوم الأذان. قال: مايوم الأذان قال: يوم الأذان هو اليوم الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]. قال: من الذي ظلمك؟ قال: عمّالك؛ أخذوا ضيعتي فبقيت جائعاً بائساً. قال: تُردّ لك ضيعتك.

والمقصود هنا أنه كانت هناك ضياع تسلب، وأموال تنهب، وأعراض تهتك وتستباح، ودماء تسفك، ووصل الأمر إلى حد الانغماس في ذلك؛ ولذا فإنه كان من المؤمّل أن يلتحق الناس بالإمام الحسين‏عليه السلام.

لماذا يكون أتباع الحقّ قلّة؟

لكن هذا الذي حصل مع الإمام الحسين‏عليه السلام ليس بالأمر الأول الذي يحصل مع المصلحين الذين تبعثهم السماء، بل إنه يعدّ شيئاً طبيعيّاً عند الرجوع إلى رسالات الأنبياءعليهم السلام؛ إذ نجد أن الذين اتّبعوهم (صلوات الله وسلامه على نبيّنا وآله وعليهم) فئة قليلة، فنبيّناصلى الله عليه وآله وسلم اتّبعه في مكة أُناس قلائل على الرغم من بقائه‏صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة، وكذلك الأنبياءعليهم السلام؛ فإنّ حواريّيهم يعدّون على الأنامل[2]؛ لأن ما بعد الرسالات عبء والتزام وعطاء، وتوطينٌ للنفس على التضحية والموت والمعاناة. فليس من السهل ترويض

☚ الإمام السجّادعليه السلام)، فراجع.

(١) الأعراف: ٤٤.

(٢) وأبرز مصداق على ذلك نبي الله نوح‏عليه السلام؛ فقد بقي في قومه تسعمئة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله تعالى، ومع ذلك لم يؤمن منهم إلّا نفر لا يتجاوزون أصابع اليدين، وهذا هو شأن كل المصلحين.

النفس علىٰ هذه الأُمور.

ولذلك فإنّ أتباع الأنبياء عليهم السلام مع أنهم كانوا قلّة لكنهم في الوقت نفسه كانوا متميّزين. ومعنىٰ أنهم متميّزون: أنهم آتون عن اختيار وقصد.

على أيّة حال فإنه قد التحق بالإمام الحسين عليه السلام اثنان وثلاثون جنديّاً من معسكر يزيد، فأصبح عدد أنصاره مع أهل بيته عليهم السلام سبعين أو اثنين وسبعين رجلاً. فاستشهاده عليه السلام بهذه الآية وقراءته لها له مدلول واضح هو أن اللّه تعالى يعرّض الإنسان في اللحظة الحاسمة التي تمرّ بحياته لاختبار قد يكون صعباً: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

فكان أن التحق بالإمام الحسين عليه السلام هؤلاء النخبة.

قراءة لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأصحاب يزيد

ونستطيع أن نقرأ التاريخ لنرىٰ أين هم أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأين هي منزلتهم، وأين هم أصحاب يزيد. وهذه القراءة ستكون بعيداً عن العوامل الغيبيّة، وبغضّ النظر عنها، فلا نقول: إن هؤلاء في الجنة ولهم منزلة عالية، وأُولئك في الدرك الأسفل من النار، كلا بل سنأخذ الأُمور بعيداً عن هذا.

والآن انظر في هذه الدنيا فأين ستجد معسكر الإمام الحسين عليه السلام، وأين ستجد معسكر يزيد؟ يزيد الذي يقول:

اسقنا يازبيرُ بالقرقارهْ ... قد طربنا وحنّت الزمّارهْ[(١)]

اسقني اسقني فإن ذنوبي ... قد أحاطت ومالها كفّارهْ[(٢)]

---

(١) القرقارة: إناء من زجاج طويل العنق؛ سميت بذلك لقرقرتها. لسان العرب ٥: ٨٧ ـ قرقر، تاج العروس ٣: ٤٨٩ ـ القرقار. والزمّارة: المزمار، كما في المصدر.

(٢) البيان والتبيين ١: ٤٢١، وفيه أن القائل هو الوليد.

فهو بين زقّ خمر وإنسان صنعته الخمرة، وبين بؤرة من بؤر الفجور، في حين أننا نرىٰ الإمام الحسين عليه السلام ومعسكره حيث يقول دعبل الخزاعي:

منازل جبريل الأمين يحلّها   من الله بالتسليم والصلواتِ[1]

فهذان معسكران متمازيان: معسكر باطل ومعسكر حقّ.

الثانية: أن الإمام الحسين عليه السلام كتب له الخلود في الدنيا

ومن عطاء هذه الليلة أن وقف الإمام الحسين عليه السلام ليهب العمر القصير، فيأخذ العمر الطويل. فنحن نتساءل ونقول: لو قُدّر للإمام الحسين عليه السلام أنه لم يقاتل ولم يُصرع، وعاش عمره وحياته الطبيعيّين، فكم سيكون عمره عندما يموت؟ غالباً إن عمر الأفراد يرتبط بمعدّل أعمار أُسرهم، والأعمار مهما طالت لايعتبرها العرب وسيلة مدح، وإنما وسيلة ذمّ. يقول السيد حيدر الحلي رحمه الله:

عهدي بهم قصرُ الأعمارِ شأنهُمُ   لا يهرَمون وللهيّابةِ الهرَمُ[2]

فهو رحمه الله يقول: إن أعمارهم قصيرة؛ لأنهم يموتون في ساحة الحرب مبكّرين، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يزد عمره الشريف عن ثلاث وستّين سنة، وكذلك الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام، فلو قدّر للإمام الحسين عليه السلام أنه لم يقتل فإنه سيعيش خمس سنين أو ستّاً لا أكثر، لكنه عليه السلام حصل على هذا العمر الطويل الذي نراه بهذه التضحية الفريدة التي لم يحدّثنا التاريخ بمثلها أبداً؛ حيث تمرّ الليالي، والأيام وهو عليه السلام يتألّق على جبين الدهر. فأيّ عمر أطول من هذا؟ فالعمر لا يقاس بالسنين في مثل هذه المواطن، بل هو عبارة عن السمعة

---

(١) ديوان دعبل: ٣٨.   (٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٣.

الكريمة والموقف المشرّف والأمجاد والبطولات:

كـرائـم أعـمالٍ وزاد مـن الـتـقى وفيض من الإصلاح هذا هو العمرُ

فعمر الإنسان مرتبط بإنجازاته؛ ولذا فإن الإمام الحسين عليه السلام انتزع الخلود من الدنيا. وهذا هو الذي يريده القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِـمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[1]، أو يقول: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] فهم أحياء بالذكر الخالد وعند اللّه، فهذه هي الحياة التي لاتنتهي.

إذن فالإمام الحسين عليه السلام إنما وقف موقفه هذا في مثل هذه الليلة ليؤكّد على حقيقتين هامّتين هما: فرض وجوده علىٰ الدنيا، وأنه عليه السلام قادر علىٰ أن ينتزع منها خلوده وعمره الطويل هذا.

الثالثة: تأصيل معالم مدرسة الكفاح

فالإمام الحسين عليه السلام أراد في مثل هذه الليلة أن يـؤصّل مـعالم مـدرسته، ومدرسته هي مدرسة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وأبيه عليه السلام. وأعني بتأصيل معالمها هنا أمرين:

الأول: تركيز هذه المعالم في أذهان الناس

فنحن قد ارتكز في أذهاننا أن الإنسان عندما يريد أن ينهض فلا بـدّ أن تكون له عدّة وسلاح ومعه جماعة كبيرة تناصره وإن كان هذا هو الذي يسعى إليه المصلحون؛ كونه الطريق الطبيعي للـنجاح[3]. لكـن مـدرسة الإمـام الحسين عليه السلام هي مدرسة الأنبياء عليهم السلام، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما خرج لواقعة بدر كان

---

(١) البقرة: ١٥٤. (٢) آل عمران: ١٦٩.

(٣) كما سيأتي في محاضرة (أنصار الله).

عدد الصحابة الذين كانوا معه ثلاثمئة وثلاثة عشر صحابيّاً، ومعهم جريد النخل، ومن الخيول فرسان، وبعض أسلحة بسيطة.

فالهدف إذن هو تأصيل الموقف، فلم يهمّه أن يتبعه كثير أو قليل من الناس، وهذه المدرسة رسمها القرآن الكريم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. فالقلّة والكثرة لاتلعبان دوراً كبيراً، وإنما الهدف الأساسي هو تقرير الموقف. فالإمام الحسين﵇ لايعدو سيرة ومسيرة الأنبياء﵈، لأنه﵇ أراد أن يقرّر موقفاً.

الثاني: جعل مستوىٰ أخذها بمستوىٰ عطائها

فمن معالم هذه المدرسة التي حاول سيّد الشهداء وأبو الأحرار ترسيخها بين أحرار المسلمين هو أن يكون مستوىٰ أخذها على مثال مستوىٰ عطائها، أي أنه﵇ عندما أعطىٰ دمه ودماء أنصاره ـ وهم نخبة العالم ـ فهو إنما يريد أن يبقي هذه المدرسة لهدف سامٍ، هو أن يبقى﵇ جذوةً في فم التاريخ؛ حيث إن الدنيا لا تنفك حالاتها عن أدوار يسيطر فيها الظلم والتعدي على حياة الناس، وسيستمر ذلك بينهم.

وبعبارة أُخرى إن الدنيا ليس فيها يزيد واحد. فلكلّ عصر يزيد؛ ولذافإنه﵇ نهض ليقرّر شيئاً هو أن الدنيا فيها مفارقات كثيرة، فلا بدّ من وجود حسين في كل حين وعصر ليحمل السيف؛ كي تبقىٰ معالم مدرسته قائمة خالدة.

فالمسلمون الآن يضامون ويعتدىٰ عليهم في كلّ بقاع الأرض؛ فإذا لم

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

يحملوا معالم هذه المدرسة.. مدرسة الفداء والتضحية، فإنهم لن يصلوا إلى نتيجة أبداً، وسيخسروا كلّ شيء.

وهكذا سترتفع المدرسة في مستواها وترفع معها مستوى أتباعها، لا أن تجعل مهمّتها ورسالتها سكب الدموع، فهذا شيء ثانوي، يقول السيد حيدر الحلي ﵀:

أفلطماً بالراحتين فهلّا ... بسيوفٍ لاتتّقيها الدروعُ[1]

فمعالم المدرسة التي يريدها الإمام الحسين ﵇ هي أن تكون معالم قائمة، حيث إن الدنيا ستبقىٰ تحمل في طياتها عناصر للشرّ وانحرافاته، فتحتاج دائماً إلى مقوّم ومصلح. وقد سجّل ﵇ هذا المعنىٰ بهذه الألفاظ القليلة: **«ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها، وذهبت جذّاء، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغبِ امرؤ في لقاء ربه مُحقّاً. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»**[2].

فمن عطاء هذه الليلة أن الإمام الحسين ﵇ قد أصّل هذا المعنىٰ.

الرابعة: إيمانه ﵇ بقضيته العادلة

ومن العطاءات المهمّة لهذه الليلة أن الإمام الحسين ﵇ لم يكن إلّا بمستوىٰ المنهج الذي درج عليه أبوه أمير المؤمنين ﵇. ومعنىٰ ذلك هو ما جاء على لسان الإمام أمير المؤمنين ﵇ حيث يقول: **«والله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»**[3].

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ٨٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

فنحن نعرف أن الذي يقوم بنهضة فإنه يجمع أتباعه بمختلف الطرق؛ لأنه يريد تكثير العدد؛ لأجل أن يدافعوا عنه وعن هدفه. أما الإمام الحسين﵇ فإنه واجه الأمر بمنتهىٰ الصراحة. يقول الإمام زين العابدين﵇ عن أحداث ليلة العاشر قبيل الغروب: **«إني لجالس في تلك العشيّة التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمّتي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له، وعنده جوين مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه، وسمعت همهمة أبي»**.

وكان الإمام السجاد﵇ يغمىٰ عليه تارة ويفيق أُخرى؛ فإذا آفاق من إغمائه سمع ما يدور في خيمة أبيه (صلوات الله وسلامه عليهما). يقول﵇: **«سمعت أبي يقول: أمّا بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عنّي خيراً. ألا وإني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً»**[1].

فهو﵇ يرشدهم إلى أنه هو الهدف من الحملة. فلماذا ييتّمون أطفالهم ويرمّلون نساءهم ويتركون عوائلهم إذن؟ وهذا كلام لا يقوله إلاّ الواثق من نفسه، والذي يقدم علىٰ التضحية وهو مؤمن غاية الإيمان بقضيّته. وهذا هو دأب جدّه رسول اللهﷺ وأبيه﵇.

فالإمام الحسين﵇ واجههم بكلّ صراحة، حيث إنه واجههم بأمر ليرى هل أنهم علىٰ استعداد للمضيّ من أجله، أم لا.فكان أن قام إليه أصحابه

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين﵇ (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥. تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

وقالوا له: قبّح اللّه العيش بعدك أبا عبد اللّه[١].

وأُحبّ أن أُلفت نظرك إلى نقطة هي أن نصارى نجران قالوا لرسول اللّه ﷺ: إن عيسىٰ ابن اللّه. فأجابهم ﷺ بأنه كلمة من اللّه، وأن اللّه قد نفخ من روحه في مريم عليها السلام فتكوّن عيسىٰ عليه السلام. فراحوا يجادلون حول بعض النقاط، ثم قالوا: نباهلك. أي ندعو الله تعالى بأن ينصر المحقّ ويهلك المبطل. فأجابهم الرسول الكريم ﷺ إلى ذلك، وافترقوا على هذا. فلمّا

---

(١) لقد كان ردّ أهل بيته عليهم السلام وأصحابه ممّا يشرّف وجه الدنيا؛ فقد قال له أهل بيته: لمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً. فما يقول الناس عنا؟ أندعهم يقولون: إنا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله ما نفعل ذلك، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وأتبعتهم جماعة فتكلّموا بمثل ما قالوا؛ فقد قام إليه مسلم بن عوسجة رضي الله عنه فقال: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ. والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق ثم أحيا ثم أُذري، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقىٰ حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وقام زهير بن القين رضي الله عنه فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وقام إليه محمد بن بشير الحضرمي رضي الله عنه فقال له: أُسر ابني بثغر الري فما أُحبُّ أن أبقىٰ بعده حيّاً. فقال له الحسين عليه السلام: «أنت في حلّ من بيعتي». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «اعمل علىٰ فكاك ابنك». فقال له: أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول اللّه.

الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

جنّهم الليل قالوا: نحن ننتظر هذا الرجل إذا أصبح الصباح؛ فإن أخرج أصحابه فهذا يعني أنه يتوقّىٰ الموت بأصحابه ـ أي بالناس بعيداً عن أهل بيته ـ فباهلوه، وإن أخرج معه أهل بيته فهذا يعني أنه واثق من أنه سوف لن يتعرض إلى مكروه أو إلى شيء من البلاء، فلا تباهلوه. فقرّ رأيهم علىٰ هذا.

فلمّا أصبح الصباح واشرأبّت الأعناق، والناس واقفون سماطين ينتظرون طلعة النبي ﷺ وإذا به يخرج وفاطمة عليها السلام وراءه، والحسن والحسين عليهما السلام بين يديه، وأمير المؤمنين علي عليه السلام إلى جنبه ليباهل بهم هؤلاء، فالتفت النصارى وقالوا: إنا لنرىٰ معه وجوهاً لو أقسم بهم على الله أن يزيل جبلاً من مكانه لبرّ قسمه، فلا تباهلوهم فتهلكوا، فوالله لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصارىٰ عين تطرف.

فامتنع النصارىٰ عن المباهلة، وصالحوا النبي ﷺ ببركة الوجوه الكريمة لأهل بيته (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم)[1]. فهم رأوا أن الرسول ﷺ بدا واثقاً من أمره غاية الوثوق، ولذا قالوا: عليكم ألّا تباهلوه. والشاهد هنا أنهم قد رأوه ﷺ يخرج معه أهل بيته.

وكذلك في الطف فقد أخرج الإمام الحسين عليه السلام معه أولاده وأُسرته، أي أنه عليه السلام كان يعرف حقيقة الثمن الذي سيحصل عليه وماهيّته، ولذلك قدّم أسمى الأضاحي، وأعطىٰ هذا العطاء الجزيل:

يا أبا الطفّ إن أخذت فقد أعـ ... ـطيت للّهِ والعطاءُ جزيلُ

---

(١) الإرشاد ١: ١٦٧، التبيان ٢: ٤٨٤، مجمع البيان ٢: ٣٠٩، بحار الأنوار ٢١: ٢٧٧، قريب منه في شواهد التنزيل ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ١٧٤.

الترابُ الجديبُ ما اخضرّ لو لم ... يتصدّى له السحابُ الهطولُ(١)

فالإمام الحسين﵇ واجه الأمور بكل صراحة وثقة؛ ولذا فإنه﵇ خاطب أصحابه قائلاً: أنتم غداً ستقدمون على العطاء وستكونون في عداد الشهداء، فلا تقولوا: إن الحسين﵇ قد خدعنا وغرّنا عن أمرنا. فـ«**هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً**». ومثل هذه الصفات لا يتوفّر عليها إلّا القائد الواثق بنفسه المطمئن إلى أمره.

الخامسة: أنه﵇ جسّد حديث جدّهﷺ بأنه والقرآن لا يفترقان

ومن الدروس الأُخرىٰ التي طرحها الإمام الحسين﵇ ونفحتنا بها ثورته في مثل هذه الليلة أنه﵇ جسّد الحديث النبوي الشريف: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»(٢) خير تجسيد، ليس بالجانب الروحي والمعنوي فقط، بل إنه﵇ جسد هذا المضمون بالجانب المادي أيضاً بأقصى ما يمكن أن يتحقّق التجسيد؛ حيث إن الجانب المعنوي قد جسّدته سيرته وكذلك سيرة أخيه الإمام الحسن﵇. فلا يمكن لأي باحث مهما نقّب في التاريخ أن يجد في سيرتهما﵉ مادّة تبتعد عن تعاليم السماء، وعمّا جاء في القرآن الكريم، وتعاليم السنّة النبويّة الشريفة. فهم ـ أهل بيت النبيﷺ ـ بهذا لم يفترقوا عن القرآن طرفة عين أبداً.

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤١.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

فالإمام الحسين أراد أن يقول للناس: إنه حتى ماديّاً لم يفترق عن القرآن الكريم، حيث إنه وأصحابه باتوا هذه الليلة ولهم دويّ كدوي النحل بين قائم وقاعد وراكع وساجد إلى الصباح[١]. فالإمام الحسين يقرأ القرآن الكريم ويستلهم معانية بالعطاء، والقرآن يحثّ الناس على الجهاد في سبيل الله، ويدفعهم إلى الشهادة، ويؤمّلهم انتظار عطائه، ويبشّر عباد اللّه بأن لهم رزقاً كريماً. فهو لم يخرج بهذا عن القرآن ومضامينه، وكذلك كان أصحابه وهم يقرؤون القرآن الكريم.

أمّا معسكر يزيد فإنّ فيه تلك الأراجيز وذلك الهزج الذي يُبعد عن اللّه ويخدش الحياء.

فالإمام الحسين إذن جسّد معنىٰ الحديث النبوي: **«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»** ومضمونه. لكن يا للأسف؛ فإنّ كتاب اللّه تعالى وعترة نبيّه قد تعرّضا للإهمال والإعراض. يقول جملة من المؤرخين: إنه لما قتل الإمام الحسين نادىٰ منادٍ من السماء: **«أيتها الأمّة الظالمة القاتلة عترة نبيّها، لاوفّقكم الله لأضحىٰ ولا لفطر»**[٢]. وهذا الخطاب موجّه للذين عاصروا الواقعة، أمّا نحن فليس من العدل أن يشملنا ذلك[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٤.

(٢) الكافي ٤: ١٦٩ / ١، ١٧٠ / ٣، الأمالي (الصدوق): ٢٣٢ / ٢٤٤.

(٣) أي أن هذا الخطاب مأخوذ على نحو القضيّة الخارجيّة لا الحقيقيّة كما هو مبيّن في علم المنطق.

كما أن الإمام الحسين عليه السلام حاول أن يذكّرهم عندما لبس ملابس رسول الله صلى الله عليه وآله وتقلّد سيفه وركب فرسه، وكان الهدف: **«ألستم تعرفون من أنا؟ فانسبوني وانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟»**(١).

وقال لهم: **«ويلكم على ماذا تقتلونني؟ أعلى عهد نكثته، أم على سنّة غيّرتها، أم على شريعة بدّلتها، أم على حقّ تركته؟»**. فقالوا: نقاتلك بغضاً منّا لأبيك(٢).

فقد كان هدفه عليه السلام من ذلك أن يعيد هؤلاء إلىٰ جادّة الصواب قبل أن يعرّضوا للعذاب(٣)، وفعلاً تعرّضوا للعذاب وللتنكيل لمّا عصوا الله تعالى فيه،

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٧، تاريخ الطبري ٤: ٣٢١، وتمام الحديث: «ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيّه وابن عمّه، وأول المؤمنين، المصدّق لرسول الله صلى الله عليه وآله بما جاء به من عند ربه؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عمي؟ أوليس جعفر الطيّار في الجنة بجناحين عمي؟ أولم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمّدت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، وإن كذّبتموني فإن فيكم من لو سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله».

(٢) نور العين في مشهد الحسين عليه السلام: ٤٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٠.

(٣) فقد كان عليه السلام يبكي خوف أن يدخل هؤلاء النار بسببه، فقد قال لعمر بن سعد بن أبي وقاص: «إني أكره أن تدخل النار بسببي». انظر: بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٥، مقتل الحسين (الخوارزمي): ٢: ٦٠٢. ويحذّر هرثمة بن أبي مسلم أن يدخل النار؛ خوفاً عليه بقوله: «فامضِ حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس الحسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلّا دخل النار». انظر: الإرشاد ١: ٣٣٢، تهذيب الكمال ٦: ٤١١، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠١، شرح نهج البلاغة ٣: ١٦٩، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٢.

واستجاب دعوته عليه السلام فيهم، حيث وصلوا إلى درجة من الذل أن أضحوا أذل من «فرام المرأة»، كما وصفهم عليه السلام في معرض كلامه[١]. والفرام خرقة الحيض[٢].

فالإمام الحسين عليه السلام في مثل هذه الليلة جسّد انضمام العترة عليهم السلام إلى القرآن وعدم افتراقهما.

فرية حول حديث: «كتاب الله وعترتي»

لكن هناك إصرار على أن هذا الحديث ليس بصيغة **«كتاب الله وعترتي»** وإنما هو بصيغة «كتاب اللّه وسنتي»[٣]، مع أن أكثر مصادر المذاهب الأربعة ترويه بصيغة **«كتاب الله وعترتي»**، وأبسطها كتاب (مناقب الخمسة في الصحاح الستّة) للفيروز آبادي.

إن السنّة الشريفة شارحة للكتاب الكريم ومتمّمة ومبيّنة له، فلا يحتاج صلى الله عليه وآله إلى أن يقول: **«لن يفترقا»**، وإنما الذي يحتاج للتأكيد هو انضمام العترة المطهّرة عليهم السلام إلى جانب القرآن الكريم.

السادسة: أن لكل من المرأة والرجل دوره المنوط به

ومن خصائص هذه الليلة وعطائها أيضاً أن الإمام الحسين عليه السلام أكّد من خلال نهضته المباركة على أن يبيّن أن ميادين الكفاح والعطاء لاتقتصر علىٰ الرجال فقط، وإنما للمرأة فيها دور لا يقلّ عن دور الرجل.

---

(١) فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «واللّه لا يدعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العُلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط اللّه عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة». الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١، لواعج الأشجان: ٧٢.

(٢) لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

(٣) سنن الدار قطني ٤: ١٦٠، الجامع الصغير ١: ٥٠٥ / ٣٢٨١.

وقد يقول قائل: إن هذا موجود في حضارتنا، حيث نجد للمرأة دوراً بارزاً في جملة من المغازي والحروب بين القبائل العربيّة.

ونقول: إن ذلك لم يكن ضمن ضوابط معيّنة يرتئيها الإسلام، أمّا الإمام الحسين عليه السلام فقد أراد بهذا أن دور المرأة لا بدّ أن يكون ضمن الضوابط الإسلاميّة. ونحن نعلم أن الجهاد ليس من شأن النساء، بل هو يقع على الرجال فقط، وحتىٰ العرب في الجاهليّة كانوا يعتبرون مسألة خروج النساء إلى الحرب حالة استثنائيّة وليست مطّردة، يقول شاعرهم:

إن من أعجبِ العجائبِ عندي قتلَ بيضاءَ حرّةٍ عطبولِ

كُتب القتلُ والقتالُ علينا وعلى المحصناتِ جرُّ الذيولِ[(١)]

حيث كانوا يعتبرونها كائناً غير مهيّأً للقتال. وكذلك في مسألة الجهاد في الإسلام فإنها فرضت على الرجل دون المرأة؛ إذ أن المشرّع تبارك وتعالى جعل لها ساحات جهاد أُخرى وهي ساحة الأُسرة[(٢)].

المبحث الثاني: لماذا خرجت زينب مع الإمام الحسين عليه السلام؟

ومع هذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أصرّ على أن تخرج زينب معه؛ **لأنه عليه السلام** أراد أن يبرهن علىٰ أنه إذا دار الأمر بين الدفاع عن بيضة الدين وساحة الأُسرة فإنّ جهاد المرأة يكون إلى جانب جهاد الرجل كلّاً منهما يؤدّي دوره

---

(١) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة. تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.

والعطبول: المرأة الجميلة إلفتيّة الطويلة العنق الشبيهة بالظبية. لسان العرب ٩: ٢٦٥ ـ عطبل.

(٢) ورد في الحديث الشريف: «جهاد المرأة حسن التبعّل». انظر: الكافي ٥: ٩ / ١، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٢، كنز العمّال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، ٢٤١ / ٤٤٣٠٨.

في ساحة الجهاد. فإصراره ﷺ على خروج زينب معه ـ مع أنها كانت امرأة متزوّجة ذات بعل، هو عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب ـ هو ما ذكرنا. وكان ولداها (محمد وعون) قد خرجا معها، فتركت بيت زوجها وخرجت إلى جانب الإمام الحسين ﷺ لتؤدّي دورها ورسالتها[1]. إن إصرار الإمام الحسين ﷺ علىٰ ذلك هو بغية التأكيد على أن المعركة لاتقف عند السيف فقط، فكما أنّ السيف له دور فللكلمة دورها كذلك. فالدم له دور والموقف له دور. وهو ﷺ يؤكّد لهم بهذا أن المعركة لاتنتهي بإلقاء السيوف. وبالفعل فإنه حينما دخلت زينب ﷺ أول مرحلة لها وهي الكوفة ورأت أهلها يبكون اتّخذت مرتفعاً وقالت: «أما بعد، يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقأت الدمعة[2]، ولا هدأت الرّنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضبٍ من اللّه ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول ﷺ اللّه فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً.

ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينصرون».

---

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧.

(٢) رقأت الدمعة: جفّت وانقطعت. لسان العرب ١: ٨٨ ـ رقأ.

يقول خزيم بن فاتك الأسدي: نظرت إلى الناس حيارىٰ يعضّون على الأنامل، ويقولون: حسبك يابنت الطيّبين، لقد أحرقت قلوبنا(١).

فهذه المرأة صرع لها عشرة إخوة وولداها الاثنان وأولاد عمّيها جعفر وعقيل، فمن الصعب أن تقوم بهذا الدور، بحيث تجمع الأطفال والعيال، وتحاول ألّا تفرّط بوصيّة الإمام الحسين عليه السلام، ثم تقوم بهذه الأدوار الإعلامية الضخمة؛ فكان هذا الدور في الكوفة، وهناك دور آخر في الشام، وثالث في الطريق. ولقد جعلت الكلمة تأخذ طريقها إلى القلوب، وتلعب دورها إلى أن انتهىٰ الأمر إلى مجلس يزيد بن معاوية، حيث وقفت تخطب تلك الخطبة الضخمة التي أذهلت الناس.

فالهدف إذن هو أن تكون (سلام الله عليها) الشطر الثاني من النهضة..شطر الخطبة والإعلام والموقف، بعد أن انتهى دور الشطر الأول، وهو دور السلاح. وهذا هو الذي أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يجسّده الليلة..أن يبيّن أن المرأة لاتقلّ عطاء عن الرجل إذا لزم الأمر ذلك. يقول الشيخ الصدوق: دخلت زينب على الحسين عليه السلام ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب وتوجّه إليها واشترك معها في المصائب(٢). فهو عليه السلام قد وضع زينب أمام الصورة الحقيقيّة وأخبرها بأنها ستواجه نهار العاشر من المحرّم أمرين: الأول أجساد صرعىٰ ودماء، وأنها ستراه قتيلاً على التراب مغسّلاً بدمه، والثاني السبي وآلام السياط.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١، الاحتجاج ٢: ٢٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٧.
(٢) الأمالي: ٢٢١.

وهكذا كانت شريكته في الكفاح، فعندما رجع الحسين﵇ ولم يبقَ عنده أحد يقدم له فرسه أو يناوله سلاحه، وقف بباب الخيمة وهو يقول: **«من يقدّم لي جوادي؟»**. فمرّت زينب بتثاقل وجاءته بالجواد وهي تتمتم بهدوء وتقول: أيُّ أُخت تقدّم لأخيها فرس المنيّة؟ ما أجلدني وما أقسىٰ قلبي؟ جاءت بالجواد فلمح الحسين﵇ في عينيها دمعة، فعزّ عليه أن يرىٰ الدموع في عينيها، فمدَّ يده إلى منديله وأخرجه فمسح به دموعها، ثم أدناها إليه وقال لها: **«أُخيّة تعزّي بعزاء اللّه، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون، ولي ولكلّ مسلم برسول اللّهﷺ أسوة حسنة. أُخيّة تمسكي بحبائل الصبر»**[1]. فصاحت: والوعتاه يابن أُمّ، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً، إن ذلك أقرح لقلبي وأجرىٰ لدمعتي. ثم ندّت في عينيها دمعة[2]:

إن چان تريدني أنسى ابطل النوح وونيني
إخذ ذكراك من گلبي واخذ صورتك من عيني
أيام الچنت وياك أناغيك اوتناغيني

وها هي تصرّح له﵇ بأن من الصعب أن تفارقه بعد هذه العشرة الطويلة، فعزّاها وسلّاها، ولم يُطل الإمام الحسين﵇ الوقوف معها؛ لأنه تأثّر وانفعل، فمسح بيده على كتفها وودّعها بسرعة، ثم قام إلى مخيّم العيال وودعهم وودع عياله وأطفاله واحداً واحداً، أمّا زينب فإنها جمعت النساء والأطفال فالتففن حول أبي عبد اللّه﵇ وكأنها تقول له: إن خرجت من

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩،البداية والنهاية ٨: ١٩٢.
(٢) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

الخيمة فلم تخرج من مشاعري. ثم خرجت إليه عند منتصف الليل بعد مقتله:

منهو انصدع يا بين صدعي — لهدات تسعر تحت ضلعي

أخبّي عن الشمّات دمعي — واضم ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنصّ الليل والعِي

﴿ ١٠٤ ﴾

أصحاب النار وأصحاب الجنّة

(ليلة عاشوراء)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بواعث الأمويّين وأهدافهم وراء معركة الطفّ

منذ خلق الله الأرض ومن عليها والبشريةُ لم تكن على وتيرة واحدة، ويتّضح ذلك من خلال مراجعتنا التاريخ، حيث إننا سنجد صراعاً واضحاً بين قوىٰ الخير وقوىٰ الشرّ. فالأرض لا يمكن لها يوماً أن تتمحّض للخير أو أن تتمحّض للشرّ؛ إذ أن فيها الشياطين والملائكة على امتداد خطّ الحياة ومسيرتها. والقرآن يلخّص لنا ذلك بقوله: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾، فأصحاب الجنة هم معسكر الخير، وأصحاب النار هم معسكر الشرّ، والتعبئة قائمة فيهما على قدم وساق.

وسنحاول هنا أن نعطي بعض الملامح عن هذه التعبئة في مثل هذا اليوم، حيث إن عمر بن سعد قد عبّأ جيشه لقتال الحقّ المتمثّل بالإمام الحسين عليه السلام

---

(١) الحشر: ٢٠.

في مثل هذا اليوم، وكذلك فعل الإمام الحسين ﷺ، فقد هيّأ الأُسرة ـ كما عبّر ﷺ بهذا عن ذلك بنفسه ـ لمقارعة الباطل، حيث قال ﷺ: **«اللهم إني زاحف بهذه الأُسرة علىٰ قلّة العدد وخذلان الناصر»**[(١)].

الملامح العامة لمعسكري الهاشميّين والأمويّين

وهنا أودّ أن أروي حادثة تلقي الضوء على معسكري الهاشميّين والأُمويّين، وهي أن عقيل بن أبي طالب دخل ذات يوم علىٰ معاوية فقال له: لقد دخلت علىٰ معسكر أخيك علي بن أبي طالب ودخلت على معسكري، فما هو الفرق الذي وجدته بين المعسكرين؟ فقال عقيل: دخلت إلىٰ معسكر أخي علي فرأيت ليلهم كليل رسول الله ﷺ ونهارهم كنهار رسول الله ﷺ، فهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وذاكر وصائم، إلّا إن رسول الله ﷺ ليس فيهم، ودخلت إلىٰ معسكرك فما وجدت فيه إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ﷺ ليلة العقبة[(٢)].

فهو يقول له: إن مجموعتك تحمل تراث الجاهليّة، وتقف ضدّ الإسلام، وتحمل الأحقاد، وتنادي: يا لثارات بدر.

---

(١) وتمثل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نهزِم فهزَّامُون قدماً ... وان نُهزم فغير مُهَزَّمِينا
وما إن طبّنا جُبن ولكن ... منايانا ودولةُ آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أُناس ... كَلاكِلَهُ أناخ بِآخَرينا
فأفنىٰ ذلكم سَرَواتِ قومي ... كما أفنىٰ القُرونَ الأوَّلينا
فقُل للشَّامِتين بِنا أَفِيقُوا ... سَيلقَىٰ الشَّامِتُونَ كَما لَقِينا»

الاحتجاج ٢: ٢٥، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥.

دوافع الصراع الهاشمي ـ الأُموي عند المؤرّخين

وهذا تصوير صحيح لذلك الواقع المخزي، فكيف ذلك؟ عند التأمّل فيما وصف به الأُمويّون الصراع في واقعة الطفّ نعرف أن المسألة لم تكن صراعاً يتجسّد بأشخاص، وإنما هو صراع يتجسّد بمبادئ، فالأُمويّون يكفرون بما جاء به رسول الله ﷺ وبمقدّسات المسلمين التي يجب أن تُستهدف بنظرهم؛ ليعيدوا نفوذهم وما كانوا عليه من رئاسة. وهذا المعنىٰ كان يطفح علىٰ ألسنتهم في كل مناسبة[1]، فما هي الأشياء التي استهدفوها؟ وما هي البواعث لهم على ذلك؟ هناك نقطة أغفلها من كتب في واقعة الطفّ؛ فهؤلاء انقسموا على أنفسهم إزاء تحليل بواعث هذا الصراع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أصحاب الدافع القبلي

فهذا البعض يقول: إن هذا هو مظهر من مظاهر الصراع القبلي، فبين بني هاشم وبني أُميّة عداء مستحكم في الجاهلية، وقد استمرّت أُميّة بهذا العداء وهذا الصراع القبلي حتى سقوط دولتها.

القسم الثاني: أصحاب الدافع الشخصي

أمّا هؤلاء فيقولون: إن المسألة شخصيّة، حيث ذكروا قضية أُرينب بنت إسحاق[2]، وأنها هي السبب في الصراع الذي وقع فيما بعد بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد. وهذا رأي تافه لايستحقّ أن يناقش.

---

(١) ومنه قول أبي سفيان: تلاقفوها يابني أُميّة تلاقف الكرة، فوالذي يحلف بـه أبـو سـفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) قصص العرب ٤: ٢٩١ / الرقم: ٩٤.

القسم الثالث: أصحاب الدافع الاجتماعي

وهؤلاء يقولون: إن جذور الصراع تاريخية، وباصطلاحنا هو صراع بين طبقة من المحرومين وبين طبقة كانت تستأثر بمقدّسات الناس وتنتهكها، فكانت النهضة اجتماعية، فاراد الحسين‏ عليه السلام أن يستردّ للمسلمين حقوقهم(١).

الدافع الحقيقي وراء الصراع

ولكل واحد من هؤلاء الدارسين اتّجاهه في تفسير هذه الواقعة، لكنهم جميعاً غفلوا عن ناحية أُخرى هامّة جدّاً، ولم يكتبوا عنها، أو لم يشبعوها دراسة. هذه الناحية هي أن يزيد قد ربّاه النساطرة، والنساطرة مسيحيون، وكذلك أُمّه ميسون الكلابية فقد كانت مسيحية، وبهذا يكون أخواله ومعلّموه مسيحيّين. ولمّا تزوّجها معاوية وأدخلها الشام، دخل عليها يوماً من الأيام فسمعها تنشد:

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وكلبٍ ينبح الطرّاقَ دوني ... أحبُّ إليَّ من قطٍّ أليفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوفِ
وخرقٌ من بني عمّي نحيفٌ ... أحبُّ إليَّ من عجلٍ عليفِ(٢)

فطلّقها معاوية وأرسلها إلىٰ أهلها في البادية، فخرجت إليها وهي حامل بيزيد، فوضعته هناك، وفيها نشأ بين أخواله الذين علّموه الخطّ المسيحي في التربية، فكان يتناول الخمرة بشكل طبيعي كما يشرب الماء، ولم يتربَّ علىٰ

---

(١) أي كما فعل أبوه أمير المؤمنين‏ عليه السلام الذي قال: «والله لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٣ ـ ١٣٤

النظام العائلي في الإسلام.

والنساطرة قد عرفوا هذا الأمر عند يزيد، وهم يحملون علىٰ الإسلام حقداً، وأوروبّا المسيحية لا زالت حتىٰ الآن تحمل حقداً دفيناً على الإسلام، ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مدى حقدها علىٰ الإسلام، فالكاتب المسيحي متوتّر جدّاً إزاء قضايا الإسلام، وهو ينفجر انفجاراً عنيفاً عليه. وهذا مع توفّر فنون العلم والمعرفة، وقد عرفت سيرة الرسولﷺ وأنه يحمل التيار الإنساني، وموقفه من أهل الكتاب كان غاية في الرقّة واللين والاحترام، لكن ذلك لم يمنعهم عن أن يحملوا الحقد علىٰ الإسلام، ويقذفوه بكل نقيصة، ويعبرّوا عنه بأنه هجمة همجيّة بدوية اجتاحت الحضارات وقضت علىٰ التقدّم. وإذا مرّوا بجميع مايرتبط بالإسلام فإنهم يزيّفونه ويجعلونه تافهاً في نظر الناس، حتى وصل الأمر بأحد المستشرقين أن يقول: إذا قرأت القرآن فإني أشعر بالغثيان.

ونحن نقول له: ما الذي يجعلك هكذا، والقرآن هوالذي يحمل كلّ هذه المبادئ السامية والقيم الإنسانيّة؟ أليس هو الذي يقول: **﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**[1]، و **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾**[2]. و **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[3]؟ فهل هذا اللون من المبادئ يلجئ الإنسان إلى أن يشعر بالغثيان عند قراءتها؟

فهذه تيارات متدفّقة من الفكر الإنساني، وقد وصلت به الجرأة إلىٰ التهجّم

---

(١) لقمان: ١٨. (٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) النحل: ٩٠.

علىٰ القرآن، بل يقول: إن محمداً كان جالساً في بيته ويأكل من أموال النهب والسلب وبطنه متكرّشة، وهذا حقد مروّع. وليعلم أن هذا الكلام صادر في قرننا هذا قرن التنوّر والعلم والأحكام القائمة على أساس الحقائق العلميّة لا الادّعاءات والتحكّمات، أعني القرن العشرين، فكيف هم إذن آنذاك؟ وكيف هي أحقادهم؟

إن أُولئك الذين ربي يزيد عندهم كانوا يعرفون تركيبة يزيد، ويعرفون أنه ولي العهد وسيصبح هو المتولّي لشؤون المسلمين؛ ولذا عمدوا إلى أن يملؤوه بالحقد علىٰ الإسلام والمسلمين. ولهذا السبب نجد أن مستشاريه كانوا من الأجانب، وكان أحدهم «سرجون» مولىٰ معاوية، وهو من النساطرة. فمن مجموع هذه الملابسات نشعر بوجود تيار أجنبي له دخل في التعبئة ضدّ الإسلام.

فالمربي يصوغ الشخصيّة أكثر من الأب، ويزيد كان المجوس والنساطرة أساتذته ومستشاريه، وكان الحضن الذي ربي فيه مسيحيّاً. فكل هذه العوامل تفسر لنا الموقف الذي وقفه يزيد بن معاوية من الإسلام، وضدّ مقدّساته.

ولو كان باقياً على التيار الجاهلي الذي كان عليه أجداده لكان أفضل من التيار الذي عادىٰ الإسلام؛ لأن التيار المسيحي منظم ومخطّط له، أمّا التيار الجاهلي فبدوي وتستطيع أن تغيره بشيء من العوامل البسيطة، لكن التيار المسيحي كان مدروساً ومنبعثاً عن وعي وعلم.

المبحث الثاني: مقدّسات المسلمين التي استهدفها يزيد

والذي يؤيد هذا المعنىٰ أن كل شيء مقدّس في نفوس المسلمين قد استهدفه يزيد بن معاوية. فما هي هذه المقدسات عند المسلمين؟

المقدّس الأول: الكتاب الكريم

إن أول المقدسات عند المسلمين هو القرآن الكريم، كتاب الله عزّ وجلّ الذي تلتقي عليه مشاعر المسلمين، وهو إمام المسلمين، والذي يقودهم فكرياً، وسلوكهم يتأثّر بمفاهيمه غاية التأثّر. فهذا الرجل استهدف هذا الكتاب بكل تعاليمه؛ حيث ضرب فكرة العدل، وسفك الدم، وانتهك حرمة الأُسرة، وعُرف بالانحلال حتىٰ مع المحارم، ووصل الأمر إلى درجة أن يضع الأُمويون القرآن بين رماح منصوبة ويقذفونه بالسهام ويمزّقونه(١).

المقدّس الثاني: الكعبة

أمّا المقدس الثاني الذي تلتقي حوله مقاصد المسلمين ومشاعرهم في شرق الأرض وغربها فهو الكعبة الشريفة، وقد استهدفها الأُمويون استهدافاً لا حدود له. هذا في حين أن الجاهلي حتى لو كان له ثأر عند أحد، فإنه لا يمدّ إليه يداً لو كان في الأشهر الحرم، أو في الكعبة؛ حيث إنه يحترم الأشهر الحرم ويحترم الكعبة. والإسلام أكد هذا المعنى، ففرض علينا فيما لو أن شخصاً ارتكب جريمة توجب الحد ثم التجأ إلى الكعبة ألّا نخرجه منها، بل يبقىٰ فيها؛ لأنه قد لاذ بها، لكن يضيّق عليه بالطعام والشراب حتىٰ يخرج،

---

(١) قال القرطبي: حكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أيّاماً حتى قتل شرّ قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور البلدة. الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

فيقام عليه الحد.

فالإسلام دعم ما كان عليه العرب من أمر تقديس الكعبة ومراعاة حرمتها. والكعبة موضع قداسة حتىٰ ممن لا يعبد الله، فحتى عبّاد الأصنام كانت الكعبة مقدسة عندهم، أما الأُمويون فقد هتكوا حرمتها مادياً ومعنوياً: مادياً حين سلطوا عليهاً المنجنيق و الأحجار وأحرقوها، ولمّا حاصر الأُمويون عبد الله بن الزبير فيها، دخلت عليه أُمه وقالت: مابك؟ قال: هؤلاء ليس عندهم وازع من أن يجرّوا الحرب إلىٰ الكعبة، وأنا أرى أني لا أسلم حتىٰ بعد موتي. فقالت: إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح(١).

فكان الرجل يعرف نفس الأُمويين، وفعلاً هدموا الكعبة، ثم قتلوه، ولم يكتفوا بقتله، بل صلبوه داخل الكعبة حتى سالت الدماء فيها(٢).

وهؤلاء قد استهدفوا الكعبة مرّتين(٣) ولم يبقوا لها حرمة في النفوس، مع أنها مركز من مراكز المسلمين، بل من أهم مراكزهم، فلذا هم يقدّسونها. وكانت هذه الحرمة التي أضفاها الله تعالى على الكعبة مصدر حقد الأُمويين

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

(٢) انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

(٣) ذكرت الأُولى في الهامش السابق، أما الثانية فحينما أعدّ الحجّاج جنده ورماها حتى هدم جدرانها. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

عليها؛ ولذا فإنهم يرون أن من واجبهم أن يقضوا عليها ويهينوها. وفعلاً عرّضوها للهوان.

المقدّس الثالث: عترة النبي ﷺ

ولهذا خرج الإمام الحسين عليه السلام يوم الثامن (يوم التروية) من مكّة، حيث إنه عليه السلام حل إحرامه وجعلها عمرة مفردة، وعلّل ذلك للمتسائلين بأنه يحترم الكعبة المقدّسة، ولا يريد لها أن تهتك حرمتها بسببه. ونحن نؤكّد أنه لو كان الإمام الحسين عليه السلام داخل الكعبة لقتلوه؛ لأن في كتاب الوليد إلىٰ عامل مكّة أن اقتل الحسين عليه السلام ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

فهذا العظيم ـ الإمام الحسين عليه السلام ـ هو أحد أفراد الطرف المقدّس الثالث في الإسلام، وهم العترة الطاهرة، بعد الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ الذي يقول: **«إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»**(١).

وقال ﷺ: **«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»**(٢).

وهذا المعنىٰ يأخذه الإمام الشافعي حيث يقول:

ولما رأيتُ الناسَ قد ذهبت بهم ... مذاهبُهم في أبحُرِ الغَيِّ والجهلِ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ٢٧٠، ينابيع المودّة ٣: ٦٥.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

ركبتُ على اسمِ اللهِ في سُفُنِ النَّجا   وهم آلُ بيتِ المصطفى سيّدِ الرسلِ
وأمسكتُ حبلَ الله وهو ولاؤهم   كما قد أمرنا بالتَّمسُّكِ بالحبلِ[1]

فهذا هو الولاء للعترة، يقول رسول الله ﷺ: **«النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ للسماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لاهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»**[2].

وهذا المقدّس استهدفه الأُمويّون بكل ما أُوتوا من قوّة وطاقة، وقتلوا أشياء كثيرة من الأخلاق الكريمة التي كان العرب يشعرون بالعار منها، فالعربي مثلاً كان إذا شتمته امرأة أو قاتلته فإنه يستحي أن يردّ عليها أو يقاتلها؛ لأن قتل المرأة يشكّل عاراً في حضارة العرب وكذلك ضربها. أمّا الأُمويّون فقد ضربوا النساء وقتلوا الأطفال. وحتى في الأحكام الإسلاميّة عندنا فإن المرأة في حالات معيّنة تحبس حبساً مؤبّداً، غير أن الإسلام أعفاها (في حالات معيّنة من الفقه الجنائي) من القتل، فالرجل يُقتل بها أمّا المرأة فلا تُقتل به[3].

فالأُمويون قد استهدفوا حرمة العترة وحرم رسول الله ﷺ، فقد قتلوا

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ٧٧، رشفة الصادي: ٢٥.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

(٣) لم ينقل من طرقنا إلّا عن ابن الجنيد وفاقاً لأهل السنّة، كما في جواهر الكلام ٤٢: ١٧٠. وكذلك لا تقتل المرأة ولو ارتدّت كما في الخلاف ٥: ٣٥١ / المسألة: ١، المجموع شرح المهذّب ١٩: ٢٢٨، ولا عند الحرب إلّا إذا شهرت السلاح وقاتلت كما في مواهب الجليل ٤: ٥٤٣.

الرجال وانتهت المعركة، فلماذا أحرقوا الخيم علىٰ طفل ذي سنتين أو أربع سنين؟ فهل هذه قيم إسلاميّة، أو حتى عربية[١]؟ إن هذه التصرّفات تنمّ عن حقد، ودافعها الأول هو إزالة مكانة العترة وحبّهم من النفوس.

المقدّس الرابع: المدينة المنوّرة

ومن المقدّسات التي استهدفها الأُمويّون المدينة المنورة، والأُمويّون لهم موقف سلبي خاصّ من مدينة رسول الله ﷺ، وذلك يعود لسببين:

السبب الأول: أنها تحمل شعار: لا لخلافة الأمويّين

فلا تجد لبنة من جدران المدينة إلّا وتحمل شعار رسول الله ﷺ: **«إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان»**[٢]. فالمدينة كلّها سمعت صوت النبي ﷺ علىٰ المنبر حينما كان واجماً، فقال له أصحابه: يارسول الله مابالك؟ قال: **«رأيت بني أُميّة ينزون علىٰ منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ»**[٣].

---

(١) وقد قال لهم الإمام الحسين عليه السلام: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون». اللهوف في قتلى الطفوف: ٧١.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

وقد رأىٰ النبي ﷺ ذات يوم أبا سفيان راكباً ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه، فقال ﷺ : **«لعن الله السائق والراكب والقائد»**(١).

فكل هذه الشعارات سمعها أهل المدينة، وكانت تعجّ بها جدرانها.

السبب الثاني: أنها معقل أنصار رسول الله ﷺ

فالمدينة معقل الأنصار الذين يعبّر رسول الله ﷺ عنهم بقوله: **«إن الأنصار عيبتي وكرشي»**(٢)، حيث إنه ﷺ كان يعتبرهم أهله؛ فقد وقفوا كلّهم إلى جانبه ﷺ إلّا واحداً من الأراذل وهو النعمان بن بشير، وكذلك كانوا إلىٰ جانب الإمام علي عليه السلام. ولذلك فإن المدينة المنوّرة كانت تحتضن كلّ من يقف بوجه الأُمويّين، وهي تحمل شعار الإسلام. فدخل في خلد هؤلاء أن المدينة أخذت الزعامة من مكّة، فقد كانوا لا يعرفون مسألة النبوّة، بل كل ما يهمهم هو السلطة، فحينما دخل النبي ﷺ في فتح مكّة قال لعمه العباس: **«احبس أبا سفيان في مضيق الوادي، ولتمرّ عليه كتائب المسلمين»**. فلمّا رأىٰ الكتائب قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له: ويحك، ليس هو الملك وإنما هي النبوة(٣).

---

(١) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٢) بحار الأنوار ٣٨: ١٧٧، مسند أحمد ٣: ١٦٢، ٥٠٠، ٥: ٢٢٤.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٣٣٢، أُسد الغابة ٥: ٢١٦، البداية والنهاية ٤: ٣٣٢، تاريخ مدينة دمشق ٣: ٤٥. ويروى أنه جاء به العبّاس بن عبد المطّلب إبّان فتح مكّة إلىٰ رسول الله ﷺ ، فقال له: «ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلّا الله؟». فقال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمك وأكرمك! لقد علمت أنه لو كان معه غيره، لأغنىٰ عنّا شيئاً يوم بدر. فقال ﷺ : «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟». فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك! أما هذه، ففي النفس منها شيء. فقال له العبّاس: ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقُك. فأظهر الإسلام حينئذ؛

وهكذا فإن هؤلاء يظنّون أنه صراع علىٰ الملك، وأن النبي ﷺ قد انتزع الملك لنفسه[١]:

لعبت هاشمُ بالملكِ فلا   خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ[٢]

فالمدينة المنورة مقدّسة بما حملت من آثار الوحي، وبما تزعّمته من قيادة للجزيرة ولمجتمع المسلمين، وبما سمعته من قول الوحي والرسول ﷺ فيهم. وكان أن استهدفها الأُمويون لهذين السببين، حتى وصلت الأُمور إلىٰ درجة مزرية، حيث أباحوها ثلاثة أيام، وهُتكت أعراض المسلمين؛ إذ

☚ حقناً لدمه، فقبل النبي ﷺ منه ذلك.

ولمّا دخل النبي ﷺ مكّة، خرج علىٰ أبي سفيان وهو في المسجد الحرام، فلمّا نظر إليه أبو سفيان، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله ﷺ، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «بالله غلبتك». بغية الباحث (ابن أبي أُسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

وحينما رأىٰ الناس يطؤون عقب رسول الله ﷺ يوم الفتح، حسده، وقال في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل. فجاءه النبي ﷺ، فضرب بيده في صدره، وقال له: «إذن يخزيك الله». الإصابة ٢: ١٧٩ / ٤٠٤٦، البداية والنهاية ٤: ٣٤٨.

(١) روي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني أهاهنا أحد. قال الزبير: نعم، والله لأكتمنّها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

وروي أنه لما بويع لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أُميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة. فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) البيت لابن الزبعرى، وقد تمثّل به يزيد مرّتين كما سبق أن أشرنا. انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨.

أُبيحت لجنود أهل الشام، وكان الجندي يأخذ الطفل من صدر أُمه ويضرب به الجدار حتى ينتثر مخّه على الأرض، وتركوا الخيل تبول داخل القبر النبوي الشريف، وسالت الدماء التي سفكوها أنهاراً، ونهبت الأموال، ثم بعد ذلك يجلس مسرف بن عقبة ويقول: ايتوني بأهل المدينة يبايعوا على أنهم عبيد أقنان نتحكّم بدمائهم وأموالهم وأعراضهم[١].

فهذه هي بصماتهم التي خلّفوها في المدينة التي هي موضع قداسة عند المسلمين، والمنطلق الذي بزغت منه الحضارة الإسلاميّة، وعلى التراب الذي وطئه رسول الله ﷺ. فالنعرة الجاهليّة لايروق لها ذلك التطوّر، فهذه ليست مسألة حقد شخصي، ولو كانت المسألة مسألة دم فإنه يكفيها أن آلتهم القمعيّة بسر بن أرطاة قتل ثلاثين ألفاً. وهذا ما ذكره المؤرّخون، كما في (تاريخ الطبري)[٢] و(الكامل) لابن الأثير[٣] و(مروج الذهب)[٤] للمسعودي، وذلك من المدن التي مرَّ بها حينما أرسله معاوية إلى المدينة واليمن. وقد سبى الكثير من النساء المسلمات من همدان، فكنّ أوّل نساء يسبين في الإسلام، وبعد سبيهن أُقمن في الأسواق ليبعن[٥]. فالمسألة إذن كانت استهدافاً للإسلام.

فظائعهم في وقعة الطف

وكذلك كانت الساحة في الطف، فقد شكّلت صراعاً كبيراً بين أهل **«لا إله إلّا الله»** وبين أهل عبادة الأصنام، وتجسّد هذا الصراع في أشخاص، فهنا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٨١، مروج الذهب ٢: ٨٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٤) مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢.

(٥) الاستيعاب ١: ٢٤٣ / ١٧٥.

معسكر رسول الله ﷺ، وهناك معسكر الجاهلية.

فالقضيّة اليومَ إذن هي تعبئة بين قوىٰ الجاهلية والباطل وبين قوىٰ الإسلام والحق؛ ففي اليوم التاسع من المحرّم عبّأ عمر بن سعد أصحابه؛ لأن جيوش الأمويّين قد تكاملت فيه.

حجم الجيش الأموي

وقد يتساءل متسائل فيقول: ألا توجد مبالغة في تصوير العدد الذي خرج لقتال الحسين؟ فإن يزيد حتماً يملك جهاز استخبارات، وبالتالي فإنه يعرف الحجم الحقيقي لجيش الإمام الحسين ﵇، وأن عدده لايتجاوز السبعين؛ فيكفي حينها جيش قوامه ألف نسمة مثلاً لقتالهم، فلماذا أخرج كلّ هذا العدد الضخم؟

ونقول: إن الأمويّين كانوا يظنّون أن جيش الإمام الحسين ﵇ سوف لن يقتصر على هذا العدد القليل، فقد كانوا يتوقّعون أن الدنيا كلّها ستنقلب معه عليهم؛ لأنهم يدركون جيّداً ماالذي فعلوه في الدنيا، وهذا شاعر يقوم إلىٰ معاوية ويخاطبه (في أيامه) ويقول له:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميراً على الناس العبيدِ
فهبنا أمّةً ذهبت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أتطمعُ في الخلافةِ إذ هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلودِ
وأعطونا السويّةَ لا تزرْكم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[1]

---

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.

أمّا الآخر فيقول:

شربنا الغيظَ حتىٰ لو سُقينا دمـاءَ بني أُميّةَ ما روينا

لقد ضاعت رعيّتُكم وأنتم تـصيدون الأرانبَ غافلينا[1]

فإنهم يعرفون مافعلوا بالمسلمين، وكانوا يتوقّعون أن تخرج جيوش جرّارة مع الإمام الحسين؛ ولذلك عبؤوا أكثر عدد يستطيعون تعبئته، وهو ثلاثون ألفاً كما تقول الرواية عن الإمام الصادق: **«أُزلف إلىٰ قتال جدي الحسين ثلاثون الفاً»**. أو سبعون ألفاً علىٰ الروايات المختلفة. ففي مثل هذا اليوم تمّت التعبئة الكاملة لقتال الإمام الحسين، أمّا هو (سلام الله عليه) فقد عبّأ جيشه، وهو عبارة عن صفوة الدنيا.

يقول المؤرّخون: زحفت الخيل إلىٰ الحسين، وهو جالس أمام الخباء فاحتمىٰ بسيفه، وجاءت الخيل والرجال، ونادىٰ منادي ابن سعد: إن الأمير عبيد الله أمرنا أن نعرض عليكم الاستسلام أو القتال؛ فإن استسلمتم بعثنا بكم إليهم سلماً، وإن أبيتم ناجزناكم القتال. ولما جنّ عليهم الليل استدعىٰ الإمام الحسين أصحابه وقال: **«هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وتفرّقوا في سواده؛ الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»**[2].

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام العطّار. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

(٢) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

فهوعليه السلام يطلب منهم أن يتركوه ليواجه مصيره وحده، لكن طيب منبتهم أثبتهم معه، فعبّأعليه السلام معسكره وحمل علىٰ يده رسالة القرآن، وعبّأ عبيد الله بن زياد جيشه وحمل على يديه نعرات الجاهليّة، فالصراع يبتدئ اليوم. وهنا موقف لزينب أُخت الحسينعليه السلام وشريكته في الكفاح، ذلك أنها لمحت على وجه أخيها غمامة من الحزن، فأقبلت إليه وقالت: فداؤك نفسي أبا عبد الله، فأنت ابن علي بن أبي طالب الذي يقول: «**لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرُّقهم عنّي وحشة**»[1]. وأنت ابن حمزة بن عبد المطلب، وأنت ابن جعفر الذي يقول:

يانفسُ أقسمت لتنزِلنّ ... طوعاً وإلّا سوف تُكرَهِنّ[2]

فأنت ابن هذا البيت والأُسرة، فما هذا الحزن؟ فقال الحسينعليه السلام: «**لا حيث ظننت**»، فلا تظنّي أن هذا الجيش يرعبني، فقد خرجت وأنا عارف بمصيري، «**ولكن أُخيّة أنا أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي**».

وهذا سمو عجيب:

ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن ... حتىٰ على من قاتلوك حقودا
وعلمت أنك نائل ماتبتغي ... حتماً وإن يكُ شلْوُك المقدودا
ظنّوا بأن يزيدَهم قتل الحسيـ ... ـنَ وإنما قتل الحسينُ يزيدا

فمبادئ الجاهلية هذه قد قتلها الإمام الحسينعليه السلام، فدخلت زينبعليها السلام للمخيّم، وقد طلب الإمام الحسينعليه السلام منهم إمهاله هذه الليلة، فتراجع معسكر عمرو بن سعد وتراجع الإمام الحسينعليه السلام بمن معه، ودخل خيمته، فأحسّت

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٨: ١٢٣، ونسبه لعبد الله بن رواحة.

النساء بما سيحصل غداً، فبدأت بعض الدموع تلوح على وجوه بنات الزهراء، فبادر الإمام الحسين إليهن والتفت إلىٰ أُخته زينب وقال لها: «أخيّة أسكتيهن؛ فسيكثر البكاء من بعدنا». فأنا الآن لا أُريد دمعة وإنما أُريد صموداً وموقفاً. وفعلاً صمدت هي وأخواتها، لكن عندما جن عليها الليل في الليلة الحادية عشرة من المحرّم، وهدأ بعض العيال والأطفال راحت تشتكي لأخيها مامرّ عليها:

شصار بأهالينا ونسونه　　بديار غربه ضيعونه

نشچي التعب ما يرحمونه

ففي هذا اليوم وقع عليها عبء القافلة ومسؤولية العائلة. يقول أحد الكتّاب: إنها كانت تحمل على يد ضيافة الرجال، وعلى يد أُخرىٰ رعاية العيال، وتتحمل آلام المعركة. وهي المسؤولة الوحيدة عن هذا العدد الضخم، ولهذا كان لها ساعات تنفرد بها مع الحسين تبثّه آلامها:

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها　　رُعباً غَداةَ عَليها خدرَها هجموا

عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفَت　　أيدي العدوّ ولكن من لها بِهُمُ[1]

* * *

نايم يخو زينب يواعي　　ما هيجنك هالنواعي

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

﴿١٠٥﴾

بناء الإنسان المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً﴾[1].

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل: خصائص السور المكية والمدنية

المعروف أن سور القرآن بعضها مكي، وهو مجموعة السور التي نزلت في مكّة المكرّمة، وبعضها الآخر مدني وهو مجموعة السور التي نزلت في المدينة المنوّرة. وهناك آيات نزلت في الطريق إلىٰ هذين البلدين أو في أماكن قريبة منهما لكن تلحق إما بهذا أو بهذا. ونسبة المكي إلىٰ القرآن (١٩: ٣٠) أي ما يوازي (٦٢/٧٪) تقريباً، ونسبة المدني (١١: ٣٠) أي ما يوازي (٣٦/٣٪)؛ والسبب في ذلك أن القرآن الذي نزل في مكّة إنما نزل لبناء الإنسان وتصحيح عقيدته وتخليصه من شوائب الشرك ورواسبه. وبناء الإنسان ليس بالأمر السهل أو الهيّن، بل هو من أصعب الأُمور، ويستغرق

---

(١) المدّثّر: ١١ ـ ١٣.

وقتاً طويلاً لكي يؤتي أُكله.

وعملية تربية هذا الإنسان يمكن تشبيهها بالأرض التي يراد زراعتها، فهي تستصلح بعدّة مراحل: قطع النباتات والأعشاب الضارّة، ثمّ حراثتها، ثمّ بزلها لو كانت مالحة، ثمّ تغذيتها بالسماد، وبعد ذلك تأتي مرحلة بذر البذور، وتنميتها وسقيها حتىٰ تثمر. والإنسان كذلك لكن ـ كما قلنا ـ يحتاج إلى فترة أطول وعمليّة أعقد؛ لأن الإسلام بصدد قلع عقيدة راسخة عنده، ثمّ يزرع عقيدة جديدة محلّها، ثمّ يتعاهد هذه العقيدة حتىٰ تنمو وتكبّر في نفسه. فبناء عمارة ضخمة قد لا يستغرق وقتاً، لكن بناء العقيدة يأخذ قروناً، وها نحن بعد أربعة عشر قرناً لايزال بعضنا يعمل بعادات الجاهلية كرمي السن المقتلع تجاه الشمس، وغيره كثير. والإنسان من حيث إنه أشرف الموجودات فإن بناءه يحتاج إلىٰ زمان طويل، وعمل ضخم، ومعاناة، كي تثمر النتيجة المرجوّة من ذلك.

والإسلام نزل في الجزيرة التي يعتنق أهلها ميراثاً جاهليّاً متجذّراً في نفوسهم ليس من السهل إزالته، بل لابدّ لذلك من هذه الفترة الطويلة والمقدار الضخم من التوجيه؛ كي يمكن وضع العقيدة الجديدة مكان السابقة.

المبحث الثاني: في سبب النزول

وبعد هذا البيان لننظر إلى الآيات الكريمة ولنرَ ما الذي تعالجه؟ وما هو سبب نزولها؟

أما سبب نزولها فإن الوليد بن المغيرة ـ وكان ثرياً ثراءً فاحشاً، وله ثلاثة عشر ولداً، وكان أيضاً من جبابرة قريش وذا مكانة كبيرة عند قومه، وكان يفتخر بأنه لا يوازيه أحد ـ دخل علىٰ رسول اللّه﴿ص﴾ فوجده يقرأ القرآن،

والقرآن له إيقاع يأخذ بالألباب وله جذبات روحية رائعة، والعرب يستذوقون الكلام الجميل ـ أي بتعبيرنا: سمّيعة ـ وينبهرون من الكلمة التي لها رنين وموسيقىٰ، وكان الوليد ذا حسّ أدبي، فسمعه يقرأ: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾[1].

فخرج من عنده وهو يقول: «سمعت كلاماً لا هو من كلام الجن ولا من كلام الإنس، أعلاه مورق وأسفله مغدق، وإن عليه حلاوة وإن فيه طلاوة». فقيل له: أتسميه شعراً؟ قال: لا، قيل: أفتسميه كهانة؟ قال: لا، فمحمد ليس شاعراً ولا كاهناً. قيل: فنقول: سحر؟ قال: أما هذا فنعم، لأن كلام هذا الرجل يفرّق بين المرء وزوجه، فما إن يسمعه سامع حتىٰ يتّبعه ويترك أهله وأبناءه وزوجه؛ فهذا التعبير به أنسب. فنزل النصّ الشريف[2].

المبحث الثالث: في صاحب الحال ﴿وَحِيداً﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾، وهذه الحال يمكن إعادتها علىٰ الخالق، ويمكن إعادتها علىٰ المخلوق. ويختلف المعنىٰ باختلاف صاحبها الذي تعاد عليه. وللمفسّرين هنا في تحديد صاحب الحال فرضان:

الفرض الأوّل: أنه الخالق جلّ وعلا

وعليه فإن المعنىٰ حينئذٍ سيكون: اتركني وحدي مع هذا المتباهي بأن له تجارة يسيطر بها علىٰ غيره، وأبناء يعزّ بهم ويدافعون عنه، وجاهاً ومكانة في قومه، ومالاً كثيراً يشتري به مايريد من أسلحة لمحاربة المسلمين، مع ما

---

(١) غافر: ١ ـ ٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥.

كان عليه المسلمون في أوّل أمرهم من كونهم ضعافاً لا يملكون شيئاً من وسائل التحرّك، فلا سلاح ولا مقاتلين.

ثم إن الطبقة التي انتمت إلىٰ الإسلام أوّل أمره هي طبقة الفقراء والكادحين والضعفاء، وهذا هو غالب شأن النهضات الإصلاحية؛ إذ أوّل من يتابعها وينتمي إليها هم هؤلاء، أما الأغنياء فليس هناك شيء يدفعهم لخوض أمثال هذه التجربة التي قد يدور في خلدهم أنها ربما تكون غير ناجحة وبالتالي سيخسرون أموالهم ومكانتهم وجاههم.

إذن هؤلاء ليس عندهم أي دافع للخروج مع الحركات الإصلاحية، أما الفقراء منهم فخلاف ذلك؛ لأنهم يحاولون ـ من خلال تدعيم هذه الحركات ـ تحسين مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾[(١)]، أي دعني معهم أعاملهم بما يستحقّون؛ لأن أموالهم وجاههم ومكانتهم شغلتهم عن اللّه وعن اتّباع دينه.

فاللّه تعالىٰ يخاطب نبيّه ويقول له: إنكم لا تستطيعون أن تقوموا بهذا الأمر لوحدكم وبأنفسكم؛ ولذا فاتركوا الأمر لي، فأنا سأقوم بمعالجة هذا الطريق وتعبيده وتهيئة سبله لكم. وهذا ـ كما هو معروف ـ شأن كلّ الشعوب المستضعفة؛ حيث إنها تجبر علىٰ تحمّل الظلم والتعدّي والاعتداء، وعناد الظالم إلىٰ أن تتسنّىٰ لها فرصة للتحرّك والأخذ بحقها. والتاريخ خير شاهد علىٰ ذلك[(٢)].

---

(١) المزمل: ١١.

(٢) كما في الثورة الفرنسية والأمريكية وثورة الهند وثورات البلاد الإسلاميّة والعربية.

وهذا ما حصل بالفعل من ناحية مبدئيّة؛ فقد أذلّ كبرياءهم وحطّم طاغوتهم، وإلّا فمن غير المعقول أن يكسب المسلمون معركة بدر، وهم أقلّ عدداً وعدّة؛ فكانوا يحملون الجريد وكان عندهم خمسة سيوف وفرَسان اثنتان، أما قريش فكانت مسلحة تسليحاً كاملاً بما عندها من ترسانة وأموال، فضلاً عن المقاتلين.

وهكذا تغلّب الجريد علىٰ السيوف. وأُلفت نظرك إلىٰ أن هذه الجريدة كانت يُصاحبها العزم والعقيدة، وإذا صحبها ذلك فإنها ستفعل في ساحة الحرب ما يعجز عن فعله أقوىٰ سلاح، بل إنها ستكون أشدّ فتكاً بهذه الخصوصية. والجندي إذا سلّح بالعقيدة فإنه يزوّد بأعظم الأسلحة، وسيحارب أعتىٰ قوّة، أما إذا كان منهزماً من الداخل فمهما أعطيته من سلاح فإنه لن يجدي معه نفعاً، ولن يستفيد منه أو يفيد به، ولن يفعل أي فعل عبر استعماله، يقول أحد الأدباء:

أيها المستعير ألف سلاح ... لأعاديك أين ما تستعيرُ

هزّك الذعر لا الحديد ولا النا ... ر وعبءٌ علىٰ المدىٰ المذعورُ

وهذا هو الذي يحصل بالفعل، فالإنسان إن لم يتسلّح بالعقيدة التي يجب أن يدافع عنها فلن يكسب النصر أبداً. والمسلمون إنما صنعوا انتصاراتهم، ووصلوا إلىٰ هذه الانجازات الضخمة من إسقاط أعتىٰ دولتين كبريين آنذاك بما كانوا يملكونه من عزائم، وما يسلَّحون به من عقيدة تدفعهم إلىٰ اقتطاف النصر اقتطافاً. وهكذا كان أحدهم يحمل في نفسه عزيمة جيش بأكمله.

وكلّنا يسمع أو يقرأ عن البعض ـ حينما يُراد وصف شجاعته ـ بأنه يعدل عشرة آلاف فارس، وهذا معناه أن عنده عزيمة جيش؛ فلا يخاف الموت

ولا يخشىٰ الحرب، بل إنه يلقي بنفسه في لهواتها. وأنا أقصد بالعزم هنا العزم الواعي لا العزم الأهوج واللاواعي.

فاللّه تعالىٰ حينما قال لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾، فإنه تعالىٰ فعلاً عبّد الطريق للمسلمين عبر إذلال قريش وتحطيم كبريائهم وغطرستهم، وأعطاهم التأييد بالنصر من عنده[1]؛ لأنهم كانوا منقطعين إلىٰ اللّه عزّ وجلّ، ولم يلتجئوا إلىٰ قوّتهم وإمكانياتهم، وهو ما يعبّر عنه بقوله: «لا حول ولا قوة إلّا باللّه»، أما الآخر الذي يتجرّد من هذه الارتباطات فإنه يقول: لي حول ولي طول وقوة، وأنا أتصرّف من منطلق قوتي وإمكاناتي. ومثل هذا فإنه لن ينال النصر أبداً ولو علىٰ المدىٰ القصير.

وهذا كلّه مبتنٍ علىٰ كون ﴿وَحِيداً﴾ حالاً من الخالق تبارك وتعالىٰ.

الفرض الثاني: أنه المخلوق

وللمفسّرين في هذه المسألة أربعة آراء هي:

الرأي الأوّل: أن اللّه خلقه وليداً وحيداً

أي اتركني مع هذا الإنسان الذي يتكبّر ويتجبّر، وقد خلقته وليداً لوحده، لا حول له ولا قوّة.

الرأي الثاني: ادّعاؤه أنه أوحد أهل زمانه

ومعنىٰ هذا أن البعض من قريش كان يقول: إني وحيد بين قومي عزّاً وقوّة

(١) قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥.
وقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ التوبة: ٢٦.

ومالاً ومنعة ؛ فلا يدانيني في هذا الأمور أحد. فأنا الوحيد من بينهم المتّصف بهذه الصفات. فيخاطب اللّه تعالىٰ هنا نبيّه الكريم بقوله: ﴿ذَرْنِي﴾ أي اتركني معه ؛ لأن أمواله وقوّته ومنعته التي يتحدّث عنها سوف لن تنفعه حيال اللّه أبداً ؛ فاللّه تعالىٰ قادر علىٰ أن يسلبه إياها في أيّة لحظة.

الرأي الثالث: أنه سيحشر وحيداً

وهذا الرأي يتداخل مع الرأي الثاني ذلك أن هذا الإنسان المغترّ بالدنيا والمخدوع بماله وقوّته ليس له في حقيقة الأمر أي شيء من ماله، وكذلك المتعزّز والمتمنّع بأولاده ؛ ذلك أن أولاده شأنهم وشأنه القبر. فإذا أوصلوه قبره وأهالوا عليه التراب رجعوا عنه. وهؤلاء الأولاد ربما ذكروه بشيء من البرّ والقرآن، أما البعض فربما لا يكتفي بنسيانه من فعل البرّ وقراءة القرآن، بل إنهم ربما أساؤوا إليه وهو ميت.

أمّا المال فلا يدخل معه إلىٰ قبره منه شيء سوىٰ الكفن: «**خذ مني كفنك، واتركني للوارث**»[1]. فهو سيترك كل ما كان يملك بالملكيّة الاعتبارية التخويلية وراءه للوارث، ولا يخرج من الدنيا إلّا بالكفن.

وكذلك المكانة الاجتماعيّة والمنصب والسلطة والجاه فإنه سيخلّفها وراءه، ولن يستفيد منها هناك بشيء إلّا إذا أحقّ حقّاً وأبطل باطلاً، وهو عمله الصالح. وكذلك أسرته وجميع وسائل الكمال الأخرىٰ التي كان يتزوّد

---

(١) الكافي ٣: ٢٣١ / ١، الفقيه ١: ١٣٧ / ٣٧٠، وليس فيه: «واتركني للوارث» بل تمامه: «فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محبّاً، وإني كنت عليكم لمحامياً، فماذا عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك، ونواريك فيها. فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنك كنت علي لثقيلاً، وإني كنت فيك لزاهداً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك، حتى أعرض أنا وأنت على ربك».

بها، فإنه يخلّفها وراءه ويخرج من الدنيا لوحده. مرّ أحدهم علىٰ قصر النعمان، فأنشأ يقول:

ماذا أؤمّل بعدَ آلِ محرّق ... تركوا منازلَهم وبعدَ أيادِ
أهلِ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشرفاتِ من سندادِ[1]

فهؤلاء مع ما بنوا من عظيم الدور والقصور تركوها ولم يأخذوا منها شيئاً.. تركوها تعوي بها الريح، ويرتادها ابن آوىٰ ووحش الفلاة:

إن ذاك القصرَ الذي داعب الأفـ ... ـقَ وخرّت له الملوكُ سجودا
هتف الوزقُ في ذراه ينادي ... أين من صيّروا الملوكَ عبيدا

فالذي نستفيده من سنّة التاريخ هذه أن الكوخ الذي يُعمر بطاعة اللّه هو الذي يبقىٰ خالداً مع الدهر. فحينما دفن الإمام الحسين﴿ع﴾ وضعوا علىٰ قبره الشريف صخرة وسدرة ليهتدي بها زوّاره إليه، وحتىٰ هذه السدرة اقتلعها المتوكّل ليموّه موقع القبر علىٰ زائريه بعد أن أعياه منعه إيّاهم عنه. وكذلك رفع تلك الصخرة عنه. والآن انظر إلىٰ تلك القصور الضخمة التي شيّدت آنذاك كالجوسق والجعفري، وانظر إلىٰ ضريح الحسين﴿ع﴾، وإلى المدافع والمعارك التي حاولت هدمه، فهل استطاعت ذلك؟ طبعاً لا، وحتىٰ لو تمكّنت من ذلك فإنها كمن لم يفعل شيئاً[2]؛ لأن الإمام الحسين﴿ع﴾ يعيش

---

(١) البيتان للأسود بن يعفر التميمي. كتاب التوّابين: ٤٤. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ١١٠. ونسبا لأعشى قيس، انظر البداية والنهاية ٢: ٢٤٤.

(٢) قال الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها ... فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

بين الأضالع، وفي القلوب والمشاعر. وهذا هو الخلود الحقيقي الذي هو عبارة عن أخذ المخلّد مكاناً من المشاعر والوعي. وقد ناجاه عليه السلام أحد الشعراء بقوله:

تسامرني والكائناتُ هجوعُ ... لدنياك في قلبِ الظلامِ شموعُ

سهرت عليها الليلَ استلهم الرؤىٰ ... فألهمَني ممّا وهبت نجيعُ

نجيعٌ مشىٰ عبر القرونِ بخصبه ... فلا دهرَ إلّا من حباه ربيعُ

وفعلاً كان الإمام الحسين عليه السلام هكذا.

الرأي الرابع: أنه لا أب شرعيّ له

لقد كانت العرب تسمي المتكوّن من ماء حرام، أو اختلطت فيه المياه وحيداً. وهكذا مذكور في أغلب التفاسير كتفسير القرطبي[١] والفخر الرازي[٢] و(روح المعاني) للآلوسي ومن تفاسير الشيعة (مجمع البيان)[٣] للطبرسي وغيره[٤]، فكلّ هؤلاء وغيرهم يذكرون هذه النظرية في تفسير ﴿وَحِيداً﴾.

وإنما كانت العرب تسميه كذلك لأنه لا يندمج مع المجتمع الإنساني عن طريق الآباء الشرعيين، خلاف المتولّد عن طريق شرعي؛ فإنه يندمج بالإنسانية عبر سلسلة آبائه وأجداده وصولاً إلىٰ جدّنا آدم عليه السلام.

وقد يعبّر عنه بلفظ (ابن أبيه). وفي التعبير مشكلة لمن يطلقه إزاء من يطلقه بحقّه، وقد تعرّضت له أم المؤمنين عائشة ذات يوم؛ إذ كان زياد قد كتب رسالة إليها، فلمّا أرادت أن تردّ له الجواب تحيّرت في الذي ستكتبه له؛

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٧١.
(٢) التفسير الكبير ٣٠: ١٧٥.
(٣) مجمع البيان ١٠: ١٧٩.
(٤) تفسير القمي ٢: ٣٩٤.

هل تكتب: زياد بن أبي سفيان وهذا كـذب؛ لأن النـبيﷺ يـقول: «**الولد للفراش**»(١)، أم: زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً فـي نـفسه وخاطره ويغضبه؟ وبعد تفكير كتبت: من أم المؤمنين عائشة إلىٰ ولدها زياد. فلمّا وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قـائلاً: أراك تـبسّمت؟ فقال: لقد لقيت أمّ المؤمنين عائشة من هذا العنوان نصباً(٢).

والذي نفهمه من هذا التعبير القرآني علىٰ ضوء هذا التفسير أن الأُسرة هي التركيب السليم الذي يساوق الفطرة في بناء المجتمع.

دعاوى هدم الأسرة

وفي هذا ردّ واضح علىٰ بعض الفلسفات والأفكار والدعوات التي طرحها البعض والتي تحاول هدم الأُسرة عبر ادّعاء أن الإنسان يستطيع أن يـعيش بدون أُسرة؛ فلا داعي إذن لوجودها، وبالنتيجة لا حاجة لوجود أب أو أمّ له؛ لأنه المفروض بالإنسان أن يكون ابن الشعب، والشعب هو أُسرته وهو أُمّه وهو أبوه.

وهؤلاء لم يطلقوا دعواهم هذه من لا شيء، بل هم يـعزونها إلىٰ سـبب يرونه هم وجيهاً، وهو أن الإنسان إذا انتمىٰ إلىٰ أب وأُمّ، وشُحن بهذا الشعور وشُجّع عليه، فإننا إنما ننمّي عنده الشعور العنصري والطبقي، فيصبح إنساناً أنانياً. فهو بإحساسه وشعوره بانتمائه لآبائه وأجداده الذيـن امـتاز بـعضهم بتوفّره علىٰ بعض عناصر المجد والشهرة أو مَواطـن الفـخر، فـإنه سـيشعر

---

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ٢، ٤٩٢ / ٣، ٧: ١٦٣ / ١ - ٢، مسند أحمد ١: ٢٥، ٥٩، ٦٥، ٦٩، وغيرها كثير.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

بالزهو والاعتزاز والتميّز علىٰ أبناء مجتمعه، وسيرىٰ نفسه أرفع منهم، وأنه ذو أيادٍ وأفضال عليهم، في حين أننا نريد من المجتمع أن يكون بأسره متساوياً.

حقيقة هذه الدعاوىٰ

وفي حقيقة الحال أن هذه الدعاوى لا تعدو كونها خدعة يراد بها استغلال المجتمع وتفكيكه والقضاء علىٰ أواصره الأُسريّة والاجتماعية، وبذر نبتة التحلّل فيه عبر الدعوة إلىٰ جعل المرأة سلعة مشاعاً، والرجل كذلك، وبالتالي محو قيم المجتمع وآدابه وأخلاقيّاته.

وقد باءت كل محاولاتهم هذه بالفشل؛ فما أكثر ما حاولوا وما رفعوا من شعارات حول هذا الموضوع، لكنهم في النهاية لم يجنوا سوىٰ الخيبة ولم يحصدوا سوىٰ الهزيمة أمام إصرار المجتمع علىٰ بقائه في الوضع الطبيعي والفطري الذي وجد عليه. وهذه الدعاوى لم تكن من فلسفة واحدة بل هناك فلسفات كثيرة علىٰ مرّ التاريخ حاولت أن تنمّي هذه الفكرة وتحقّقها علىٰ أرض الواقع. ومن هؤلاء «مزدك» الذي تبنّت فلسفته هذه النظرية ودعت إليها بشدة، وكذلك بعض اليونانيين[1] والرومانيين وأخيراً الفلسفة الماركسية. لكن هذه الأفكار انهزمت كلّها في النهاية كما قلنا، ولم تصمد أمام الواقع والفطرة، وبقيت الأُسرة كما هي عنواناً طبيعيّاً للمجتمع.

وهذا راجع إلى أن الإنسان ليس مركباً علىٰ إشباع رغبته الجنسية فقط، بل هو مركب علىٰ كونه كائناً اجتماعياً تبادلياً يحتاج إلى المجموعة والأُسرة

---

(١) كأفلاطون في جمهوريته.

والمجتمع. فالأُسرة علاقة أساسها بناء المجتمع وتنظيمه.

فالمرأة علىٰ فلسفتهم تلك حينما تكون في ريعان الشباب وتمتلك مقوّمات الجمال والجاذبية فإنها ستكون مرغوباً فيها وتنال إعجاب وإقبال الآخرين، لكن إذا بلغت سنّ الخمسين وذهب جمالها وبهاؤها فمن الذي سيرغب فيها حينئذٍ؟ ومن الذي سيتولىٰ رعايتها والعناية بها إذا لم تكن مرتبطة بالآخرين برباط الأُسرة ونظامها؟ وإن مرضت واحتاجت إلىٰ الرعاية الصحية والعلاج فمن الذي يوفّر لها تلك الرعاية والعلاج. وكذلك الأب فإنه حينما يكون شابّاً وافر المال والقوّة فإن النساء سيرغبن به، لكن إذا كبر وشاخ، أو ذهب ماله فهل إن النساء سيبقين على ارتباط به ومعه إذا لم يربطهما رباط أُسري؟

إذن فالمسألة ليست مسألة إشباع حاجة جنسية أو رغبة حيوانية وينتهي الأمر، بل الأمر يتعدّاه إلىٰ بناء الأُسرة وبالتالي بناء المجمتع؛ لأن بناء المجتمع متوقف علىٰ بناء الأُسرة، والعكس صحيح.

ونحن لا يمكن لنا أن نهدم المجتمع بأمثال هذه الفلسفات التافهة التي انهزمت كلها بعد حين كما قلنا. وإلّا فإنه ليس من الضروري أن يستشعر الإنسان الطبقية ويبني نفسه عليها لأنه ابن أُسرة، أو لأن آباءه وأجداده ذوو أمجاد وفخر وعزّة ومنعة. مطلقاً؛ فإن هذا غير صحيح البتة؛ فهناك الكثير من أبناء الأُسر ذات التاريخ العريق والمجد التليد، ومع ذلك فإنهم ذائبون فانون في المجتمع ومن أجله، ومتواضعون لا يتميزون عن أحد من أبنائه البتة؛ لأنهم يعتقدون أن حالهم وحال الناس واحد، ولا فرق بينهم:

النـاسُ من جهةِ التـمثالِ أكـفاءُ ... أبـــوهُمُ آدمٌ والأمُّ حــوّاءُ

فإن يكن لهُمُ في أصلِهم شرفٌ يفاخرون به فالطينُ والماءُ[(١)]

وهذا حسب التربية السليمة التي يخضع لها الإنسان، ذلك أن الأب إذا ربّى ابنه تربية صحيحة وبناه علىٰ الخلق السليم فإنه سوف لن يشعر بالطبقية البتّة، بل سوف لن يكون له علاقة بها مطلقاً. وهذا كما قلنا قد حصل مع الكثير من أبناء العوائل الشريفة والشخصيات المعروفة، فإنهم حينما نشّـؤوا أولادهـم علىٰ السلوك القويم والخلق الكريم، شبّ أبناؤهم وهم يحتقرون الطبقيّة ولا يفكّرون بها بالمرّة.

فهؤلاء قد ربّاهم الدين والتقوىٰ علىٰ التواضع وحبّ الآخرين، بل أنا أُؤكّد لك بأن هذه الأُسر هي التي تربّي عند أبنائها التواضع ورحابة الصدر وحبّ الناس، وتحمُّل مشاكلهم وآلامهم وهمومهم ومشـاركتهم فـيها ومـقاسمتهم إيّاها. ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «آلة الرئاسة سعة الصدر»[(٢)]، أي أن الرئيس لا يكون رئيساً إلّا إذا اتّصف بالحلم وسعة الصدر ورحـابته. فـمن يمتلك سعة صدر يرَ نفسه أباً للناس فانياً فيهم ومتفانياً في خدمتهم.

فالآية الكريمة تقول للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَـقْتُ وَحِيداً﴾ أي اتركني معه فأنا سأذلّه وأكسر شوكته وجبروته لعناده وغطرسته.

موقف المجتمع إزاء الولد غير الشرعي

وهنا نقطة أُحبّ أن أتوقّف عندها ـ وأنا أتوقّف عندها كلما مـررت بـها وسنحت لي الفرصة بذلك ـ وهي أن المجتمع يجب ألّا يحمّل هذا المتولّد من

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٧٠، خصائص الأئمّة عليهم السلام: ١١٠.

غير الطريق الشرعي فوق طاقته؛ لأنه إن فعل ذلك فسيكون مثله بهذا كمثل من يخلق الضحيّة الاجتماعية ثمّ يحاسبها ويقاضيها. إن هذا الضحيّة لا ذنب له أبداً؛ لأنه ثمرة ذلك الإثم أو الخطأ الذي كان الأب والأُم قد اقترفاه، وإلّا فإن الابن لا ذنب له. فإن حمّله المجتمع ذنباً فهو إنما يحمّله فوق طاقته، بل يضع علىٰ ظهره ثقلاً وعبئاً لا يتمكن من أن يتحمّله، من قبيل عدم قبول شهادته وعدم صحّة إمامته للجماعة، وغيرها من الأُمور التي تعني بالضرورة أننا نحمّله أكثر من مشكلة. والحال أننا نحمّله وزر غيره مع علمنا بأنه لا ذنب له ولا وزر.

إن هذا الظلم لا ينسجم مع القواعد، ولا يتّسم بالعدل، قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]. فإن كان هناك نصّ في هذا المورد خلاف هذه القاعدة المذكورة؛ فإن هذا النصّ يجب أن يوجّه؛ لأن هذا الشخص سوف يتأزّم نفسياً إزاء أمثال هذه الأُمور؛ ولذا فإنّ هذا الموضوع بحاجة إلى أن يبحث بصورة أوسع.

المبحث الرابع: في معنىٰ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً﴾

والبحث هنا يتمحور حول ركيزتين:

الركيزة الأولى: المراد من المال

المال لغة مأخوذ من التموّل، وهو الاقتناء[2]. فالمال هو كل ما يُتموّل به، أي ما يقتنىٰ به ويشترىٰ. ويقال في التعبير الاقتصادي عن المال: إنه كلّ ما فيه إشباع.

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) لسان العرب ١١: ٦٣٥ ـ مول.

أقسام المال

والإشباع تارة يكون إشباعاً مباشراً (إشباع رغبة مباشرة)، وتارة يكون إشباعاً غير مباشر (إشباع رغبة غير مباشرة). فكل ما فيه إشباع رغبة مباشرة أو غير مباشرة يسمى عند الاقتصاديين مالاً. وبناء على هذا فإن المال على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يشبع إشباعاً مباشراً

وهو ما فيه إشباع رغبة مباشرة، كالخبز مثلاً والثوب والدار التي تسدّ حاجات مباشرة للإنسان. فهو حينما يجوع فإنه يسدّ جوعه بالرغيف، وحين يعرى يعالج عريه بلبس الثوب، وحين يفتقر إلى المأوى يشبع هذه الرغبة باقتناء دار والسكن فيها.

القسم الثاني: ما يشبع إشباعاً غير مباشر

أمّا ما فيه إشباع رغبة غير مباشرة فمثل ما لو أراد أحد أن يتعلّم كيف يستعمل الماكنة التي تصنع النسيج، أو التي تطحن الحبوب. فهذا مال أيضاً لكنه يشبع من ناحية غير مباشرة. وهكذا وسائل الإنتاج الأُخرىٰ.

القسم الثالث: العمل

ذلك أن العمل يتموّل به. وقد يسأل سائل: كيف يُتموّل بالعمل؟ فيقال في جوابه: إن صاحب العمل أو الصنعة لا يستحقّ الزكاة وإن لم يملك المال؛ لأن ما بيده من صنعة أو مهنة تدرّ عليه المال بالتدريج، فهو يأخذ آخر النهار أو آخر الأُسبوع وارد عمله ذاك ليعيل به نفسه. فهي إذن بمثابة المال؛ كونها توفّر له هذا السبيل في العيش.

وهذا هو الذي يطلق عليه الفقهاء اسم غني بالقوّة؛ كونه يملك المهارة

والقابليّة على العمل، كالمهندس الذي يملك نظريّات معيّنة فيقوم بتطبيقها في مجال عمله، أو العامل الذي يملك خبرة فنيّة في مجال عمله أو غيرهما. فهؤلاء يملكون المال عن هذا الطريق. وهو ما يقابل الغني بالفعل، وهو الذي يملك المال فعلاً.

إذن فكلّ ما فيه إشباع مباشر؛ كالخبز والثوب، أو إشباع غير مباشر كالماكنة، أو تكون نتيجته كسب المال كالعمل فهو يسمى مالاً. أمّا النقد فهو ثمن للمال وليس المال نفسه، أي أنه وسيط في عملية التبادل. ونفهم من هذا أن العمل قسم من أقسام المال.

موارد الثروة غير المشروعة

وأُلفت نظرك إلىٰ حقيقة معتمدة في الاقتصاد الإسلامي، وهي أن كل ثروة لا تأتي من العمل فهي ثروة غير مشروعة إلّا أن تكون عن طريق أقرّها الشارع المقدس كالهبة والميراث، وغيرهما. أما أن يكسب أحد ثروته عن طريق السرقة أو السلب والنهب، وهو المسمىٰ بعرف البعض (البلطجي)، فهذا محرم قطعاً، وصاحبه مهما كسب من مال، ومهما تكدّست عنده من ثروة فهو في الحقيقة لا يملكها ولا تعدّ ثروة بالنسبة له؛ لأنها جاءت عن طريق غير مشروع؛ فهو لص. وكذلك من يأخذ ثروته عن طريق الغش والخداع والادّعاء بغير حق.

وهناك الكثير من ألوان التحصيل القذرة، والأساليب غير النظيفة، لكن الإسلام لا ينظر إليها علىٰ أنها ملكيّة وماليّة داخلتان في نطاق الكسب المشروع. فالإسلام يعدّ المالية المشروعة ما يكسبه الإنسان من كدّه وعرقه وتعبه، ويعدّ هذاالمقدار الضئيل المكتسب عن طريق عرق الجبين أفضل من

قناطير مقنطرة من الذهب لم تكسب عن حلّ.

فتعب الإنسان مقدّس من وجهة نظر الإسلام، ومبارك فيه؛ لأن اللّه يبارك الكسب الطيب والعمل المشروع ويحبّ العبد المحترف[١]، فما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[٢].

أي أن تتعب وتعرق وتأكل من نتاج ذلك التعب والعرق؛ فهذا الطعام هو أفضل ما أكله ابن آدم، لا ما يأكله عن طريق الغش والرشاوى والربا؛ وهي جملة أُمور حرّمها الإسلام؛ لأنها لم تكن عن عمل، فضلاً عن كونها امتصاصاً لدم الآخرين وتعيّشاً علىٰ كدّهم ومتاجرة بمجهودهم.

فكل هذه الموارد لا تعدّ مصادر شرعية للثروة في نظر المشرّع الإسلامي، وما يكتسب عن طريقها يعد مالاً حراماً لا يملكه مكتسبه، ولا تصحّ تصرّفاته فيه.

الركيزة الثانية: معنىٰ المال الممدود

نرجع لموضوعنا، فنقول: ما معنىٰ الممدود في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾؟ إن بعض الناس فيما سبق كان يملك جواري عبيداً وخدماً، فهو يقوم بتشغيل هؤلاء في أمواله وأملاكه، ويقوم بتوظيف أمواله عبرهم. وبعض هؤلاء كان ـ والعياذ باللّه ـ يدفع جواريه للعمل في الفجور والعهر والرذيلة ليكسب المال من عملهن هذا، كما هو الحال مع عبد اللّه بن أُبيّ الذي كان يجبر جواريه علىٰ البغاء في سبيل المال[٣]. وممّا يذكر في هذا

---

(١) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

(٣) فقد كان له ستّ جوارٍ يدفعهن لتلك الرذيلة، وبعد تحريم الزنا جئن إلى رسول اللهﷺ

المجال أن أحدهم دخل على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، إن فلاناً قد توفي وترك أيتاماً وجارية جميلة، أفندفعها لأن تعمل في البغاء لتعولهم؟ فعنّفه النبي ﷺ أشدّ تعنيف، وردّه بأنه لم يجد طريقاً لإعالتهم غير طريق الرذيلة؟ ثمّ قال له: «اخرج»[١].

وقد يستغرب البعض من هذا، مع أننا الآن نشاهد مثل هذا الأمر لكن بثوب آخر غير الثوب الذي كان عليه أيام الأول، أمثال الدعايات التي يروَّج بها للبضائع حيث توضع صور فتيات عاريات عليها كي يسهل تسويقها وبيعها. فأين كرامة الإنسان؟ وأين مراقبة الله في هذه الدنيا؟ ألسنا نحن العرب أصحاب مجد نتغنّىٰ به عن الستر والنجابة[٢]؟

فهذه الألوان التي يقوم البعض عبرها بابتزاز المال تهدر كرامة المرأة، مع أن هذه الأموال التي تكتسب بهذا الطريق لا قيمة لها أمام كرامة المرأة وعفّتها. فهذه المرأة ربما كانت محتاجة ومضطرّة للعمل لإعالة نفسها أو عائلتها، فلماذا يقوم المجتمع باستغلالها أبشع استغلال، مع أن المفروض

☚ فشكون عبد الله إليه، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٣٣.

انظر: مجمع البيان ٧: ٢٤٦، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٢٥٤.

(١) لم نعثر عليه بنصّه، لكن وردت أحاديث كثيرة تحرّم كسب البغي، انظر: أمالي المرتضى ٢: ٧، فتح الباري ٤: ٣٥٤، وغيرهما.

(٢) قال مسكين الدارمي:

ما ضرّ جاراً لي أُجاوره ... ألّا يكون لبابه سترُ
أعمىٰ إذا ما جارتي خرجت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ

شرح نهج البلاغة ١٧: ١٠.

بكل فرد متمكن في هذا المجتمع أن يوفّر لهذه المرأة حاجاتها ومستلزمات حياتها الأولية كما يوفّر ذلك لأهله وعياله؛ فإنه حتماً فيه من يستطيع توفير ذلك دون أن يسبّب له العنت والمشقّة.

علىٰ أي حال فإن المال يمكن أن يقسم إلىٰ قسمين: ممدود كذاك الذي ذكرته الآية الكريمة، ومنقطع، أي له مورد معين في السنة أو في الشهر.

والمعنيّ في هذه الآية الكريمة كان عنده خدم وجوارٍ يشغّلهم في أمواله، وكذلك كانت أمواله تزداد بفعل تجارتي الشتاء والصيف؛ ولذا اسمته ذا مالٍ ممدود ـ أي غير منقطع كما هو حال الغالبية التي تملك وارداً موسمياً فيبقون يعيشون عليه طيلة أيام السنة ـ أما ذو المال الممدود فتجارته عامرة مستمرّة علىٰ أيام السنّة وفي كل المواسم بلا انقطاع ولا حدّ لها.

فالآية الكريمة تقرّر أن هذا قد أطغته أمواله، فهو يعيش في مجتمعه حالة من حالات الطغيان؛ ولذا فإنها تخاطب الرسول الأكرمﷺ وتقول له: اترك أمره إلىٰ اللّه تعالىٰ؛ فإنه هو الذي سيقتصّ منه ويذلّه. كما أنها تؤكد حقيقة أن ماله ليس ملكاً له حقيقة أي أنه سيتركه لغيره ذات يوم ويلاقي ربّه وحيداً لا ناصر له ولا ردء، أما الأموال فسيأخذها غيره شاء أم أبىٰ.

ثمّ إن هذا الآخذ قد لا يذكره منها بخير أبداً، فلن يفكّر أو يقول: إن هذا قد تعب وأكدىٰ في جمعها وتنميتها؛ بل كل ما يهمّه هو الاستيلاء عليها والتمتّع بها دون أن يصل منها إلىٰ مورّثه شيء من الخير أو الثواب.

وليُعلم بأن الإنسان لا تنقطع علاقته بالدنيا بمجرّد موته، بل إنها تظلّ قائمة، وتظلّ روحه ترفرف علىٰ أهله تنظر إليهم وتنتظر منهم أن يذكروها

بخير يخفّف عنها عذاب القبر، وهول المحشر والحساب بعد ذلك[1]. فالميت يرمق الأحياء بطرفه يرجو نوالهم وذكرهم إياه. فيجب علىٰ المسلم ألّا ينسىٰ ذويه وموتاه، خصوصاً أبويه؛ إذ أن من موارد البرّ لهما ذكرهما بعد موتها بالقرآن والدعاء والصدقة.

المبحث الخامس: دور الآباء في إعداد الأبناء

ثمّ انتقلت الآية الكريمة بعد ذلك فقالت: ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾. والواقع أن صلب موضوع محاضرتنا هنا، أي البنين والآباء. فما معنىٰ كون البنين شهوداً؟ إن البنين الشهود هم الذين لا يغيبون عن عينه لحظة، فبعض الناس قد يغيب أولاده عن عينيه أياماً أو شهوراً وربّما سنوات كمن يضطرّ لترك بلاده جرياً وراء العمل بعد أن يكون قد عجز عن العثور علىٰ عمل في بلده؛ فيضطر حينها إلىٰ البحث عن العمل خارج بلده سيما في أيامنا هذه؛ حيث إن الحياة أصبحت أكثر تعقيداً وصعوبة عن ذي قبل. فما أن تسنح للإنسان هذه الفرصة حتىٰ يستغلّها مباشرة، وهو ما يؤدّي به إلىٰ أن يترك بيته وأولاده ويغيب عنهم. وهذه الحالة يعيشها الكثير من العمّال الذين يتحسّرون علىٰ رؤية أبنائهم.

فنعمة وجود الإنسان مع عائلته نعمة عظيمة يمتنّ اللّه بها علينا، وهي نعمة لا تضاهيها نعمة، وكما قلنا فإن البعض قد يحرم منها.

---

(١) سئل أبو الحسن الأوّل‏ عن الميت: يزور أهله؟ قال: «نعم». فقيل له: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته». فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ قال‏: «في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم؛ فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرّ وحاجة حزن واغتمّ». الكافي ٣: ٢٣٠ / ٣.

فمعنىٰ ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي يشهدهم كلّ يوم أمام عينه ولا يفارقهم ولا يفارقونه. وقد وقع موقف طريف لأبي الطمحان الأسدي ـ من بني القين ـ حينما ذهب مع الجيش إلىٰ الري.

وأُحب هنا أن أُنوّه إلىٰ أن الإسلام له وجهة نظر حكيمة جداً إزاء الجيوش النظاميّة؛ فهو لا يدعو إلىٰ تأليف جيش دائمي وثابت كما هو الحال اليوم، وإنما هو يعمد إلىٰ أخذ من يجب عليه القتال ثمّ يقوم بتدريبه وإعداده للقتال، وبعد أن يكمل تدريبه ويستوفي فنون الهجوم والدفاع يسرّحه، فإن لزم الأمر بعد ذلك واحتاجت الدولة هذا المقاتل استدعته وأرسلته مع الجيش حيث تريد أن توجّهه.

فأبو الطمحان حينما احتاجت الدولة إعداد الجيش استدعته، فلما طالت به أيّام الغربة وتاقت نفسه لأولاده وبلده؛ لأنه كان في بلد لغته غير لغته هو، فقد كان في الري، أي أنه يعيش حالة حقيقية من الغربة، ورحم اللّه المتنبي حيث يقول:

ولكنّ الفتىٰ العربيّ فيها ... غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ[1]

فالإنسان حينما يكون غريباً، تنقبض نفسه وتضنك، وهكذا كان حال أبي الطمحان، فكان أن رأىٰ حمامة تزقّ فراخها، فراح ينشد قائلاً وقد تذكّر أطفاله في العراق:

أفي كلِّ يومٍ غربةٌ ونزوحُ ... أما للنوىٰ من أوبةٍ فنريحُ

---

(١) ديوان المتنبي: ٥٤١.

لقَد طلح البينُ المُشدُّ ركائبي فهل أرينَّ البينَ وهوَ طليحُ[(١)]
وأرّقني بالريِّ نوحُ حمامةٍ فنحتُ وذُو الشَّجوِ الشديدِ ينُوحُ
علىٰ أنها ناحت ولم تُذرِ دمعةً ونحتُ وإذراءُ الدموعِ سفوحُ
وناحت وطفلاها بحيثُ تراهما وما بين أطفالي مهامةُ فيحُ[(٢)]

وقضيّة فراق الأهل والأثر المترتّب عليها في نفسيّة الرجل من أذىٰ وانقباض واكتئاب قد استغلّها بعض الظلمة إزاء مناوئيهم والناقمين منهم والساخطين عليهم ؛ حيث إنهم يعمدون إلىٰ مسك ذلك المناوئ من يده التي تؤلمه، فهم يقومون بسجنه أو ترحيله عن داره وعن بلده، ويتركون عائلته بعيدة عنه لا يسمع عنهم خبراً ولا يعرف لهم شأناً. والإنسان إذا أُبعد عن أهله تصبح الدنيا جحيماً في عينيه.

طبيعة العلاقة بين الآباء والأبناء وأثرها علىٰ بناء المجتمع

وبعد أن عرفنا هذا نرجع إلىٰ صلب محاضرتنا كما قلنا، وهو موضوع الآباء والأبناء والعلاقة بينهما. ويتبين للدارس أن هناك نوعين من العلاقة التي تربط الأبناء بآبائهم:

النوع الأوّل: العلاقة البايلوجية

وهي علاقة تنتهي بعد فترة معينة، أي أن الأب يترك ابنه والابن يترك أباه بمجرد أن يتمكّن الولد من إعالة نفسه، كما أن بعض الآباء يتركون أبناءهم

---

(١) طلح: أعيا. ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ ـ طلح. يريد: لقد أعياني البين، فمتى يمكن أن أراه عيياً؟

(٢) تاريخ بغداد ٩: ٤٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٢٢٧ـ ٢٢٨، معجم البلدان ٣: ١١٩، وفيها أنها لأبي محلم.

وكأنهم ليسوا من صلبهم بمجرد أن يولدوا. وفي الحقيقة فإن هذا النوع من العلاقة هو علاقة حيوانية، مع أن الكثير من الحيوانات ترعىٰ صغارها حتىٰ تكبر.

والعلاقة التي تحكم الأبناء والآباء إذا كانت من هذا النوع فإن المجتمع سيتحوّل إلىٰ مجتمع حيواني متوحّش، وإلّا فإن من دعائم المجتمع الإنساني أن الأب يرعىٰ الابن والابن يرعي الأب. فعماد الأُسرة التكافل، والتكافل يعني رعاية الآباء لأبنائهم وامتثال الأبناء لآبائهم وطاعتهم لهم.

ثلاثة لا يدخلون الجنة

يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«خلق اللّه الجنة، والجنة تراح من خمسمئة عام، وثلاثة لا يشمّون ريحها: المنّان بعطائه، ومدمن الخمر، وعاقّ والديه»**[١].

ومعنىٰ **«تراح»** أي يشّم ريحها. فالجنة لطيبها وطيب طعامها تشمّ رائحتها علىٰ بعد خمسمئة عام.

١ ـ المنّان بعطائه

أما المنّان بعطائه فهو الذي يُحسن إلى غيره بأمر، أو يتصدّق عليه بصدقة ثمّ يبدأ بتذكيره به كل حين وكلما سنحت له الفرصة بذلك. وقد يذكّره بذلك بأُسلوب يجعله يشعر بالذلّة والانكسار والألم. فالحديث الشريف يخاطب هذا فيقول له: إنك ما دمت قد فعلت جميلاً فاترك الجميل للجميل، ولا تشوّه ذلك الجميل بهذا الصفة الذميمة؛ فإن من المروءة أو من المجد والكرم أن الإنسان حينما يعطي فينبغي عليه ألّا يمن علىٰ من أعطاه وأنعم عليه من

---

(١) المعجم الصغير ١: ١٤٥، الجامع الصغير ١: ٥٤٨ / ٣٥٤٢، كنز العمّال ١٦: ٥٣ / ٤٣٩٠٣.

الناس الضعفاء بهذا العطاء؛ كيلا يحرق حسناته بسيئات هذا العمل.

فهذا المنّان لا يشم ريح الجنة كما يقول أصدق القائلين (صلوات اللّه عليه وعلىٰ آله أجمعين).

٢ ـ مدمن الخمر

أما مدمن الخمر، فكذلك لا يشمّها. والمدمن هو الذي لا يفارق الخمرة ولا تفارقه، بل تلازمه حتىٰ ساعة الموت وربما مات وهو سكران فاقد العقل. دخل شخص علىٰ النبي ﷺ وقال له: يا رسول اللّه إني أتيتك وأنا عارف بمحاسن الإسلام، وأنا أُريد أن أُسلم، لكن علىٰ أن تعطيني شيئاً واحداً. فرحب به النبي ﷺ ثمّ قال له: **«ما تريد؟»**. قال: أريد أن تعطيني رخصة في أن أشرب الخمر إلىٰ سنة. فرفض الرسول ﷺ ذلك، وطالبه بتركها من ساعته تلك إن هو أسلم[1]؛ لأن اللّه حرّمها؛ فهي **«أُم الخبائث»**[2].

---

(١) قريب منها ما روي عن أعشىٰ قيس من أنه نظم قصيدة يمدح فيها الرسول ﷺ، وهاجر إليه لينشدها بين يديه، وكان مطلعها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلةَ أرمدا ... وعادك ما عاد السليمَ المسهّدا

فقالت قريش: هذا صنّاجة العرب، وما مدح أحداً إلّا رفعه. فرصدته علىٰ طريقه، فلمّا مرّ بهم قالوا: أين تريد؟ قال: أردت صاحبكم لأتّبعه. فقال له أبو سفيان: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك. إلى أن قال: يحرم عليك الخمر. قال: أوّه أرجع إلىٰ صبابة بقيت في المراس فأشربها. قال أبو سفيان: فهل لك في شيء هو خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ فقال: نحن وهو الآن في هدنة، فتأخذ مئة من الإبل وترجع إلىٰ بلدك سنتك هذه حتىٰ تنظر ما يصير إليه أمرنا؛ فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال الأعشىٰ: ما أكره ذلك.

فجمعوا له مئة من الإبل، فأخذها وانطلق إلىٰ بلده منفوحة، فلمّا وصلها رماه بعيره، فمات. بحار الأنوار ٨٩: ١٣٢، قصص العرب ٢: ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) المجازات النبويّة: ٢٤٢، ٢٤٣ / ١٩٦، كتاب ذمّ المسكر: ٥٠.

ومعنىٰ «أم الخبائث» أنها أُم المصائب والمكاره والآفات كلّها. وكلنا قد رأىٰ شارب خمر وهو يترنّح من سكره وكأنه ريشة في مهب الريح، لا يعي من أمره شيئاً، وقد يفعل أي شيء ويرتكب أي حرام لأنه لا يعي من أمره شيئاً. وقد نظم أحد الأدباء في هذا الباب أبياتاً يقول فيها:

محمّد حرّم شر الطِّلا ... صلّوا عليه وعلىٰ آلهِ
أذهب إلىٰ الحانةِ تؤمن به ... إن كنت لم تؤمن بأقوالهِ
فكم ترىٰ بالحان من شارب ... يحرّم الخمر بأفعالهِ

فحينما ترَ السكير وما يفعله بنفسه ممّا تشمئز منه النفس الأبية كأن يتمرّغ في الوحل أو يعبّ الماء الآسن القذر، تعرفْ لماذا حرّمها اللّه تعالىٰ. فهذا المدمن الذي لا يفارق الخمرة ولا تفارقه لا يدخل الجنة؛ لأن جوهرة الإنسان عقله، فإذا شرب الخمرة فقد هذه الجوهرة، ومن يفقد عقله لا يغب عن الجميع أمره، وما يمكن أن يفعله بنفسه أو بغيره. فهل من الصحيح أن يعمد الإنسان العاقل إلىٰ جوهرته فيضيّعها وينزفها بهذه السهولة؟ هذه الجوهرة التي يثيب اللّه بها ويعاقب[1] أي أنها ملاك الثواب والعقاب عند الإنسان، والإنسان إذا ضيّعها أصبح أكثر قرفاً من الجيفة.

٣ ـ العاقّ والديه

أما العاقّ والديه؛ فلأن طاعة الوالدين واجب عيني، وهو واجب مقدّس

---

(١) ورد في الحديث الشريف عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أُكملك إلّا فيمن أُحب. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإيّاك أُثيب». المحاسن ١: ١٩٢ / ٦، الكافي ١: ١٠ / ١.

علىٰ الابن ـ والواجب العيني يقدّم علىٰ الواجب الكفائي إذا تعارضا[1]، كما في حالة الجهاد، حيث إن المجاهد إذا تعارض جهاده مع برّه بوالديه، وكان الجهاد له من يقوم به فإنه برّه بوالديه يقدّم هنا ويسقط الجهاد عنه. روى ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، اُريد أن اُجاهد معك. فقال: «**ألك أبوان؟**». قال: نعم. قال: «**ففيها جاهد**»[2].

وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليمن هاجر إلى رسول الله فقال له رسول الله: «**هل لك أهل باليمن؟**». قال: نعم، أبواي. قال: «**هل أذنا لك؟**». قال: لا. قال: «**فارجع فاستاذنهما؛ فإن أذنا لك فجاهد، وإلّا فبرّهما**».[3]

وجاء رجل إلى النبي يبايعه على الهجرة فقال: إني جئت اُبايعك على الهجرة، وتركت أبويّ يبكيان. فقال «**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[4].

فالأب ينتظر من ولده أن يحمله إذا كبر، وينتظر أن يجد كتفه موطئاً ليده يتوكّأ عليه حال عجزه. وكذلك الأم التي أعطت ابنها خلاصة جسدها وروحها، والتي حملته وتألّمت بسببه ألماً يصل إلىٰ درجة أنه يسلبها النوم والراحة، ثمّ بعد ذلك ساعات الولادة التي تشرف فيها علىٰ الموت، ثمّ بعدها سنوات التربية التي تمرّ عليها وهي تسهر الليل تهزّ مهده وتناغيه هي كذلك

(١) منتهىٰ المطلب ٢: ٩٠١ (حجري). (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الأدب المفرد: ١٤ / ١٣، المستدرك ٤: ١٥٣.

تنتظر من ولدها ما ينتظره أبوه منه. فهل يستطيع الإنسان أن يكافئها علىٰ ما فعلته معها؟

ولذا فإن الرسول ﷺ يأمر هذا الرجل بأن يرجع لأبويه كي يؤدّي حقّهما، ويدخل البشر في نفوسهما. يقول ﷺ: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟**». قالوا: بلىٰ يا رسول اللّه. قال ﷺ: «**الشرك باللّه، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ**»[1].

فهو ﷺ جعل منزلة عقوق الوالدين بعد الشرك باللّه مرتبة؛ لأن عقوقهما يجعل الحياة في عينيهما سوداء مظلمة؛ ذلك أن الابن أقرب الناس والنفوس إلىٰ أبيه. فإذا انتهىٰ به الأمر إلى أن يعقّ والديه فممّا لا شكّ فيه أنه سيكون بعيداً عن رحمة اللّه تعالىٰ؛ لثقل وقع ذلك على نفسيهما.

مثاليّة الأسرة الإسلاميّة

وأُحبّ أن أُشير هنا إلىٰ أن الأُسرة الإسلاميّة أشبه ما تكون بحلم يطمح إليه سائر الناس من باقي الأُمم كأُوروبا وغيرها، فهؤلاء يحنّون إلى جوّ كجوّ الأُسرة الإسلاميّة حينما تلتقي كلها ليلاً حيث الأب والأُمّ، والأولاد حولهما وربما الأحفاد، فترىٰ أن هذه البيوت تنبض بالحب والحنان والود والعطف المتبادلين، ويسودها جوّ السعادة. أما إذا كان الحال فيها أن الأب مرمي علىٰ سريره يعاني الوحدة والمرض والألم، وكذلك الأُم تقتلها الوحدة وتفترسها الوحشة، وكان أبناؤهما منشغلين عنهما في أعمالهم وأطفالهم ونسائهم ـ كما هو الحال الأغلب في معظم المجتمعات غير الإسلاميّة ـ فإن مجتمعاً كهذا

---

(١) مسند أحمد ٥: ٣٦، صحيح البخاري ٨: ٤٩، وقريب منه في الكافي ٢: ٢٧٨ / ٤.

سيتحول إلىٰ بؤرة تفسّخ.

وأرجو ألّا يفهم من كلامي أن الزوجة لا حقّ لها علىٰ الزوج، أو أن الأولاد ليس لهم ذلك الحق عليه، لكن ما أودّ قوله هو أنه يمكن الجمع بين الحقوق، إذ أن ذلك ليس متعذّراً، بل إن الأبوين هما اللذان يعينان علىٰ حقوق الزوجة والأولاد إذا أُحسنت التربية؛ لأن الذي ينبغي أن تتّصف به أُسرنا هو كونها أُسراً مجبولة علىٰ التربية الإسلاميّة، أمّا التفكّك الذي ينتاب الآن الكثير من الأُسر فبسبب بُعدها عن الإسلام، وعدم التزامها بمفاهيمه. فالمفروض حصوله أنه ينبغي أن تتضافر كل الروافد الصحيحة، كالروافد الفكريّة والدينيّة والقانونيّة والاجتماعيّة علىٰ بناء الأُسرة، وأن تجمتع علىٰ تصحيح مسارها؛ لأن بناء الأُسرة يعني بناء المجتمع.

فالولد إذن ينبغي أن يراعي أبويه لأنه قرّة عينيهما، وريحانتهما في الدنيا. وإذا كانت مشاغل الدنيا ومشاكلها تبعده عن أبويه، فإن طبيعته وتربيته وتركيبته يجب أن تدفعه لبرّهما؛ وإلّا فإن حياة الوالدين ستتحوّل إلىٰ جحيم لا يطاق. وهذا هو التعبير الرقيق في الآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي أنه يشهدهم كلّ يوم، وفجأة إذا به يفقدهم في خضمّ زحمة الحياة ومشاكلها. يقول أحد الأدباء:

أحبةَ قلبي إن دنت لي منيتي	بعيداً أُقاسي البعدَ والليل عاكرُ
ولا أهل من حولي تنثّ دموعُهم	عليّ ولا واسىٰ غريبٌ وزائرُ
يكاد بعيني التنفّس يغتدي	صراخاً لو أن العين فيها الحناجرُ

وفعلاً فإن الإنسان إذا لم يشعر بوجود أبنائه من حوله فإنه لن يشعر بالسعادة؛ لأنهم هم الذين يحقّقونها له عبر سكبه عطفه وحنانه عليهم. فهو إن

شعر أن أبناءه ليسوا معه فإنه سيشعر أن الحياة جذماء جذّاء، وتلفّه الوحشة والألم.

أقسام البنون وصفاتهم

والبنون أقسام؛ فمنهم البرّ، وهذا ما لا عوض عنه؛ إذ لا يمكن أن يكون هناك من يشغل وجوده ويسدّ مسدّه إن حصل له مكروه وفقده أبواه. أما العاقّ فلا قيمة له أصلاً حتىٰ يمكن أن يقايس بالأشياء الأُخرىٰ.

ومن صفات الولد البار أنه يقرب أهله إلىٰ طاعة اللّه ويبعدهم عن معصيته، بل ويكون أحد موارد استمرار حسنات وعمل ابن آدم في الدنيا[1].

وهذا الموقف الكبير والمشهد الصعب قد مرّ به الإمام أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام، حيث كان عليه السلام في طريقه إلىٰ كربلاء فهوّمت عيناه عليه السلام ثم انتبه وهو يقول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون»**. فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: **«يابني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا»**. فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: **«بلىٰ والذي إليه مرجع العباد»**. قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين.

فاحتضنه الإمام الحسين عليه السلام، وقال: **«جزاك الله من ولد خيراً»**. ثم أخذ يقبّله ويلثمه[2].

---

(١) يقول الحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به». روضة الواعظين: ١١، عوالي اللآلي ١: ١٩٧ / ١٠، سنن النسائي ٦: ٢٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٣: ٣٩٢.

(٢) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

وقد كان لعلي الأكبر مكانة خاصة عند أبيه لأنه كان يشبه جدّه رسول الله ؛ فصوته صوت النبي وخلقه كخلقه، وملامحه كملامحه، وكذا في باقي صفاته. وكان يشبه كذلك أباه أمير المؤمنين.

ولذا فإنه حينما أراد أن يبرز ودّعه وداعاً لفت نظر المؤرخين، فقد احتضنه ووضع يده علىٰ عنقه ـ وهو ما لم يُرَ من الإمام الحسين مع غيره ـ وأدناه إليه يضمّه ويقبله، ثمّ رفع رأسه ويقول: **«اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[1].

وهو ينمّ عن عظيم تأثّر الإمام الحسين وتألّمه؛ إذ أن خروج علي الأكبر قد أخذ منه مأخذاً عظيماً، ثم قال له: **«بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك»**. فجمع يديه على عنقه، واستدناه إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: **«ابرز بني»**.

فبرز وعينا الحسين تلاحقانِه، وليلىٰ تطيل النظر إلىٰ وجه الإمام الحسين، ثمّ أخذ علي الأكبر يرتجز ويقول:

واللـهِ ربُّ العرش لا نفارقْ ... جموعَكم أو تغمدَ البوارقْ

* * *

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بن علي ... نحن وبيتِ اللهِ أولىٰ بالنبي[2]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، العوالم (الإمام الحسين): ٢٨٥.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٦ / ٣٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٢.

والحسينعليه السلام يلاحقه ويراقبه، والمخيّم يغلي بنساء بني عبد المطّلب، وإذا بوجه الامام الحسينعليه السلام قد تغيّر، فهرعت إليه ليلى والنساء وقلن: أبا عبد الله، نرىٰ وجهك قد تغيّر، فهل أُصيب علي الأكبر بشيء؟ وهذا علىٰ رواية أن ليلى كانت موجودة في الطفّ. فقالعليه السلام: **«لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك»**.

ثمّ رجع الأكبر وخاطب أباه قائلاً: أبه، العطش قتلني وثقل الحديد أجهدني، أبه هل لي إلى شربة ماء من سبيل؟ فقال له الحسينعليه السلام: **«بني ادنُ مني»**. فدنا منه فوضععليه السلام فمه الشريف علىٰ فمه، ثمّ قال له: **«بني ارجع؛ فإني لأرجو أن يسقيك جدّك رسول اللّهصلى الله عليه وآله بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً»**[1].

وعند ذلك كرّ راجعاً يحمل رأس بكر، غير أنه هذه المرة لم يرجع لأبيهعليه السلام، إذ أن الحسينعليه السلام سمع صوته منادياً: عليك مني السلام أبا عبد اللّه. فانقضّ عليه الحسينعليه السلام، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً إلىٰ أن وصل إليه، فوجده وقد غطّاه الدم، فرمىٰ بنفسه عليه من علىٰ ظهر فرسه وصاح: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أمّا أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمّها، وألقيت أباك لهمّها وغمها، وما أسرع اللحاق بك»**. ثم احتضنه وجلس عنده:

يبني علي يا فتشة العين   كلّي صواب الضاهدك وين

أنا منين أجتني كربلا منين

جلس عنده قليلاً، ثمّ التفت إلىٰ الفتية وقال: **«احملوا أخاكم؛ فإني لا طاقة**

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، لواعج الأشجان: ١٧٠، ينابيع المودّة ٣: ٧٨.

لي على حمله». فحملوه ورجلاه تخطّان الأرض..أقبلوا به إلىٰ الخيمة، فهرولت إليه عمّاته وخالاته وجلسن عند رأسه:

يـــمغسّل الشـــبان بـــهداي ابـهيده مـن تـصب عـليهم المـاي

* * *

ومـحا الردىٰ يـا قـاتل اللّـه الردىٰ مـنه هـلالَ دجـىً وغـرّةَ فـرقدِ
يـا نـجعةَ الحـيّينِ هـاشم والعـلا وحـمىٰ الذمـارين العـلا والسـؤددِ

﴿١٠٦﴾

اتّخاذ الكافرين وليجة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في سبب نزول الآية الكريمة

روي أن السبب في نزول هذه الآية الكريمة هو حاطب بن أبي بلتعة؛ وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول الله ﷺ من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول الله ﷺ: **«أمسلمة جئت؟»**، قالت: لا. قال: **«أمهاجرة جئت؟»**. قالت: لا. قال: **«فما جاء بك؟»**. قالت: كنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليَّ، واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني. فقال لها ﷺ: **«فأين أنت من شبّان مكّة؟»**. وكانت مغنية ونائحة، فقالت: ما طُلب مني ذلك بعد وقعة بدر.

---

(١) الممتحنة: ١.

فحثّ رسول الله ﷺ بما عهد منه من عطف ورقّة بني عبد المطلب عليها، فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة.

وكان رسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّة، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

وخرجت سارة، فنزل جبرائيل عليه السلام، فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وكانوا كلّهم فرساناً، وقال لهم: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ**[1]**، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها»**.

وكانت الظعينة تطلق على القافلة والمرأة، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: **«والله ما كَذبنا، ولا كُذبنا»**. وسلّ سيفه وقال لها: **«أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك»**. فلما رأت الجدّ أخرجته من

---

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. وذكر في أحماء المدينة، والأحماء: جمع حمي، وهي التي حماها النبي ﷺ والخلفاء بعده. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ ـ خاخ.

ذؤابتها، وكانت قد خبّأته في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللّهﷺ.

فأرسلﷺ إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟». قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟». قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، وكنت عريراً فيهم ـ أي غريباً[١] ـ وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول اللهﷺ وعذره[٢].

وكانت قريش قد أرسلت سارة تتجسّس لها أخبار المسلمين؛ لأنهم أرهصوا أن الرسولﷺ سيغزوهم بجملة من الحوادث التي فعلوها خرقاً لاتفاقهم مع الرسولﷺ. وقد حدسوا بأن سيكون علىٰ إثرها نوع من التحرّك، ومن هذه الحوادث أنهم دخلوا علىٰ خزاعة وهم يصلّون في الليل فقتلوهم وبقروا بطون نسائهم وعملوا أعمالاً مروعة معهم، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسولﷺ، فكانوا يتوقّعون حصول أمر ما منهﷺ، فأرسلوا من قبلهم جماعة للتجسّس، ومن هذه الجماعة هذه المرأة.

المبحث الثاني: حول خطاب اللّه حاطباً بصفة الإيمان

وبعد هذا البيان لنرجع إلىٰ الآية الكريمة، فهي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهنا يتساءل المفسرون فيقولون: كيف يخاطب اللّه تعالىٰ حاطباً بلفظة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، مع أن المفروض ألّا يُخاطب بهذه الصورة؛ لأنه

---

(١) لسان العرب ٢: ٧٤٤ ـ عرر.

(٢) مجمع البيان ٩: ٤٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠.

قام بعملية التجسّس ضدّ المسلمين لصالح المشركين ؟ أي كيف يمكن أن يسمىٰ مؤمناً مع هذا؟

وأنا أعجب من بعض المفسّرين أن يقعوا في مثل هذه الأخطاء، ذلك أن الآية الكريمة لا تخاطب حاطباً وحده، بل هي تخاطب سائر المؤمنين بألّا يقعوا في مثل هذا الفخ، وتطلب منهم أن يستفيدوا من الحادثة، وإلّا فإن حاطباً جاسوس ولو في تلك الفعلة، والجاسوس لا يطلق عليه صفة مؤمن. وإن تنزلنا وقلنا: إنه جائز أن يسمىٰ بالمؤمن حسبما يذهب إليه بعض المفسرين، ولكنه لا يخرُج عن كونه عاصياً حتماً.

العامل المشترك في هموم المسلمين

فالآية تخاطب المؤمنين بصورة عامّة وتقول لهم: احذروا أن تقعوا بمثل هذا الفخّ ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، أي أن عدو اللّه هو عدوّكم وأن عدوّكم هو عدوّ اللّه.

وبتعبير آخر: إن مصلحتكم لا تنفكّ عن مصلحة دينكم وهذا ما يحصل فعلاً عند البعض قديماً وحديثاً ؛ حيث يحاول أن يفكّك بين مصلحته ومصلحة دينه، فتراه يقول مثلاً: أنا أفعل هذا الشيء لظروفي الخاصّة. وهذا غير صحيح حتماً ؛ لأن الظروف الخاصّة لأي مسلم لا تنفكّ عن ظروف المسلمين، فهي بصورة عامّة متشابكة ومتلاحمة، فما يضرّهم يضرّك وما يضرّك يضرّهم أيضاً ؛ لأنك جزء وعضو في جسم الأمة، وفي الوقت نفسه فإن الأُمة غطاء لك[١].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً»، عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧. وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم

إذن لا يوجد فرق بين مصلحتك ومصلحة المسلمين.

وهنا قد يسأل سائل فيقول: أين مصلحة المسلمين التي نتحدّث عنها أنها متشابكة، أوليس المسلمون الآن يكفّر بعضهم بعضاً؟

وأقول: إن هذه الأصوات هي أصوات شاذّة، ولايمكن أن نعتبرها أصوات أُناس مسلمين؛ لأن صوت المسلم تهمّه مصلحة المسلمين ووحدتهم، وهذه الأصوات الشاذّة إذا كانت لا تزال موجودة في واقعنا؛ فلأنه لا يوجد عند المسلمين وعي كافٍ بخطورة وضعهم وحساسيته، وخطورة هؤلاء الناعقين مع كل ناعق، فإن حصل وتسلّحوا بالوعي الكافي فسوف تسكت هذه الأصوات والأبواق المشبوهة والمشحونة من قبل أعداء الإسلام جميعاً.

وهؤلاء هم مثل الجرثومة، لا يعيشون إلّا في المستنقعات، وإلّا فإن صوت المسلم في الواقع هو صوت المسلمين بصورة عامة؛ يحافظ علىٰ وحدتهم، ويدعو إلىٰ تكثيف وتفعيل دورهم وتقوية وتمكين وجودهم.

فالمسلم أخو المسلم حتىٰ لو خالفه في بعض الفروع، فواجب كلّ منهم تقييم عمل الآخر وبيان أخطائه له لأجل نصحه، لا لأجل فضحه والتشهير به والإساءة إليه. أما أن يقول له: أنت كافر، فهذا ممّا لا يجوز ما دام الآخر يحتفظ بالأُصول الإسلاميّة، أي أنه يقول: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله**»، ولا ينكر ضرورة من ضروات الدين؛ وهذا المسلم.

فالمتسائل الذي يقول: أين هذه المصالح المتشابكة المشتركة؟ نجيبه بالقول: إنه ما من شكّ أن المسلم بما يحمل من عقيدة هو جزء من هذا

☚ وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

الكيان الإسلامي ككل، وإذا كان جزءاً من هذا الكيان فيجب عليه أن يشعر بأن مصلحته هي مصلحة المسلمين، وأن ما يصيب المسلمين يصيبه.

المبحث الثالث: في تولّي أعداء الله

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، أي لا تظنّوا أن من يعادي دينكم هو ولي لكم.

وهنا يطرح سؤال نفسه: هل يجب أن نعادي غير المسلمين.

والجواب: طبعاً لا، لأن اللّه يأمرنا بالتعايش مع الجميع، ونحن الآن في عصر العولمة. فاللّه تبارك وتعالىٰ يأمرنا بالتعايش معهم لكن يحذّرنا منهم، ويأمرنا بألّا نقدّم مصلحة أُولئك علىٰ مصلحة المسلمين. فالمفروض أوّلاً أن نتّجه إلىٰ مصلحة إخواننا المسلمين، وبعد ذلك نتعامل مع الآخرين علىٰ أساس من التكافؤ؛ فهناك قواعد وحدود رسمها لنا الشارع المقدّس نتعامل علىٰ ضوئها مع المعاهَدين أو مع الكفار أو مع أهل الذمّة. وقد تضمّنت كتب الفقه هذه الأحكام كاملة[1]. فالذي ينبغي إذن علىٰ المسلم أن يجعل مصلحة المسلمين نصب عينيه دائماً.

كيف نستعبر بقصّة حاطب؟

وتدلّ هذه الحادثة علىٰ أمرين:

الأمر الأوّل: استخدام المرأة كآلة ووسيلة للكسب

إن العناوين التي يخترعها هؤلاء غالباً ما تكون بؤراً خطرة، يجب أن نضع عليها ألف علامة استفهام. وهؤلاء يبرّرون فعلهم هذابأن لديهم مؤسسات فنية، لكن ماهي حقيقة مؤسساتهم الفنية هذه؟ هل هي أن تكشف المرأة عن

---

(١) انظر: الخلاف ٥: ٣٦١ / المسألة: ١، مغني المحتاج ٣: ٧٤.

مفاتن جسدها ومواضع الشهوة فيه كما هو دأب هذه المؤسسات التي تعمد إلىٰ ذلك، وتتجاوز كلّ حدود الحشمة والأدب، وتفعل ما يخدش الحياء؟ والغريب أنهم يقولون: إن هذا لون من ألوان التحضّر. فلنحذر من هذا؛ لأن العفن ينبع من هنا، فهذا المناخ ليس مناخاً سليماً ولا نظيفاً. والمناخ غير النظيف لا يوجد عنده ما يمنعه عن نيل أي شيء في سبيل تحقيق رغباته وغرائزه، فهو ينسىٰ كل شيء؛ ولذا فإننا لا نستغرب من أناس مثل هؤلاء ممّن يحكم باسم الإسلام وعنده مغنية تغني:

ألا عــلّلاني قــبل أن نــتفرّقا ... وهــاتِ اسقني صِرفاً شراباً مروّقا

فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجىٰ ... وكــاد قــميص الليل أن يتمزّقا

ويصل به الأمر إلىٰ أن ينسىٰ نفسه أمامها.

أما غيره فلا ينسىٰ نفسه فقط، بل إنه يفقد عقله فيعلّق علىٰ رقبته نعله ويقول: أنا بدنة، اهدوني للكعبة. فما يُنتظر من مثل هؤلاء الذين يصل بهم الأمر إلىٰ هذه الدرجة؟

فالقرآن الكريم هنا يريد أن يرشدنا إلىٰ أن نحذر من هذه الأجواء؛ التي تُستغلّ فيها المرأة من هذا الجانب؛ فإنها إذا استغلّت من هذا الجانب أصبحت وسيلة خطر علىٰ المجتمع.

الأمر الثاني: الخطر الكامن في المرأة

والمراد هنا أن المرأة بما حباها اللّه تعالىٰ من مواطن جمال ورغبة، تمثّل كياناً مرغوباً للرجل، وبحكم الغريزة التي عند الجنسين فإن المرأة ذات تأثير كبير علىٰ الرجل؛ ولذا فإن قريشاً استغلّت هذا التأثير عندها.

لكن لنا أن نتساءل حول منشأ هذا التأثير، والحقيقة أن هناك منشأين لتأثير المرأة:

المنشأ الأوّل: العادات الاجتماعية

فالذي يأتي من العادات الاجتماعية أن بعض العرب وحتىٰ بعض الشعوب الأُخرىٰ من غير العرب كانوا يعطون المرأة نوعاً من الحصانة والقداسة نسبياً، فلا تراع ولا تؤذىٰ، بل كانوا يتحاشون إصابتها بأذىٰ؛ لأنها أم، والأُم تترك بصمات واضحة علىٰ عواطف الولد؛ أو لأنها زوجة، والزوجة تترك بصماتها علىٰ غرائز الرجل وعلىٰ الجو الأُسري، وغير ذلك.

ولما كانت ذات تأثير، فينبغي علينا أن نهذّبها ونضعها دائماً في الأجواء التي تتناسب مع خطرها، فمثلاً عندما يطالب الإسلام بتعليم المرأة علىٰ لسان الرسول الأكرمﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة**»[(١)] فإنه يريد أن يرفعها عن مستوىٰ الجهل، وهذا خلاف من يقول: لا تعلّموهن القرآن، ولا تعلّموهن الكتابة، ولا تسكنوهن في الغرف العالية، ثمّ يقول: هذا حديث نبوي، أي أن النبيﷺ يقول: لا تسكنوهن في غرفة عالية ولا يتعلمن الكتابة؛ لأنهن إذا تعلمن الكتابة فإنهن سيكتبن للرجال[(٢)].

وهذا كلام ليس فيه أي معنىٰ؛ لأن اللّه عزّ وجلّ يقول: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[(٣)]، وبنو آدم هم الجنسان الذكر والأُنثىٰ. فالإسلام يريد أن يربّيها ويضعها في تماسّ دائم مع أجواء التربية الروحية ـ كما وضعَنا نحن في تلك الأجواء ـ ويشعرها بمسؤوليتها؛ لأنها هي العشّ الذي يربّىٰ فيه الإنسان،

---

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، كنز العمّال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه: ولا تعلّموهن الكتاب.

(٣) الإسراء: ٧٠.

وهي المدرسة والعاطفة والحنان. فيجب أن نقدّر خطرها، فنتعامل علىٰ ضوئه بما يناسب مستوىٰ مسؤوليتها بالشكل الذي لا يسمح لهذه الطاقة أن تتحوّل إلى عنصر عداء للإسلام.

ولذلك فإن أعداء الإسلام كانوا أوّل شيء يعمدون إلى التركيز عليه هو المرأة وحقوقها المغتصبة ـ من وجهة نظرهم ـ في المجتمع الإسلامي. وتسمع هناك صيحات تملأ الدنيا: أعطوا المرأة حقّها وحريتها. فما هي الحرية التي يريدونها للمرأة؟ الإسلام لا يمنعها من أن تمارس العمل إذا اضطرّت إليه مع محافظتها علىٰ كرامتها وشرفها وسترها وعفافها، ولا يمنعها من طلب العلم ولا من شغل الوظائف والمناصب التي لا تضرّ بفطرتها ولا تتعارض مع أُنوثتها.

بعض وظائف المرأة المختصّة بها

ولا ننسَ أن اللّه عزّ وجلّ خصّ المرأة بتكاليف لم يخصَّ بها الرجل، فالرجل لا يملك تدياً فيه لبن يرضع أبناءه منها، لكن المرأة تمتلك ذلك، فهي ترضع أطفالها. وكذلك فإن الرجل لا يملك الحجر ليمنح الطفل الحنان والتغذية، والمرأة تمتلك ذلك؛ لأن تغذية الحنان مركبة مع طبيعة المرأة عبر ما يسمىٰ بهرمون الأُمومة الذي يثري صفة الحنان عند المرأة، بحيث يشمّه الطفل وهو في حضن أُمّه، ولا يشمّه في صدر والده؛ لأن جسم الرجل لا يحتوي علىٰ هذا الهرمون.

ولك أن تتصوّر الأشياء التي تغرسها الأم في نفس الطفل منذ الصغر، فتبقىٰ معه مدىٰ العمر؛ لأنها صادفت المحلّ الملائم والمؤثّر الفاعل.

إذن فالإسلام أعطىٰ كلّ شيء للمرأة من غير أن يُضرّ بفطرتها وعفّتها. فما

الذي يريدوه هؤلاء من حرية المرأة مع الحفاظ علىٰ كيانها أكثر من هـذا؟ سيّما الآن فإنها في بعض البلدان الإسلاميّة قد أخذت جميع حـرّياتها، ولا يطلب الإسلام مقابل هذا أكثر من أن يحفظ المجتمع لها أخـلاقها وأجـواء عفّتها؛ لأنه إذا لم يستطع أن يحفظ لها عفّتها فسوف تسود حالة اللانظام في الدنيا كلّها.

وغالباً تكون هذه الدعوات دعوات مشبوهة تقف وراءها أهداف مريضة، وهذه الدعوات توحي بأن المرأة غالباً ما تكون سهلة المنال ورخيصة، وتقع تحت الرجل ورهن إشارته في أي ساعة شاء. فهو ينظر إليها كغريزة، مع أن معاملتها كذلك تعني شتمها والإساءة إليها؛ لأن هذه اللون من التعامل مـعها يكون بعيداً عن الدور الذي يراد لها أن تلعبه، أو يناط بها، وهو كونها مدرسة تربّي الأجيال وتقوم بإعدادها.

وهذا هو الفرق بين من يعامل المرأة علىٰ أنها كيان مـحترم وفـعّال فـي المجتمع، وأنها مدرسة تعدّ المجتمع وتربي الأجيال، وبين من يعاملها علىٰ أنها غريزة، كأن يقول رجل لزوجته: إنما نحتاجكِ لبضع دقائق. فهذا كـفر بالفطرة وكفر بما وضع اللّه عزّ وجلّ للمرأة التـي تـقوم بـعبء لا يـقوم بـه الرجـل. فليس الرجل وحده هو من يـقوم بـعبء لا تسـتطيع أن تـقوم بـه المرأة؛ فكل له وظائفه الخاصّة.

فالآية إذن تشير إلىٰ خطر المرأة؛ وإلىٰ أن البعض من مزاياها جاءت من مواريثنا الاجتماعية أو الدينية التي تمنع من ضرب المرأة مثلاً، وتعتبره عاراً علىٰ الرجل؛ لما عليه أمر تركيبتها النفسية وكـيانها الجسـدي، أو مكـانتها داخل الأُسرة.

ولذلك فإن النبي ﷺ كان يعنّف هؤلاء الذين كانوا يضربون المرأة، ويوبّخهم علىٰ أنهم يضربونها ثمّ بعد ذلك يضاجعونها، وكيف أنهم يجمعون بين هذين الجوّين: الجوّ الحيواني وهو الأوّل، والجوّ الإنساني الذي كلّه رقّة وشفافية وهو الجوّ الثاني. فالإسلام ينهىٰ عن هذا النوع من التعامل، وأوجد له تعاملاً بديلاً هو التعامل بالحسنىٰ.

فالمرأة إذن لها كرامتها وكذلك لها خطرها، أي بقدر ما تحمل من مكانة يجب ألّا تستغل من قبل أعداء الدين وأعداء الخلق وأعداء الفضيلة لهدم المجتمع. فيجب أن نكون يقظين لهذا الأمر.

المنشأ الثاني: الغريزة

وهو أمر لا يخفىٰ علىٰ أحد تأثيره، فغالباً ما تُستخدم النساء في تحقيق الكثير من الأغراض سيما في أغراض التجسّس، وهو ما حاولت قريش فعله. وقد مرّ في ثنايا البحث ما فيه كفاية حول هذا الأمر.

المبحث الرابع: الفرق بين مودّة الكافر ومجاملته

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾، والمودّة هنا غير المجاملة؛ فهناك مودّة وهناك مجاملة. وليعلم أن الإسلام لا يمانع من تحيّة غير المسلم بتحيته، فتقول له مثلاً: صباح الخير، أو نهارك سعيد، أو مرحباً، ثمّ تقف معه وتجامله وتسأله عن أحواله وتراعي جواره[1] إذا كان جارك،

---

(١) عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقال لأصحابه: «انهضوا بنا نعود جارنا اليهودي». فدخل على اليهودي فوجده في سكرات الموت، فسأله عن حاله، ثم قال ﷺ له: «أتشهد أن لا إله إلّا الله، وأني رسول الله؟». رجاء أن يؤمن به ويجار من النار بسببه، فنظر إلى أبيه مستشيراً في أمره، فلم يكلّمه أبوه، فقال له النبي ﷺ: «أتشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله؟». فقال له أبوه: اشهد له بالرسالة العامّة. فقال الفتى: «أشهد أن لا

أي تؤدّي واجبك الإنساني إزاءه. فهذه مجاملة، وهي غير المودّة؛ لأن المودّة تنتج من تشابك الجراح والآلام والآمال ووحدة المصالح، فعند كلّ مسلم آلام وآمال وجراح، وهي تتشابك مع آلام المسلم الآخر وآماله وجراحه دائماً. فالجراح نسب، وكذلك الآلام والآمال.

إذن فالقرآن الكريم يقول: لا تلقوا المودّة في غير مكانها، بل اجعلوا مودّتكم لإخوانكم المسلمين.

إشكالية شتم الصحابة وسبّهم

ولهذا فأنا أقول لك وأُوكّد علىٰ هذا: احذر من الصوت الذي تراه شاذّاً؛ فهناك أصوات خطرة في تاريخنا؛ فحينما تفتحْ بعض الكتب، وترَ أحد الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين يتقوّل علىٰ هذه الفرقة أو علىٰ فلان، أو أن يقول: إن هذا يجب أن يقتل ويحرق ويلعن ولا يرحم، فستجد نفسك أنك لا تقرأ كلاماً بل تقرأ لهباً من نار جهنم يشتعل. ولماذا كل هذا؟ إنه علىٰ قضية بسيطة جداً وهي أن هذا شتم أحداً من الصحابة، وعندما تسأله: من أين لك هذا الحكم، وهو إنّ الذي يشتم واحد مثلاً يقتل أو يحرق؟ وما هو دليلك؟ فأنت لو قرأت ما ورد عن لسان الصحابة أنفسهم لوجدت أن أحدهم يشتم الآخر،

☚ إله إلّا الله، وأن محمّداً رسول الله». فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذ ونجى نسمة من النار».

قال القاري عند قوله ﷺ «جارنا»: فإنه أحد الجيران الثلاثة، فعن جابر مرفوعاً: «الجيران ثلاثة: فجار له حقّ واحد، وجار له حقّان، وجار له ثلاثة حقوق. فأمّا الذي له حقّ واحد فجار مشرك له حقّ الجوار، وأما الذي له حقّان فجار مسلم له حقّ الإسلام وحقّ الجوار، وأمّا الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حقّ الإسلام وحقّ الرحم وحقّ الجوار». شرح مسند أبي حنيفة (القاري): ٣٣٥، الجامع الصغير ١: ٥٦٥ / ٣٦٥٦.

لمجرّد وضع عصبي[١]، فهم بشر. ثم إن هذا المكفِّر غيره هل يلتزم بهذا الأمر مع جميع الصحابة أم لا؟ فمن المعلوم أن علي بن أبي طالب عليه السلام شُتم (٨٠) سنة علىٰ المنابر، بل حتى في الصلاة[٢]، والأكثر من هذا أن عمرو بن العاص زاد قوله: بل وأزيدكم الحسن والحسين وأُمهما فاطمة. ومع ذلك فهؤلاء في نظر أُولئك المكفّرين مسلمون.

ولقد كان مروان بن الحكم يصعد علىٰ منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة فيشبع المنبر من شتم علي بن أبي طالب عليه السلام وكذلك ابنه عبد الملك بن مروان الذي كان يعمد إلىٰ كل أثر للأنصار، أو يتعلّق ببني هاشم فيمزّقه ويكثر اللعن، ومع ذلك فمثل هذين يعدّان من المسلمين، بل تؤخذ عن طريقهما جملة من الأحكام الشرعية.

---

(١) لعلّ أبرز ما يمكن أن يقال في هذا المقام هو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخبراً أن جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول: «أصحابي». فيقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك». انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح ٥: ٤ / ٣٢١٥.
وحينما وقعت غزوة تبوك بين المسلمين والروم، ندب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلىٰ قتالهم فتثاقلوا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ التوبة: ٣٨
انظر، مجمع البيان ٥: ٦٥ جامع البيان، المجلّد: ٦ ج ١٠: ١٧٣ / ١٢٩٩١.
وكذا في قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الذي يعني مجموعة من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.
فهؤلاء صحابة لكن الله ذمّهم.
وقد رفع عمر بن الخطّاب الدرة مرّة على أبي هريرة وضربه بها علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧

(٢) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

مفارقات في تاريخنا

ثمّ يأتي من يقول: إنّ الذي قتل علي بن أبي طالب ؑ امرؤ مجتهد، وقد اجتهد فأخطأ فله أجر، لكن الذي قتل عثمان كافر لا تقبل له توبة، فما هو الفرق بينهما؟ أليس كلاهما خليفة؟ فلماذا يكون هذا حلالاً قتله، وذلك حراماً قتله؟ إن أي باحث منصف عندما يشاهد مفارقات من هذا القبيل فإن قلبه سيدمىٰ، لأن فيه خرقاً لمشاعر الوحدة بين المسلمين.

إذن فمن المهم وممّا ينبغي فعله أن يتيقّظ المسلمون إلىٰ هذا اللون من التراث الخطر الذي ما يزال يعشعش عندنا وما بين أفكارنا وطيات تراثنا.

نرجع إلىٰ الآية الكريمة فهي تقول: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾، أي فاحذروهم، واعرفوا ما هو خطرهم علىٰ دينكم ومستقبله ومستقبل مجتمعكم.

المبحث الخامس: مفهوم الحقّ وتطبيقاته في الإسلام

ثمّ قالت: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ﴾، والمقصود بالحق هنا هو القرآن الكريم والشريعة الإسلاميّة، ولذا فإن القرآن الكريم يحذّرنا من هؤلاء بقوله: إن هؤلاء ليسوا أعداءكم فقط، بل هم أعداء الإنسانية؛ لأن الشريعة الإسلاميّة لم تنزل إليكم فقط، وإنما هي رسالة عامّة لكل العالم؛ فاللّه عزّ وجلّ أرسل النبي ﷺ للناس كافة. فإذا كانت الشريعة للعالم، فهذا يعني أنها جاءت تحمل الخلاص للدنيا بأكملها.

ولو رجعنا إلىٰ الوراء قليلاً..إلىٰ الزمن الذي نزل فيه الإسلام، لوجدنا أن الدنيا حينها كانت مملوءة بأنماط من المعذّبين وأنّاتهم وآهاتهم، وبآلام الجائعين. فالدنيا من أولها إلىٰ آخرها يجتاحها الظلم والغصب والقهر، فجاء الإسلام ليخلّص الناس من تبعات هذه الحالات..جاء يحمل للناس الخير:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ﴾[١].

فتأمل الإسلام تجده رسالة عامّة تحمل عناوين عامة مهمّتها تخليص البشريّة وإنقاذها، فهؤلاء قد كفروا بها، وهذا يعني أنهم كفروا بما ينقذ الإنسانية. فما هو هذا العداء المستحكم من قبل البعض مع الإنسانية أو مع العقيدة؟

وقد يقول أحدهم: إن عدائي ليس مع العقيدة، بل مع من يحمل هذه العقيدة ويطبّقها ويلتزم بها. وهذا عين ما كان يفعله الحجّاج مع جمع من المسلمين، فكان يشِم علىٰ أيديهم (يكويها بالنار) ويقول لهم: أنتم لم تؤمنوا ولم تسلموا رغبة في الإسلام وحبّاً فيه بل إنما أسلمتم خشية دفع الجزية. ثمّ يجبرهم علىٰ دفعها ويشِم علىٰ أيديهم. وهو يفعل هذا ولو شهد عنده مئة من العدول أن هؤلاء مسلمون.

والجواب: أن هذا كفر صريح بالشريعة الإسلاميّة وبحقائقها[٢]. والحجّاج

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) بعث النبي ﷺ أُسامة بن زيد وأصحابه في سرية، فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له إلى جبل، وكان قد أسلم، فقال لهم: السلام عليكم، لا إله إلّا الله، محمد رسول الله. فبدر إليه أُسامة فقتله، واستاقوا غنمه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ النساء: ٩٤.
وقيل: نزلت في محلم بن جثامة الليثي، وكان قد بعثه النبي ﷺ في سرية، فلقيه عامر بن الأضبط الأشجعي، فحيّاه بتحيّة الإسلام، وكان بينهما إحنة، فرماه بسهم فقتله، فلما جاء إلى النبي ﷺ، جلس بين يديه، وسأله أن يستغفر له، فقال ﷺ له: «لا غفر الله لك». فانصرف باكياً، فما مضت عليه سبعة أيّام حتى هلك، فدفن فلفظته الأرض، فقال ﷺ: «إن الأرض تقبل من هو شرّ من محلم صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظّم من حرمتكم». ثم

وأمثاله ليسوا محسوبين علىٰ الإسلام، ولا يجب أخذ صورة وانطباع عن الإسلام عن مثل هؤلاء، بل يجب أخذه عن أهل الإسلام من الصحابة الخلّص الطيبين المتّقين الأبرار. فكون الحجاج أميراً في البلاد الإسلاميّة لا يعني أن الإسلام دين غير حيوي، وأنه دين دموي، قطعاً لا. والقائل بهذا مثله كمثل من يقول: أين هيئة الأُمم المتّحدة عمّا يجري في بعض البقاع من هذا العالم من مجازر ومذابح؟ أليست هذه المؤسّسة قد تبنّت مبدأ يحرم مثل هذه المجازر بحقّ بعض الشعوب التي تتعرّض كل يوم لها، ويمنع من ارتكابها؟

ومع هذا فالذي ينبغي أن يقال: إن الذنب ليس ذنب القانون الذي تبنّته الأُمم المتحدة، بل هو ذنب المطبّقين لهذا القانون، فهو تطبيق سيّئ لا يراعي الحقّ أو العدل أو المساواة. إذن فهو ذنب البشر أنفسهم. وكذلك هنا مع الدين، فالذنب ليس ذنبه بل هو ذنب من يدعي أنه مسلم وهو يسيء إلىٰ الإسلام بتصرّفه غير الإسلامي.

فنحن يجب ألّا نعادي الإسلام من أجل حفنة استولوا علىٰ مقاليد الحكم دون أن يهضموا الإسلام أو يُحكموا فهمه وفهم أحكامه. وهؤلاء هم الذين يعبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَاراً﴾[1]؛ بلحاظ أن الحمار لا يستفيد من الكتب التي يحملها علىٰ ظهره، وكذلك بعض حملة هذا الدين فإنهم لا يستفيدون منه من حيث أحكامه وتطبيقاته وقوانينه؛ لأنهم ليسوا من أهله، بل هم من المتلبّسين به.

☚ طرحوه بين صدفي جبل، وألقوا عليه الحجارة.
انظر: مجمع البيان ٣: ١٦٣، أسباب نزول الآيات: ١١٥

(١) الجمعة: ٥.

المبحث السادس: حجّة الظالمين

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، وهذه النقطة خطرة وحسّاسة جداً؛ فإن خروج الإنسان من بلده ليس أهون من خروج الروح من الجسم؛ فمن لا وطن له لا هوية له. والبلد ليس مجرد تراب يعيش عليه الإنسان، بل هو المشاعر التي يختزنها المرء في نفسه، والذكريات والتاريخ والعزّة والكرامة. فإخراج المرء من بلده يعني انسلاخ روحه من جسمه. وكيف يخرج؟ يُخرج بدعوات مفتعلة، وسأروي لك هذه الحادثة لترىٰ مدىٰ صحة هذا الأمر، يروي المسعودي في تاريخه المسمىٰ (مروج الذهب) كما ينقله عنه المجلسي في (البحار)[1] أنه كان للمعتصم غلام تركي اسمه بغا وهو من القوّاد، وكان المعتصم لا يعصي له أمراً، وقد وصف هذا الأمر أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا

يقول ما قال له   كما يقول الببّغا[2]

فكان بغا رجلاً قوياً، وكان ينزل إلىٰ الحرب دون أن يلبس الدرع أو يضع لامة الحرب، بل ينزل حاسراً وبيده السيف ويقاتل ويخرج من الحروب سالماً لم يُصب بشيء أبداً، فقالوا له: لماذا تعرّض نفسك إلىٰ التهلكة فلا

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) البيتان لجنبذ الكاتب، وقبلهما:

خلافةٌ جائرةٌ   فاسدةٌ ما تبتغىٰ

صاحبُها محتجبٌ   يفرق من حرِّ الوغىٰ

ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ٤٨٨ / ٧٩١، باختلاف يسير، مع ذكر مناسبة قولهما في المستعين.

تلبس درعاً؟ قال: سأروي لكم أمراً حدث معي، فأعطاني ضماناً ومناعة ضدّ ما تخوّفونني منه. فقالو له: ما هذا الأمر؟ ومن أين لك هذه المناعة؟ فقال: استدعاني المعتصم يوماً، فلما دخلت عليه سمعت جدالاً عالياً بينه وبين رجل كان في مجلسه، فلما رآني قال لي: ارمِ هذا الرجل في بركة السباع.

وكانت بركة السباع معدّة للانتقام ممّن لا يُرغب فيه، حيث يجمعون تلك السباع المفترسة التي فيها، ثمّ يلقون غير المرغوب فيهم داخلها فيتلذّذون بتعذيبهم وهم يتناثرون أشلاء بين مخالب السباع وأنيابها. فهل هذا هو الإسلام؟

علىٰ أية حالٍ يقول بغا: فلما أتيت به إلىٰ بركة السباع شاهدته وقد رفع رأسه إلىٰ السماء ثمّ قال: «إلهي، أنت تعلم أنني لم أنصر إلّا دينك، ولم أُوتَ إلّا عن طريق توحيدك، وإني ما دافعت إلّا عن عقيدتك وعن ديني الذي أدينك به، أفتراك تسلمني؟».

يقول بغا: فأخذ جسمي يرتجف، وأحسست بوجع في قلبي، وأحسست أن من الحرام أن أُلقي هذا بين السباع، فوقفت حائراً بين تنفيذ هذا الأمر وبين عدم تنفيذه؛ لأني سمعت هذا الرجل يناجي اللّه عزّ وجلّ بما ناجاه به.

يقول: فأخذته معي إلىٰ غرفتي وحبسته فيها، ثمّ جئت إلىٰ المعتصم، فقال لي: ماذا صنعت بالرجل؟ فقلت له: ألقيته في البركة. فقال: أما سمعته يقول شيئاً؟ قلت: لا، فأنا أعجمي، وهذا يتكلّم اللغة العربية، ولم أفهم ما الذي قاله. فقال لي: اذهب.

يقول: فخرجت، ولما أصبح الصبح أقبلت ففتحت الباب عليه وقلت له: أنا سوف أُطلق سراحك، وأنت تعرف أني قد وازنت بينك وبين دمي، لكن

أُريد منك أن تُبقي هذه الحادثة في أيام المعتصم سرّاً؛ ذلك أن البوح بها سوف يهدر دمي. وعليه سوف أُطلق سراحك وأُعطيك مايكفيك وترجع إلىٰ أهلك. ومقابل هذا أُريد أن أعرف سبب إرسال المعتصم خلفك، وسبب رميك بالبدعة.

فأخذ يسرد حكايته فقال والله أنا لست من أهل البدع، فأنا مسلم، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد برسالة النبيﷺ، وألتزم بأحكام الإسلام، غير أن هؤلاء أرسلوا لنا والياً، فأخذ يسطو علىٰ أعراض الناس، ويعتدي عليهم، وينهب أموالهم، ويشكّك المسلمين بعقائدهم، فاستنصرت عليه الناس فلم أجد من ينصرني عليه.

وكنت كلما فكّرت في أن هذا سوف يفسد في الأرض ويعارض الشريعة استصرخت الناس مستنصراً، غير أنهم لم ينصروني خوفاً من بطشه. فبيّتّ في نفسي أن أقتله، فترصّدته حتىٰ سنحت لي الفرصة ليلاً، فهجمت عليه وقتلته، وما أردت من ذلك والله يعلم بهذا إلّا وجه الله؛ لأن هذا الرجل أفسد في الأرض، واستحقّ القتل بما قام به من عمل. فاعتقلني هؤلاء، ولمّا لم يستطيعوا إخراجي من وطني بعذر الدفاع عن الدين وقتل الوالي الكافر، رموني بهذه التهمة، وأخرجوني من داري ظلماً بها.

يقول بغا: وبعد هذه الحادثة رأيت رسول اللهﷺ في المنام ومعه جماعة، فلما وقع بصره عليّ قال: «بغا». قلت: أجل. قال: «لقد سرّني ما أسديته إلىٰ مسلم من أُمتي، ولقد دعا لك هذا بدعوة استجابها الله له فيك». قلت: ياسيدي، من هو هذا؟ قال: «صاحب بركة السباع». قلت: يا رسول الله إذا كان قد دعا لي، فأنا أُريد ألّا أُحرم من دعائك أنت، فادعُ لي يا رسول الله بطول العمر. فقال النبي: «اللّهم أطل عمره، وأنسئ في أجله»، فقلت:

خمس وتسعون سنة؟ قال: «خمس وتسعون سنة». فقال رجل كان بين يديه: «ويوقىٰ من الآفات». فقال ﷺ: «ويوقىٰ من الآفات». فقلت للرجل: من أنت؟ قال: «أنا علي بن أبي طالب».

يقول: فتريدون مني الآن ـ بعد أن دعَوَا لي بطول العمر وبالوقاية من السوء ـ أن ألبس درعاً[1]؟

والقصد من هذه الحادثة أن هذا يقول: أخرجوني من داري بحجّة أني مبتدع، وهذا هو ما يسمىٰ بحجّة الظالمين، فهؤلاء لا يملكون غير إحدىٰ تهمتين: مبتدع أو خائن أو ما شابههما؛ لأنه لم يسجد للصنم.

فالآية تحذّر المسلمين من هذا المصير حيث تقول: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾. وفعلاً أخرجوا النبي ﷺ من وطنه مكّة المكرّمة، ولمّا غادرها التفت إليها ثم خاطبها (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) بقوله: **«الله يعلم أنّني أُحبّك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً»**[2].

يقول المؤرّخون: إنه ﷺ كان يسأل القادمين من مكّة عن أحوالها، وذات يوم سأل أحدهم قائلاً: **«كيف خلّفت مكّة؟»**. قال: تركت السنام وقد أعذق، والبسر وقد أغدق. فدمعت عينا النبي ﷺ.

وهكذا كانت عيناه ﷺ الشريفتان تدمعان؛ لأن الوطن في الواقع يظل يعيش في أعماق الإنسان[3]؛ ولذا فإن الشاعر يخاطب بلده بقوله:

---

(١) مروج الذهب ٤: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ٣٣٤/١١٠٣٠، ٣٤٦ ـ ٣٤٧/١١٠٤٦، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.

(٣) في (قصص العرب) أن جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحجَّ، فلما كنّا في بعض الطريق، إذا غلام واقف على محجّته، وهو ينادي: أيّها الناس، هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ فقلنا له: ماتريد؟ قال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم.

فـــداء رمـــالك لا تـــقطعِ   حـــديثك لـلـعين والمســمعِ
حنيني بها في المسا والصباح   وفـي يـقظاتي وفـي مهجعي
فــإني بـــه قــاعد والرؤىٰ   تــهوّم فـــي عــالم مـمتعِ
سأهفو لقربك وسط الجنان   أوِ ان كـنت فـي سبسبٍ بـلقعِ

نعم يبقىٰ الإنسان مشدوداً إلىٰ تربته وإلىٰ وطنه، فالنبي ﷺ كان يبكي ويحنّ إلىٰ مكّة، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام حينما أراد أن يخرج من المدينة فقد جاء إلىٰ قبر جدّه ﷺ وإلىٰ قبر أُمّه عليها السلام.. إلىٰ الأماكن التي تعيش في أعماقه.. إلىٰ تربة المدينة، ولكن أخرجه ما هو أقوىٰ، وقد عزّ حتىٰ علىٰ عائلته أن تبتعد عنها، فخرجت العائلة والأُسرة ومعها الأهل، ولكن عندما رجعت لم يكن في الركب سوىٰ الأرامل واليتامىٰ؛ ولذلك فإنّ زينب أُخت الحسين عليه السلام وقفت علىٰ أعتاب المدينة وانفجرت بالبكاء، وراحت تسترجع الذكريات وكيف خرجت وكيف رجعت.. انفجرت دموعها وانفجر عندها الحنين، فاتجهت تخاطبها:

☚ فملنا إليه، فإذا شخص ملقى علىٰ بعدٍ من الطريق تحت شجرة لايحير جواباً، فجلسنا حوله، فأحسّ بنا، ورفع طرفه وهو لايكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول:

ياغريب الدار عن وطنه   مفرداً يبكي علىٰ شَجَنه
كـلّما جـد البكـاء بـه   دبّتِ الأسقامُ فـي بـدنه

ثم أُغمي عليه طويلاً. وإنّا لجلوس حوله، إذ أقبل طائر، فوقع على الشجرة، وجعل يُغرّد، ففتح عينيه وراح ينصت لتغريد الطائر، ثم قال:

ولقد زاد الفؤاد شـجاً   طائر يبكي علىٰ فننه
شفّه ما شفّني فـبكىٰ   كلُّنا يبكي علىٰ سكنه

ثم تنفّس تنفُّساً فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتىٰ جهّزناه. وإذا هو العباس بن الأحنف.

قصص العرب ٤: ٢٣٩، رائق الضمير ١: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

مـدينةَ جـدِّنا لا تـقبلينا فبالحسراتِ والأحـزانِ جـينا
خرجنا منك بـالأهلين جـمعاً رجعنا لا رجالَ ولا بـنينا[1]

وبعد أن قضت منسك زيارة قبر رسول الله وقفت على دار أبي عبد الله الحسين:

اخوي من اطب عندك دار أرد عيني وأصـد فكـري
أخـاف تشـوف مـلعبنا الدرجنا بيه من صـغري
تـمرّ اطـيوفك اعـليّه مثل عذب الهوى تـجري

* * *

وحكّك لو چـهبت الدار أنـاجيها بـدمع سـچّابْ
أشـوف ارسـومكم بـيها واشـتّم ريـحة الأحـبابْ
واتـذكّر ثـناياكـم واتكـوّم كـبال البـابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قـد رحـلوا وخـلّفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانـا
نـذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا لأمـلأن طـريقَ الطـفّ ريـحانا[2]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.
(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١٠٧﴾

فلسفة السجود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الكَافِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الوسائل التعبيريّة للتعظيم

للتعظيم وسائل تعبيريّة كثيرة؛ فهي تارة تكون وسائل لفظية وأُخرىٰ تكون وسائل حركية، لأن اللغة عبارة عن لغة لفظية ولغة إشارة. فالأخرس مثلاً لا يستطيع النطق، فإذا أردنا أن نجري معه تعاقداً علىٰ شيء فإننا إما أن نكتب له أو أن نستخدم معه لغة الإشارة؛ فإذا هزّ رأسه كان ذلك دليلاً علىٰ أنه موافق أو غير موافق حسب مدلول هزة الرأس التي تعتبر لغة. ومثال آخر إن مَن يريد أن يشتري قماشاً من بزّاز، فإنه حينما يقيس المقدار الذي يريده المشتري يقول له: هذا ستة أمتار وثمنه (١٠٠) دينار، فإن المشتري دون أن يتكلّم يخرج له الـ(١٠٠) دينار ويعطيه إياها. وهذه العملية تعني أنه راضٍ

---

(١) البقرة: ٣٤.

بالثمن والمثمّن. وهذا التحرّك هو لغة بحدّ ذاته.

المبحث الثاني: سجود العبادة وسجود التعظيم

ونأتي الآن للسجود؛ لنرىٰ أي شيء هو. فالسجود حركة، وهذه الحركة تحتمل أكثر من معنىٰ، فهي تحتمل معنىٰ العبادة كما أنها تحتمل معنىٰ التعظيم. ومن خلال القرائن يمكننا أن نميز بين السجود العبادي والسجود التعظيمي، ولدىٰ الناس قواعد عرفية يتعاملون بها، ففي بعض المناطق تستعمل حركات معينة لوسائل التعظيم والتكريم لا تستعمل في مناطق غيرها، كأن يضرب أحدهم علىٰ كتف الآخر معظّماً له، في حين أنه في مناطق أُخرىٰ تستخدم حركات غيرها للدلالة علىٰ ذلك.

والسجود من هذا النوع، لأنه تارة يكون دالّاً علىٰ العبادة وعنواناً لها، وأُخرىٰ يكون مدلوله التعظيم والتكريم.

ومعنىٰ العبادة أن يسجد أحد لغيره؛ لأنه يراه أهلاً للعبادة. وهذا المعنىٰ لا يصحّ إلّا للّه عزّ وجلّ. وأما إذا كان الانحناء أو السجود لأجل التعظيم فلا بأس به إن كان عن أمر الله تعالى.

أقسام التعظيم عند الفقهاء

وبعده هذا البيان نرجع إلىٰ وسائل التعظيم من وجهة نظر الفقهاء ومن ميزانهم، وكيف أنهم يقسمونها. يقول الفقهاء: إن الخضوع والتعظيم له ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون منشؤه الدوافع الفطرية

أي أن يكون الخضوع والتعظيم لأُناس بدوافع فطرية، كخضوع المتعلّم

للمعلم، فعندما يجلس طالب العلم أمام الفقيه فإنه يتواضع له ويخضع. وهذا ليس بعنوان أن هذا الفقيه متّقٍ للّه ومنتقىً منه، بل لأن المعلم سوف يبني المجتمع بناءً فكريّاً، وهو بناء أهمّ من البناء الجسدي الذي يوفّره ويقوم به الأبوان؛ لأنهما يبنيان دماً ولحماً. ومع كون بنائهما بناء جسديّاً محدوداً باعتبار أنه سيموت يوماً وينتهي، والجسد يذهب إلىٰ القبر، لكنهما يستحقّان كل ذلك التعظيم والتكريم، فالمعلم الذي يبني بناء فكرياً وعقيدياً وهو بناء أهمّ فإنه يجب أن يعظّم ويكرّم لأجله.

فهذا التعظيم فطري كما قلنا، أي أنه موجود عند الإنسان بالفطرة. وهذا التعظيم مباح كما يقول الفقهاء، وليس فيه إشكال.

الثاني: أن يدّعىٰ أنه للّه وهو ليس له

كالخضوع والتعظيم للصنم، فهؤلاء الذين يخضعون للصنم يدّعون بأن تعظيمه مرتبط بتعظيم اللّه، مع أنه في واقع الأمر غير مرتبط به ولا يُنمىٰ إليه بأية علاقة. ومن هذا التعظيم الخضوع للآراء الباطلة تعصّباً.

وهذا النوع من التعظيم باطل، فكل تعظيم لصنم أو للأديان الفاسدة والعقائد الباطلة، وما سوىٰ الدين الإلهي هو تعظيم باطل وحرام؛ لأن هذا نوع من أنواع الإشراك في العبادة.

الثالث: أن يكون بأمر من اللّه تعالىٰ

وفي هذه الحالة يكون الخضوع لمن أمر اللّه عزّ وجلّ، وهو بالنتيجة خضوع له تعالى، فاللّه عزّ وجلّ قد أمرنا بالخضوع للمساجد مثلاً وللأولياء والأنبياء والكعبة الشريفة وأداء بعض الحركات بها بما يُشعر بمعنىٰ العبادة. ولهذا الأمر يكون خضوعنا لهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن خضوعاً للّه

تعالىٰ؛ لأن هذا الأمر من اللّه عزّ وجلّ.

وعليه فخضوعنا في حقيقته ليس خضوعاً للكعبة بل لأمر اللّه، وكذلك الأمر مع الأنبياء، فنحن لا نعظم النبي باعتباره دماً ولحماً، بل باعتبار أنه نبي اللّه، ومعنىٰ كونه نبي اللّه: أن اللّه تعالى أرسله للبشر، وأمره بتعظيمه وبتكريمه. فتعظيمه وتكريمه تعظيم لأمر اللّه تعالى وتكريم له.

ويندرج تحت تعظيم النبي تعظيم الأيمّة؛ لأنه بالنتيجة تعظيم لأمر اللّه تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[1]، وأولو الأمر قطعاً هم الأيمّة.

حقيقة السجود لآدم

ومن هذا القسم كان السجود لآدم، فهو بأمر من اللّه جلّ وعلا، أي أن تعظيم آدم هو بالتالي تعظيم للّه تعالىٰ.

ومن هنا نقول: إنه ليس كلّ سجود عبادة، فقد يكون رمزاً للتعظيم، وكلّ عمل منوط بالنية: «**إنما الأعمال بالنيات**»[2]. فإذا كانت الأعمال بالنيات، فسجود الإنسان تُحدّد طبيعته ويُناط جوازه وعدم جوازه بنيّته لا غير. فالنيّة هي التي تحدّد فيما إذا كان سجوده سجود عبادة أو سجود تعظيم.

محاولات رمي الشيعة بالشرك والنيل منهم

وفي هذا الخضمّ تجد من يتّهم الشيعة بالشرك، ويرميهم به من غير أن يعلم حقيقة نيّاتهم؛ من قبيل الوقوف علىٰ القبور، والتمسّك والتمسّح بها، مصوّرين

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ٢١٨، ٤: ١٨٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩، صحيح البخاري ١: ٢.

ذلك ـ بدوافع الحقد ـ للآخرين بأنه سجود لغير اللّه، وبالنتيجة فإن فاعله مشرك. لكن من قال ذلك؟ ومن منّا قال: أنا أعبد غير اللّه؟ وهل دخل ذلك المدّعي قلوبنا ومشاعرنا؟ ونحن حينما نقف علىٰ قبر إمام فإنما نقف عليه ونحن نعتقد بأننا نقيم عند عبد من عباد اللّه تعالىٰ، ونقف على ضريح ولي من أوليائه. ويشهد بهذا قولنا مخاطبين إياه في زيارته: **«أشهد أنك قد أقمت الصلاة»**(١) فهل المعبود يصلي؟

فنحن إذن نخاطب عبداً من عباد اللّه وحجّة من حججه.. نخاطب الإمام الحقّ. فوقوفنا علىٰ المشاهد المشرّفة والمراقد المقدّسة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأيمّة المعصومين عليهم السلام، ليس فيه أي قرينة تدلّ علىٰ أننا عندما نقف هناك فإننا إنما نعبد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام، لا أبداً، فليس في وقوفنا هناك شائبة عبادة أو الاستعانة بغير اللّه البتة.

إننا نستعين باللّه، ونعرف أن هذا محلّ من محالّ رحماته، لأن رحمة اللّه قريب من المحسنين(٢)، وهؤلاء محسنون، فنحن حينما نقف في هذا المقام فإن في تصورنا أننا سنكون أقرب ما نكون إلىٰ اللّه في مقام مؤهّل بأن يقبل فيه الدعاء(٣).

---

(١) الكافي ٤: ٥٧٠، ٥٧٣ / ١، كامل الزيارات: ٣٧١، ٤٠٩. وفي الزيارة عينها: «أشهد أنك عبد الله وأمينه». المصدر نفسه. بل إن أمير المؤمنين عليه السلام جعل من نفسه الشريفة الطاهرة عبداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك حينما سأله أحد اليهود فقال له: أفنبي أنت؟ فقال له: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله وسلم». الكافي ١: ٨٦ / ٥، ٩٠ / ٨، التوحيد: ١٧٤ / ٣.

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف: ٥٦.

(٣) لقد خصّ الله تعالى الإمام الحسين عليه السلام بأربع خصال: جعل استجابة الدعاء تحت قبته الشريفة، والإمامة في ذرّيته، والشفاء في تربته، وألّا يعدّ أيّام زائريه من أعمارهم. عدة الداعي: ٤٨.

تساؤل مشروع

ولنا أن نتساءل ونقول: لماذا هذا الإصرار علىٰ تكفير طائفة بأكملها؟ ولماذا هذا الإصرار علىٰ قول: إن هذا مشرك؟ وما هي المصلحة من تكفير مسلم؟ فهذا المسلم قد جاء قاطعاً مراحل طويلة، وبذل أموالاً طائلة؛ كي يصل إلىٰ قبر الرسول ﷺ ويقف عليه، والرسول ﷺ نفسه ندبنا إلىٰ زيارة القبور، وقال: «**من زارني وجبت له شفاعتي**»(١).

يقول عبد الله بن مليكة: كنت يوماً واقفاً علىٰ باب السيدة عائشة زوج النبي ﷺ، فجاءت من الخارج، فقلت لها: أين كنت يا خالتي؟ فقالت: كنت عند قبر أخي عبد الرحمن. فقلت لها: أليس قد نهىٰ رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قال: نعم، نهىٰ ثمّ نُسخ هذا النهي، وأمرنا بزيارتها؛ لأنها تُرقّق القلب، وتُذكّر الآخرة(٢).

---

(١) كامل الزيارات: ٤٤ / ١٤، المغني ٣: ٥٨٨، كنز العمّال ١٥: ٣٨٣ / ٤١٤٨٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٧٨، فتح الباري ٣: ١١٨. وقال الرسول الأكرم ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة». سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما، وفي تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب، وتُدمع العين، وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها». وانظر: الموطّأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذّب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».

وفي كشف القناع ٢: ١٧٤، بعد أن نقل الأحاديث المارّة، أورد عبارة الماتن: «ولا يمنع كافر من زيارة قريبه المسلم»، ثمّ علّق قائلاً: حيّاً كان أو ميّتاً. ثمّ نقل كراهتها للنساء دون حرمتها. وقال في كشف القناع ٤: ٣٠١ مانصّه: فإن زيارة القبور للرجال سنّة.

الآثار الإيجابيّة لزيارة القبور

إن الوقوف علىٰ القبور له عدّة مردودات إيجابيّة علىٰ الإنسان، منها:

الأول: الاتّعاظ بالموت وعدم الاغترار بالدنيا

فالإنسان عندما يقف علىٰ القبر يشعر بتفاهة الدنيا، ويؤول إلىٰ نتيجة يناجي بها نفسه: إننا بعد هذه الأموال الطائلة والقصور وغيرها سندفن هنا بين أربعة أحجار. فيأخذ الإنسان بالتفكير في مصيره ونهايته وما سيكون عليه أمره في نهاية المطاف، فيخضع ويخشع[1].

الثاني: ذكر الميت بما يرجع عليه حسناتٍ عند اللّه

فالإنسان حينما يقف علىٰ قبر المؤمن ويقرأ له شيئاً من القرآن، أو يهدي له ثوابه فإن هذا مما سينفعه عند الحساب ويردّ عنه وحشة القبر؛ لأن الإنسان عندما يموت فإن جسده هو الذي يبلى بموته، أما روحه فهو باقٍ لا يموت، بل يبقىٰ يلتذّ ويعذّب بما فعل صاحبه في الدنيا، وبما يصل إليه من أهله وذويه.

وعليه فهذا الرأي ـ أنه سجود تعظيم ـ هو الذي عليه علماء المسلمين كافّة. ونحن إنما نملك رافداً من روافد الفكر في الإسلام، وهو الفهم الظاهري الذي يثبت بظواهر الألفاظ؛ إذ أننا عندما نقرأ الآية ونعرف منها أن اللّه عزّ وجلّ أمر بالسجود لآدم فإننا نفهم من هذا الظهور اللفظي أن هذا السجود ليس معناه العبادة، بل هو تعظيم لآدم لما يحمل في طياته من امتثال لأمر اللّه، حيث إنّ اللّه لو علم أن في هذا شائبة عبادة لما أمر به؛ لأنه تعالىٰ

---

(١) قال رسول اللّه ﷺ: «كفىٰ بالموت واعظاً». الكافي ٢: ٨٥ / ١، وفيه: موعظة، بدل: واعظاً، تحف العقول: ٣٥.

لا يأمر بالمعصية مطلقاً.

وقد يقول قائل: إن اللّه ليس فقط لا يمنع من أمر المعصية، بل يأمر بها ويخلقها أيضاً.

والجواب: أن هذا قول عجيب، ويعذّب عليه قائله؛ لأن الذي يزني سيقول: إن اللّه هو الذي خلق فيّ طبع الزنا. وإذا كان اللّه قد خلق فيه طبع الزنا فما هو ذنبه إذن لكي يعذبه عليه؟

وقد يجيب هذا المدّعي بأن اللّه تعالىٰ يقول: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾[1]، ونحن لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه.

ونقول: إن هذا صحيح، وهو أننا لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه تعالىٰ ما الذي يفعله، ولكن اللّه لا يفعل القبيح، ولا يمكن أن يأمر بفعل القبيح ثم يعذّبنا عليه، حاشا للّه.

إذن كان أمر اللّه عزّ وجلّ بالسجود لآدم تعظيماً له، ولذا كان امتثال هذا الأمر طاعةً للّه جل وعلا، وليس فيه أي شائبة معصية. وكذلك عندما أمر الله تعالى بتعظيم الأولياء، فنحن لا نعبد الولي؛ لأن الولي نفسه محتاج إلىٰ رحمة اللّه تعالىٰ، وهو عبد من عبيد اللّه يتأثّر بالضرر والنفع، وبحاجة إلىٰ عطاء اللّه. فليس من أحد فينا يعتقد بأن هؤلاء الأولياء يضرّون وينفعون من دون اللّه. ولكن لا أدري لماذا يتّهمنا هؤلاء بالشرك والعبادة لغير اللّه، ولا يقنعون بهذا الكلام وهذه الأدلة؟

فنحن نقول لهم: اعرضوا هذه المسألة علىٰ المقاييس الشرعيّة والعقليّة.

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

فإذا خضع إيرادكم لها، فهو مقبول! أما أن تفتروا تهمة على شريحة من المسلمين وتكفّروهم بدون دليل، فهذا مما لا يرضىٰ به اللّه عزّ وجلّ، ولا يرتضيه العقل.

المبحث الثالث: تداعيات خلق الإنسان من تراب

ولنرجع إلىٰ الآية الكريمة حيث إنها تقول: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾**.

سبب تسمية آدمعليه السلام

وهنا يرد سؤال وهو: ما هو السبب في تسمية آدمعليه السلام بهذا الاسم؟

والجواب: هو أن كلمة آدم مأخوذة من أديم الأرض، أي وجه الأرض، ومعنى هذا أنهعليه السلام خلق من التربة. وهذا الإنسان الذي خلقه اللّه من التراب ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ يترتّب عليه أمور، منها:

الأمر الأوّل: ارتباطه بتربته ووطنه

فالإنسان يلاحظ أنه غالباً ما يكون ملتصقاً بتربته ووطنه الذي ولد فيه ونشأ به. فهو مأخوذ من أديم الأرض، وأصله هذا يوحي إليه بضرورة الدفاع عنها، يقول القرآن الكريم: **﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾**[1].

ونفهم من هذه الآية أن الذي يُخرج من دياره يجب أن يجاهد في سبيل استعادتها واستعادة أرضه ووطنه، ولا يصحّ أن يجلس في بيته ويقول: إلهي خلصني من هذا الذي أخرجني من وطني ودياري، بل عليه الجهاد في سبيل

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

الله واستعادة كرامته. ينقل التاريخ أن أحد ملوك الأندلس عندما أخرجه الروم من أهله وملكه بكىٰ، وكانت والدته جالسة فقالت له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً — لم تدافع عنه دفاع الرجال

فالأرض لها مكانة في النفوس، وليس للإنسان أم حنونة تحتويه مثل الأرض، فعليها يصبح ومنها يأكل، وفي نهاية الأمر تضمّه وتحتويهه. ولذا فإن الإنسان إذا مات ولم يوضع في باطن التراب فإنه يصبح مرعب المنظر وتفوح منه رائحة كريهة.

ولأهمية الأرض عندنا كان لها حكم في موضوع الإرث بالنسبة للزوجة عندما يموت زوجها، فهي لا ترث الأرض منه. والسبب هو: منع الأجنبي عن دخول هذه الأرض. فالشابّة التي يتوفّىٰ زوجها عندما تريد أن تتزوّج فإن هذه الأرض التي ورثتها من زوجها ـ لو قيل بتوريثها منها ـ قد يأخذها الزوج الجديد، وبالتالي تصبح ملكاً للأجنبي.

وقد يسأل البعض ويقول: إن البنت أيضاً من الممكن أن تتزوّج، وبالتالي تنقل الأرض إلى الأجنبي؟

فنقول له: الأمر يختلف هنا؛ لأن البنت لازالت تحمل اسم الوالد، ووجوده ممتدّ فيها، غير أن الزوجة ليست كذلك؛ إذ أن وجوده غير ممتدّ فيها، وتنتهي العلاقة بينه وبينها بالموت أو بالطلاق مثلاً[1].

---

(١) قال الإمام الرضا ؏: «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئاً إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه (الزوج) من العصمة ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا

إذن فالإنسان يحنّ إلىٰ أرضه التي ولد فيها، ويبقىٰ كذلك وإن كانت هذه الأرض صحراء قاحلة، وهذا شيء فطري.

الأمر الثاني: إشعار الإنسان بضرورة تواضعه

فإن في خلق آدم من أديم الأرض معنىٰ يجعله يشعر بشيء من التواضع، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يتحمّل النعم التي أنعم اللّه بها عليه، من مال أو جاه؛ سواء كان اجتماعياً أو غيره. وهذا البعض قد يخرج عن طوره الإنساني، وربما ادّعى الربوبية والعياذ باللّه. ولهذا كانت هذه الضرورة. فالإنسان عندما يعرف أنه من التراب ويرجع إلىٰ التراب، ويستشعر هذه الحقيقة ويتيقّن بها، فإن ذلك يجعله يذعن ويتواضع.

ولهذا المعنىٰ لقّب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بـ«أبي تراب»؛ لأن التراب كان يخلص إلىٰ جسده. وفي هذا دلالة علىٰ تواضعه. وهناك رواية تقول: **«يا علي أنا أوّل من ينفض التراب عن رأسه وأنت، ثم الخلائق»**[1]. وهذا بالطبع بعد الأنبياء وبعد النبي صلى الله عليه وآله. فـ«أبو تراب» يعني المتواضع.

وأقول: لو كانت واحدة من مؤهّلات علي بن أبي طالب عند غيره لرفعوه إلىٰ السماوات العُلىٰ. انظر إلىٰ تاريخ المسلمين وتأمّله هل عرف رجلاً أشجع من علي بن أبي طالب عليه السلام؟ ثم لاحظ الحقائق الواقعيّة والميدانية فيه؛ إن هذا الرجل كان سيف المسلمين المصلت المدافع عنهم، الذي كان وما يزال يتغنّىٰ به الدهر وبسيفه. يقول أحد الشعراء:

☚ أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام». الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

(١) الأمالي (الصدوق): ٦٥٦ / ٨٩١، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٠٦.

بسيف أبي رغوان سيفِ مُجاشعٍ ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن طالبِ[(١)]

فهذا هو الرجل الذي كانت الأمثال تضرب به، كانوا إذا جاء علي﵇ قالوا: احذروا الحطم، احذروا القضم[(٢)]؛ إذ لم يكن أحد يستطيع أن يدني نفسه منه؛ لأن رأسه حينئذٍ سيفارق بدنه.

هذه شجاعته، وأما علمه فيكفي أن نأخذ بقول رسول اللّهﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[(٣)]. وهذه الرواية ترويها العشرات من كتب المذاهب المختلفة. ولكن يدّعي مدّعٍ فيقول: لا وجود لهذا الحديث[(٤)]. فأليس هذا شيئاً غريباً؟

أو من يحاول أن يقلّل من فصاحته فيقول: إن ما هو موجود في (نهج البلاغة) ركيك! ولنا أن نسأله: ارجع إلىٰ كتب الأدب وكتب العرب، فهل

---

(١) البيت للفرزدق، قاله لمّا ضرب عنق رومي فنبا السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد هجاني، ثمّ أنشد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٣، وروي البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبري ٥: ٣٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

(٢) لأنه﵇ كان يحمل ساعداً يُعبَّر عنه بالحاطم والقاضم. شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١.

قال ابن الأثير وابن منظور في مادة قضم: «كان علي بن أبي طالب﵇ إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم، لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم.

وقال الراوندي وابن الأثير: «كانت ضربات علي﵇ بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ». الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٢٧، مسند أبي يعلي ٢: ٥٨ / ٦٦٩، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٤) العلل (الدار قطني): ٣: ٢٤٧، كشف الخفاء ١: ٣٠٣ / ٦١٨. ونقل المتقي في كنز العمّال ١٣: ١٤٧ / ٣٦٤٦٢ عن الترمذي قوله: إنه منكر.

ستجد ديباجة مشرقة ورائعة مثل ديباجة (نهج البلاغة)؟ وهل هناك ما هو أفصح ممّا في هذا الكتاب؟ وهل سمعت كلاماً أفصح من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول في دعائه عند الصباح: **«اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرّجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته»**[١]؟ فتأمّل هذا النوع الرائع من العطاء والأداء! وهكذا جميع خطبه.

فعلي بن أبي طالب عليه السلام كان يملك من الصفات: الفصاحة والشجاعة والبلاغة والعطاء والكرامة والاعتزاز بالنفس والنبل الذي لا حدود له. فأي نبل سامٍ هذا الذي يدفعه ليدخل مباشرة بعد واقعة الجمل علىٰ أُم المؤمنين ليطمئن علىٰ أوضاعها؛ لأنها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢]؟ وأي نبل كريم هو حيث إنه عليه السلام يصفح عن مثيري الفتنة، إذ وقفت له امرأة بباب دار أحد البيوت، وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم اللّه ولدك. فقال عليه السلام: **«لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»**[٣]، وكان فيها مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط؟ إن هذا اللون من النبل هو الذي

---

(١) قطعة شريفة من دعائه عليه السلام عند الصباح. انظر: بحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

(٢) وإضافة إلى ذلك أمر الجيش بالكف عنها كما في تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣، وأمر أخاها محمداً بإكرامها وإيصالها إلى بيتها، ثم هيّأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمنها. تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٣) هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي. دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. وقد مر في ج ٢ ص ٣٠ من كتابنا هذا.

دأب عليه علي بن أبي طالب وأهل بيته (صلوات الله وسلامه على رسوله وعليهم أجمعين).

خلقٌ أقلُّ نـعوتِه وصـفاتِه أن الجلالَ بمثلِه مقرونُ[(١)]

ومع كل هذه المزايا الموجودة لدىٰ هـذا الرجـل يأتـي التـاريخ ويـضعه بجانب الطليق معاوية، ويقول لكليهما (رضي اللّه عنه).

فسلام اللّه عليه حين قال: «**أنزلني الدهر حتىٰ قيل: معاوية وعلي**»[(٢)].

وأقول: إن نقل هذه الأُمور في التاريخ سوف يـخلق مـن يشكـل عـلىٰ مقاييسنا هذه:

ألم تـرَ أن السـيفَ يـزري بـحدّه مقالةُ أن السيفَ أمضى من العصا[(٣)]

رجـع

نعود إلىٰ موضوعنا: فآدم عليه السلام سمي بهذا؛ لأنه من أديم الأرض، ذلك ليتعظ ويعود إلىٰ التواضع. وأيضاً من أهداف خلق آدم من أديم الأرض هو تكريم الأرض أيضاً. يقال: لديك أم، وأُمك هذا التراب أو هذه التربة.

المبحث الرابع: تساؤلات حول الدين

التساؤل الأول: هل يحرّم الإسلام الاعتداء علىٰ البيئة؟

وقد يسأل أحدهم ويقول: هل توجد أوليات في الشريعة الإسلاميّة توحي بعدم الاعتداء علىٰ البيئة؟

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٢) الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥.

(٣) بيت من جملة أبيات استظهر البعض نسبتها إلى الإمام المهدي عليه السلام. انظر: بحار الأنوار ١٠٥: ١١٧، المناظرات في الإمامة: ٣٤٥.

فيقال له: عندما ترجع إلىٰ الروايات وفي مختلف الأبعاد فستجد هناك العديد منها تذكر المياه والتراب وغيرها، وكلها تشريعات إسلامية في هذا المجال، وستجد فيها آراء مختلفة. والمهم أن هذه الروايات تشعر بأن الإنسان يجب أن يكرم أمه، وأنه أولىٰ بتكريمها. وعليه فإن امتناع إبليس من السجود لآدم كان امتناعاً عنصرياً: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1].

التساؤل الثاني: لا يخلو المكلّف عن أحد ثلاثة

إن المجتمع الإسلامي ينقسم حسب فهمه الدليل وعدم فهمه له، وحسب قابليّته على الاستنباط وعدمها إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المجتهد، وهو من يعرف الدليل العلمي ولا يحتاج إلىٰ تقليد أحد، بل إنه يستخرج الحكم الشرعي من مداركه نتيجة معرفته بالدليل.

الثاني: المحتاط، وهو من يعرف الدليل العلمي ولكنه لا يستطيع أن يستنبط الحكم الشرعي، فهو يحتاط في الحكم.

الثالث: المقلّد أو العامّي، وهو من لا قابليّة له على فهم الدليل العلمّي، ولا معرفة له بهذه الأُمور؛ فهو يقلّد العالم المجتهد الجامع للشرائط الذي وضع لنا الشرع الإسلامي مقياساً خاصّاً له للرجوع إليه، مثل الورع والتقوىٰ والعلم إلىٰ آخره.

فالشرع وضع لنا هذه الشروط لنستنير بها في رحلة الالتزام بتكاليفنا، ولكن للأسف هناك من الناس يقلّد العالم الفلاني؛ لأنه من جنسيته أو من قوميته، وهذا خلاف ما شرع لنا الإسلام، فالإسلام يرفض العنصرية

---

(١) الأعراف: ١٢.

والتعنصر، فـ«كلّكم لآدم، وآدم من تراب»[١]. والآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]. وقد وقع إبليس في هذا المدخل إذ قال: «أأسجد لبشر خلقته من طين»[٣].

التساؤل الثالث: هل إن الذكر أفضل من الأنثىٰ؟

وقد يقول البعض: إن الذكر أفضل من الأنثىٰ؛ استناداً إلىٰ تقديم الذكر علىٰ الأنثىٰ في الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[٤].

والحال أنه ليس هناك أفضلية بينهما، بل أن هذا التصنيف حسب الوظائف، وحتىٰ بالنسبة إلىٰ الأحكام فالمرأة لديها أحكام تتناسب مع طبيعتها والرجل كذلك. فلا يفهم من هذه الأمور وجود الأفضليّة بين الرجل والمرأة؛ لأن الباري عزّ وجلّ وضع الأشياء في موضعها الصحيح بمقتضى عدله وحكمته، وأعطىٰ كلاً حسب مستواه.

التساؤل الرابع: هل يعدّ إبليس عاصياً؟

وعليه فامتناع إبليس عن السجود لآدم امتناع عنصري. والغريب أن القاضي في تفسيره يلبس الحوار الذي دار بين الباري عزّ وجلّ وبين إبليس معنىٰ صوفياً؛ حيث إنه يقول: «قال اللّه عزّ وجلّ لإبليس: اسجد. فقال: لا، أنا أنأىٰ وأرتفع بشرف السجود علىٰ أن يكون لغيرك، إن كنت أمرتني فقد نهيتني عن أن أسجد لغيرك».

---

(١) تحف العقول: ٣٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨.

(٢) الحجر: ١٣.

(٣) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ الإسراء: ٦١، أو إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ الحجر: ٣٣.

(٤) النجم: ٤٥.

وهذا أمر عجيب حقاً! ويا لها من محاورة بلهاء، كأن اللّه عزّ وجلّ يأمره أن يعبد غيره حاشا للّه.

ثم يضيف القاضي في تفسيره قائلاً: «فقال اللّه: أُعذبك عذاب الأبد. فقال: إذا عذبتني فهل تراني في العذاب؟ قال: أراك. فقال: إنّ رؤيتك إياي تخفّف عني ألم العذاب».

وهذا خطأ طبعاً؛ لأن اللّه عزّ وجلّ ينعم من أطاعه ويعذّب من عصاه، ولا يأمر إلّا لوجود حكمة ومصلحة. فحينما أمر الملائكة وإبليس أن يسجدوا لآدم كان لغرض تعظيم آدم وليس لعبادته.

التساؤل الخامس: ما الذي يصحّ السجود عليه؟ وما دليله؟

ويأتي من يقول: إنكم عندما تسجدون علىٰ التربة فإنما تعبدونها. وطبعاً لا واقع لهذا الأمر؛ لأن التربة موضع سجود لا أكثر. وسجودنا في الواقع هو للّه سبحانه وتعالىٰ. والنبي أمرنا أن نسجد علىٰ الأرض[1]، ولم يقل لنا: اسجدوا علىٰ السجادة. فنحن نحتجّ عليكم بهذا؛ لأن الألفاظ لها ظواهر، وظاهر اللفظ حجّة. فاللّه أمرنا أن نسجد علىٰ الأرض، وإذا سألنا العرف: ما هي الأرض؟ فسيقول لنا: إنها قطعة من التراب. كما أننا نحتج بأن نقول للخصم: ايتِنا بدليل واحد أو نصّ صحيح يصرّح بجواز السجود علىٰ السجادة.

---

(١) قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». الخلاف ١: ٤٩٦ / المسألة: ٢٣٦، جامع الخلاف والوفاق: ٤٢. وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه عليه السلام قال عن لسان الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وآله: «وقد جعلت الأرض كلّها لأُمّتك مسجداً وطهوراً». الاحتجاج ١: ٥٢١ ـ ٥٢٧ / ١٢٧.

أما دليلنا علىٰ ضرورة السجود علىٰ الأرض فهو من الكتاب والسنة، والإجماع والعقل اللذين يعودان إلى السنة. والإجماع دليل يكشف عن رأي المعصوم، وهو قسم من أقسام السنة. وإنما قلنا بدليل العقل باعتبار أن الشارع داخل مع العقلاء فالشارع سيد العقلاء.

ودليل فعلنا من السنة هو أن النبي ﷺ كان يسجد علىٰ الأرض والصحابة كذلك، ولذا كانوا في أيام الصيف يبرّدون الحصاة قبل السجود عليها. ويذكر التاريخ أن بعضاً من المسلمين اشتكوا أيام الخليفة الثاني من السجود علىٰ الأرض في أيام المطر لأن الأرض تصبح طيناً ويلتصق بجباههم، فأمر أن يفرش المسجد بالحصاة؛ لأن الحصاة يجوز السجود عليها. وكل هذه أدلة علىٰ صحّة أفعالنا.

التساؤل السادس: هل كان موقف الحسين؛ خالصاً لله؟

فالسجود إذن لغير اللّه عزّ وجلّ لا يصحّ، وكل عمل يجب أن يتعلّق بوجه اللّه سبحانه وتعالىٰ وإلّا فهو باطل. فيجب علىٰ الإنسان المسلم أن يجعل وجه اللّه نصب عينيه في كلّ عمل يقوم به. وهذا عين ما كان عليه أبو الشهداء؛ في يوم الطف؛ فإننا إذا تأمّلنا موقف أبي عبد اللّه؛ في هذا اليوم، وأمعنا النظر فيه، فسنعرف أنه كان متعلّقاً باللّه عزّ وجلّ بكلّ وجوده. وهذا التعلّق هو الذي منحه هذا الخلود الذي نراه اليوم، فلم يشغله منظر أهله وأصحابه المقطّعين إرباً إرباً، ولا منظر الخيام المشتعلة، ولا صياح ونياح النساء والأطفال. فعندما نظر إلىٰ كلّ هذه المناظر رمق السماء بطرفه وقال: «**صبراً علىٰ قضائك يارب، ياغياث**

المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبىٰ يارب »[1].

فلسانه عليه السلام كان مشغولاً بذكر اللّه، وذهنه متعلّقاً بالملأ الأعلىٰ وهو في النزع الأخير، لكن كيف كان حاله عليه السلام وهو يسمع صوت أُخته زينب عليها السلام وهي تنادي: «يابن أمي يا حسين، نور عيني يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلىٰ اللّه»[2].

يقول الراوي: جعل ينوء برقبته يميناً وشمالاً يحاول الحركة، لكنه لم يستطيع..نهض وسقط ثم نهض وسقط، ثم خضع لأمر اللّه وهو يسمع أصوات العيال تنبعث إليه:

خويه المن بعد يا حسين منواي ... ظني انكطع وانكطع رجواي

أناجيك مايشجيلك انداي ... ولا تسمع عتابي ونخواي

شتهيّس يخويه بونتك هاي

لقد كان لهذه المرأة لحظات لا يمكن أن تنسى مع أخيها الحسين عليه السلام، فمنذ أن نشأت وهي مع الحسين عليه السلام لم تفارقه، إلىٰ أن فارقها في كربلاء. فهي على امتداد هذا العمر كانت إلىٰ جانبه عليه السلام؛ ولذلك كانت صورة أخيها الإمام الحسين عليه السلام ملازمة لذهنها ولم تبارح خيالها؛ ولذا عندما جنّ عليها الليل بادرت إلىٰ مصرع أبي عبد اللّه:

خويه بحليب أمي عليك ... بطّل الونّة ورفس رجليك

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٢) المصدر نفسه.

﴿١٠٨﴾

مراحل الخلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الأسباب الطبيعية وعلاقتها بمسبّباتها

غالباً ما تنسب المسبَّبات للأُمور الحسّية، فلو سأل شخص عن الكيفيّة التي يتكوّن بها الزرع أو الإنسان، فإننا سنجيبه بأن الزرع يتكوّن عادة من التراب والماء والهواء والبذر، والإنسان يتكوّن من الأمّ والأب، فننسب ذلك إلى السبب الطبيعي المباشر. فنحن نعرف أن السبب الطبيعي للزرع هو الأرض والماء والهواء، والسبب المباشر لتكوّن المطر هو السحاب، لكن القرآن الكريم يدعونا إلىٰ أن ننتقل من السبب الطبيعي المباشر إلى السبب

---

(١) فاطر: ١١.

الأساسي، وهو الله تعالىٰ، بدليل أن الأسباب الطبيعية المباشرة قد تجتمع دون أن يقع المسبَّب، فمثلاً توفّر البذر والماء والهواء والتربة قد لا يحصل معه الإنبات، أو أنه لا يوجد مانع من الإنجاب عند الرجل والمرأة، ومع ذلك لا يولد لهما طفل، وهذا مما يلزم إرجاعه إلىٰ السبب الأساسي وهو اللّه تعالىٰ.

كما أن القرآن الكريم ينبّهنا في آيات أُخرى إلىٰ ذلك، فيقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾(١)، ويقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ﴾(٢).

فالقرآن يعود بأذهاننا إلى الانتقال إلى السبب الأول وهو الله تعالى، ويبيّن لنا أنه مسبّب الأسباب؛ ولذلك بدأت الآية الكريمة بهذه الناحية مؤكّدة على ضرورة طرد الأسباب المباشرة، ووجهت نظرنا إلى التوحيد والاعتراف بوجود السبب الأول وهو الله عزّ وجلّ.

المبحث الثاني: الأهداف التربويّة لجعل عمليّة الخلق على مراحل

ثم إنها بعد أن ذكرت أن الله هو الخالق بينت مراحل الخلق فقالت: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾. ومعنى أنه تعالى خلقنا من تراب مع أن آدم﴿ع﴾ هو الذي خُلق من تراب، ونحن خلقنا من نطفة هو أننا خلقنا من التراب أيضاً، لكن ليس بصورة مباشرة، حيث إننا نشأنا من النطفة، والنطفة من الطعام، والطعام

---

(١) الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) الواقعة: ٦٣ ـ ٧٢.

من الشجر والزرع، والزرع من الأرض؛ وبهذا يصحّ أن يقال بأننا قد تكوّنّا من التراب. ولهذه التدريجيّة في الخلق جملة من الأهداف نذكر منها:

الهدف الأول: نفي الشعور بالغطرسة

إن القرآن الكريم يحاول أن ينفي عندنا الشعور بالغطرسة، حيث إن بعض الناس قد يظنّ أنه مخلوق من مادّة تختلف عن المادة التي خلق منها الآخرون، وأن دمه دم خاصّ، أو أنه ذو أعراق خاصّة. وهذا اللون من التفكير لازال موجوداً إلىٰ الآن حيث يعتزّ بعض الناس بقبيلته إلى درجة لا يعترف معها بغيرها، فيرون أنهم السادة والعظماء، وأن غيرهم لا شيء أمامهم. فهذا المعنىٰ يؤكّد القرآن الكريم على ضرورة طرده من النفوس؛ لأنه يولّد الغطرسة والكبرياء واحتقار الناس، وهذا معنى يأباه الدين؛ لأن الدين إنما جاء ليزرع الخُلُق في الناس ويغرس فيهم أن الإنسان أخو الإنسان بغضّ النظر عن أي ناحية أُخرىٰ: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً**﴾[١].

وقد يسأل سائل فيقول: نحن نعرف أن أهل مدين أُناس كفرة، وأن شعيباً عليه السلام نبي، فكيف يعبّر عنه بأنه أخوهم؟

والجواب: أنه عليه السلام أخوهم في أصل المنشأ والخلقة، أي من تراب واحد، فلا يوجد فرق بين الناس في أصلهم ونشأتهم[٢]، مع أن أوروبّا لا زالت

(١) الأعراف: ٨٥.

(٢) وقد مرّ سؤال أحدهم الإمامَ السجادَ عليه السلام عن قول أمير المؤمنين عليه السلام حول أهل النهران: «إنهم إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم»، فكيف ساغ له قتل إخوانه؟ فأجابه الإمام السجاد عليه السلام بقوله: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال عليه السلام: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾، فكانوا إخوانهم

تعتقد إلىٰ الآن بأنها الجنس المميّز، وأن الأوروبّيين هم الذين بنوا صرح الحضارة، وهم الذين صنعوها. ويقولون: إنكم مدينون للجنس الأشقر؛ فهو الذي صنع الحياة وطوّرها. وهم يتعاملون معنا معاملة قائمة علىٰ أساس أننا كيان بدائي، في حين أنه لا يوجد فرق بين إنسان وآخر؛ فالكل من منشأ واحد.

كنا جالسين في مكان ما في انكلترا، فجاء شخص انكليزي وقال: نحن لا نتعامل معكم علىٰ أساس العنصرية، والدليل على هذا أنكم ملونون، ونحن مع ذلك نجالسكم.

فانظر كيف أنهم إلى الآن مازالوا يعيشون هذه الذهنية. وهذا الذي أراد القرآن أن يطرده من أذهاننا، فالإسلام جاء لزرع الخُلُق فقال: إن أصلكم واحد وهو التراب.

الهدف الثاني: التذكير بحقيقة الموت

فالقرآن الكريم يحرص على أن يبقينا على اتّصال دائم بالله عبر تذكيرنا بالحقيقة المرّة للموت؛ وكذلك لكي نتّعظ بها، وذلك أن بعض الناس لا تمرّ فكرة الموت بأذهانهم، فتراهم منشغلين بحياتهم ومركزهم الاجتماعي وغيره وبأموالهم، فينسون الله تعالى وما فرض عليهم من التكاليف التي يتهذّبون عن طريقها، وبها يرتقون إلى المستوى الإنساني. فالقرآن الكريم يواجه هؤلاء

☚ في دينهم أو في عشيرتهم؟». فقال له الرجل: لا، بل في عشيرتهم؟ فقال﵇: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم». فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ اللّه عنك. تفسير العياشي ٢: ٢٠/٥٣.

بهذه الحقيقة: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[١]، أي يرجع إلى التراب، فاعلم أيّها الإنسان أن جميع ما عندك من وسائل الراحة والترف والرفاهية ستعطيها للتراب.

وهذه حقيقة مرّة، فالأرض التي نمشي عليها هي جبهات وأيادٍ وخدود، فهناك أجيال وأجيال تكدّست تحت قدميك وأنت تمشي عليها[٢]، وهذا أحد الشعراء يصف وادي السلام عن بعد فيقول:

تكوّر فيه كلُّ جيل بحفرةٍ ... فلخّصت الأجيالَ تلك الحفائرُ
تُرى للعيونِ الزرقِ فيه جداولٌ ... وللعزماتِ الصلبِ فيه عساكرُ
بها يستوي مَن مات من عهدِ آدمٍ ... ومَن مات من أمسِ فكلٌّ دوائرُ
ركائبُ أجيالٍ تيمّمن ماجداً ... يؤمِّل جدواه مقيمٌ وزائرُ
ومثلُ علي وهو ما عزَّ مثله ... سريٌّ يرجّي رفدَه من يجاورُ

وهكذا تكدّست الأجيال في الحفر عبر العصور والأزمنة، لكننا ننسى هذه الحقيقة المرّة. يروي المؤرّخون أن الإسكندر أعجبته نفسه؛ لأنه التفت وراءه، فرأى جيشاً ضخماً يربو على مليوني محارب، فشعر بشيء من الاعتزاز والزهو، وفي هذه الأثناء مرَّ بشخص جالس عند القبور ينبش فيها، فقال له: ما تصنع؟ قال: أنا أنبش القبور في هذه المقبرة منذ فترة؛ لأرى إن

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

(٢) قال أبو العلاء المعرّي:

خفّف الوطءَ ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلّا من هذه الأجسادِ
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ
سر إن اسطعت في الهواءِ رويداً ... لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ

شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

كانت العظام المتبقّية فيها تتميّز عن بعضها البعض أو لا. ففيها عظام متنوّعة لعظماء وعباقرة وملوك وفلاسفة وأُناس بسطاء كلّهم ماتوا ودفنوا هنا، فأردت أن أُميّز بين عظام هؤلاء وعظام هؤلاء، فرأيت أنها لا تختلف. وهذا المعنى طلب أحد الأعراب أن يكتبوه على قبره:

ياواقفينَ ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشِعبنا لعرفتمُ ... أن المفرطَ في التزوّدِ نادمُ
لا تستعزّوا بالحياةِ فإنكم ... تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردى مابيننا في حفرة ... حيث المخدَّمُ واحد والخادمُ[1]

فهذه الحقيقة يجب ألّا يغفل عنها الإنسان، بل الذي ينبغي عليه أن يذلّ نفسه أمام اللّه وأمام الموت حينما يذكرهما، وأن يحسن سلوكه؛ فليس هناك واعظ مثل الموت[2]. فالآية أرادت أن تنبّه الإنسان لهذا، وأن توقظه من رقدته.

والإنسان فيه قابلية للسمو وفيه قابلية للانحدار حسب تربيته وسلوكه

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩. ومثلها ما أنشده أبو علي الحسن بن فراج الطرابلسي من قصيدة:

حكمَ الإلهُ على الورى بفناءِ ... مستأثراً من دونهم ببقاءِ
فإلى نفادٍ كلّ شيء صائرٌ ... وإلى مماتٍ مرجعُ الأحياءِ
ساوى الردى بين الورى لكنّهم ... فيما سواه ليس هم بسواءِ
ما في الخليقةِ والمهيمنِ غابرٌ ... من ساكني الخضراءِ والغبراءِ
أين النجاءُ لذي حياةٍ من ردى ... كلّا وهل يسطاعُ ردُّ قضاءِ

معجم السفر ١: ٢٧١.

(٢) قال رسول اللّه ﷺ: «كفىٰ بالموت واعظاً». مصباح الشريعة: ١١٣، الجامع الصغير ٢: ٢٧٢ / ٦٢٤٥.

واستعداده، فالبعض يسمو إلى مستوى رائع، وعندما نقرأ سيرته فإننا نحسّ بها كأنها جنة من الجنان، أما البعض الآخر فعندما نقرأ سيرته فإننا نحس كما لو أناّ على أنياب ذئب يريد أن ينهشنا. فصحيح أن الإنسان من تراب، لكن بوسعه أن يسمو ويكون نوراً وألقاً.

المبحث الثالث: الحكمة من التدرّج في الخلق

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، و«ثم» يعتبرها علماء اللغة للتعقيب والتراخي[١]، أي فترة بعد فترة، بمعنىٰ أنها انتقلت من دنيا التراب إلى النطفة، فما المقصود بذلك؟

إن القرآن الكريم يخاطب الإنسان بقوله: لماذا تظنّ أن من الصعب أن يخرجك الله تعالى من التراب ومن القبر؟ ألم تكن مبدئياً من التراب ثمّ حوّلك إلى نطفة؟ فالذي حوّلك من حالة إلى حالة أوّل الأمر يستطيع أن يحوّلك من التراب إلىٰ الحياة في نهاية المطاف يوم الحساب. فأنت خرجت من تراب ميت، وانتقلت إلى نطفة فيها حيوان يتحرّك، وكذلك غداً فإنك إذا خرجت للحساب من التراب فستتحول إلى كائن يتحرك: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٢].

فهذه القدرة سكبها الله على التراب لتتحوّل إلى كائن حي، والنطفة التي تقوم عليها التكاليف بعد ذلك. وهناك رأي مفاده أن الجسم يحشر من النطفة الأصليّة ويتم عليها المعاد[٣].

---

(١) مغني اللبيب ١: ١١٧. (٢) يس: ٥٢.

(٣) وهو جواب شبهة قديمة أُثيرت حول هذا الموضوع، وهي شبهة الآكل والمأكول. انظر: شرح الأسماء الحسنىٰ (الملّا هادي السبزواري) ١: ٢٨٢، الميزان في تفسير القرآن ٢: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

المبحث الرابع: فلسفة الزواج في الإسلام

ثم قالت: ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾، والأزواج مأخوذة من المزاوجة، أي أن الزوج يكون إلى جانب زوجه، فالإنسان نصف يحتاج لنصفه الآخر.

وأُحبّ أن أُعرّج هنا على موضوع الزواج، فأول شيء ينبغي على الإنسان أن يهتم به ويقوم عليه عند إقدامه علىٰ الزواج هو اختيار الكفء؛ ولذا فإنّ الإسلام يقول: تزوّج الكفء. ومسألة تحديد الكفء تكفّل ببيانها الحديث الشريف: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه»**[1].

أي أن التكافؤ في الإسلام مبني علىٰ هذين المبدأين: الخلق والدين، أما الثروة فليس لها دخل في تحديد مبدأ التكافؤ، وكذلك الجاه والحسب والنسب أُمور لا دخل لها فيه.

فالآية تقرّر للإنسان أنه مخلوق من التراب، فالمفروض به أن ينزع هذه الأوهام من رأسه.. أوهام التكبّر والغطرسة والخيلاء. فإنّ كان طالب الزواج على دينك فهو كفء لك، والدين هو الإسلام، فالمسلم كفء المسلم بشرط ألّا يرتدّ.

والمسلم عندما يرتد فإن ارتداده يمكن أن يُتصَوّر علىٰ نحوين: ارتداد عن فطرة، وارتداد عن ملة. فالمرتدّ عن فطرة هو المسلم الذي يولد من أب مسلم وأُمّ مسلمة ثم يرتدّ، أمّا المرتدّ عن ملة فهو المرتد الذي لم يكن مسلماً ثم أسلم ثم ارتدّ.

والمرتدّ في كلا الحالتين لا يكون كفئاً للمسلم. وهناك مشكلة تثار حول

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣.

هذا الموضوع، وهي ما اذا كان الزوجان وثنيين ثمّ أسلم أحدهما؛ إمّا الزوج أو الزوجة، فهل يبقيان على زواجهما، أم ينفسخ العقد؟ أغلب الفقهاء يذهبون إلى أنه إذا أسلم أحدهما قبل الدخول فإن العقد ينفسخ من رأس، أمّا إذا كان إسلام أحدهما بعد الدخول فإنهما ينتظران أيام العدة، فإذا أسلم الثاني انحلت المشكلة ولا يُحتاج حينئذٍ إلى عقد جديد، أمّا إذا لم يسلم الثاني فإن العقد ينفسخ، وعلى الزوج أن يعطي الزوجة مهراً.

حول إيمان أبي طالب عليه السلام

ومن خلال هذا الطرح أُريد أن أُلفت نظرك إلى مسألة هامّة جدّاً هي مسألة إيمان أبي طالب عليه السلام، وما يثار حولها من زوبعة ونقاش لا تخفى دوافعه، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما بُعث كان أبو طالب عليه السلام متزوّجاً من فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها)، فبقيا على عقد زواجهما إلى أن مات أبو طالب عليه السلام، فلو كان أبو طالب كافراً فكيف يجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تحته امرأة مسلمة وهي من أوائل المسلمات، وإذا كانت المرأة المسلمة تستبين من زوجها المشرك، فلماذا ترك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبا طالب عليه السلام مع فاطمة بنت أسد، واعتبرهما زوجين شرعيين، ولم يفرق بينهما؟ فهل يعقل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهمل حكماً من أحكام الله؟ معاذ الله؛ فهو صلى الله عليه وآله وسلم على ثقة من أن أبا طالب عليه السلام كان مسلماً، ولكنه كان يكتم إسلامه.

وقد يقول البعض: إنكم تصرّون على هذا؛ لأنه أبو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ونقول له: إن الإمام علياً عليه السلام كلّه ألق مهما كان أبوه، فلا يحتاج لأن نجلب له فضيلة من الخارج، بل إنه عليه السلام يكفيه ماعنده، فكلّ ذرّة من كيانه مفخرة من

مفاخر الإسلام، ولكلّ ذرّة من كيانه مفخرة كذلك. فالمسلمون مثلاً ما عدا الإمامية يقولون: إن أُمّ النبي ﷺ وأباه ماتا كافرين، ومع ذلك فإن هذه المحاولة لم تضرّ بالنبي ﷺ في شيء، وإن كان هذا قولاً فظيعاً ومردوداً، وقد ردَّ عليه حتىٰ من أبناء بعض المذاهب الإسلاميّة الأُخرى. فلا يجوز أن يخلق نبي من صلب نجس.

فهذا الحكم إذن يدلّ على أن أبا طالب﵇ كان مسلماً مؤمناً. وكان يخفي إسلامه.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإننا نريد بعد ذكر هذا المعنى أن نرجع ونتساءل: هل هذا الحكم يستند إلىٰ دليل معتبر؟ فعندما أصف شيئاً بحكم من الأحكام فلابد من الاستناد إلى دليل، وإلّا فإن الحكم بدون دليل لا يعتبر حكماً شرعياً وإنما هو تحكّم باطل. مع أن فقهاءَنا يجوّزون أن يتزوج أي مسلم امرأة من الشيعة؛ سواء كان هذا المسلم حنبلياً أو شافعيّاً أو مالكيّاً؛ لأنه يقول: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**». في حين أن بعض الفقهاء من المذاهب الأُخرىٰ يستفتىٰ حول جواز التزوّج من الشيعة فيقول: لا يجوز. ونحن نقول: لماذا؟ وما هو الدليل على ذلك؟

فمن كتبهم (الفقه على المذاهب الأربعة) و(الأنكحة الفاسدة) حيث إنهم قد ذكروا فيها أنهم لا يسوّغون الزواج من الشيعة؛ بدعوىٰ أنهم مرتدّون، ويزعمون أن جبرئيل﵇ خان الأمانة ومال بالوحي من علي بن أبي طالب﵇ وأعطاه إلى النبي محمد ﷺ.

ونحن نقول: إذا ثبت هذا عنهم وعندهم فإنهم كفرة. لكن أين يوجد هذا؟ إنّ كل مآذننا تشهد وتقول: «**أشهد أن محمداً رسول الله**»، ونقول: إن علياً﵇

يتشرّف بخدمة رسول الله ﷺ(١)، فكيف ينسب هذا المعنى لهم؟ وكيف يُكفّر كمّ هائل قوامه الملايين من المسلمين؟ وعلى أي دليل اعتُمد؟

نحن نقول: إنّ الذي يعتقد بأن النبي غير رسول الله محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ﷺ فهو كافر؛ لأنه أنكر ضرورة من ضرورات الإسلام. أليس عيباً أن تقولوا ذلك بحقنا؟ وهذه مصيبة يجب أن يُلتفت إليها؛ حرصاً على وحدة المسلمين، وإماطةً للأذى عنهم.

وعليه فالكفاءة تتحدّد بالإسلام والخلق فقط.

المبحث الخامس: عقد النكاح وأحكامه

ثم ينبغي ألّا تكون في العقد أشياء تخلق مشكلة فيما بعد، أو أن يكون فيه شرط يفسد العقد، كأن يعقد على امرأة بشرط أن يكون له حقّ فسخه بعد ثلاثة أشهر. أي أنه يجري العقد بصيغة الدوام غير أنه يشترط حقّ الفسخ بعد ذلك، فهذا الشرط باطل، والعقد باطل أيضاً.

الشرط الباطل

وهناك حالات يكون العقد فيها صحيحاً لكن الشرط فقط هو الذي يبطل، وذلك مثل ما لو اشترطت المرأة شرطاً منافياً للعقد، كأن تشترط في عقد الزواج بألّا يمسّها الزوج. فهذا الشرط يلغو ويبقى العقد صحيحاً.

ومن تلك الحالات أيضاً مالو كان الشرط مخالفاً للشرع، مثل أن تقول

---

(١) مرّ بنا عن قريب قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سأله أحد اليهود فقال له: أفنبي أنت؟ فقال له: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ». الكافي ١: ٨٦ / ٥، ٩٠ / ٨، التوحيد: ١٧٤ / ٣.

الزوجة له: تتزوّجني بشرط ألّا تتزوّج عليَّ. فهذا الشرط باطل؛ لأنه خلاف الحقوق التي أعطاها الله تعالىٰ للزوج، فمن حقّه أن يتزوّج عليها، لكن عليه أن يفكر قبل القدوم على الزواج الثاني في قدرته علىٰ أن يجمع بينهما بالعدل، وأن يفكر في أنه هل يستطيع تربية الأطفال بالشكل الصحيح أم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يقدر عليه؛ فيعرّض إحدى زوجاته للذلّ، ويترك أطفالها يعيشون الحرمان؟

روي عن النعمان بن بشير أنه قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت له إمي: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي ﷺ، فقال: إن أُمّه سألتني بعض الموهبة لهذا. فقال ﷺ: **«ألك ولد سواه؟»**. قال: نعم. قال: **«لا تشهدني على جور»**. وفي رواية غيرها: **«ألك بنون سواه؟»**. قال: نعم. قال ﷺ: **«فكلّهم أعطيت مثل هذا؟»**. قال: لا. قال: **«فلا أشهد على جور»**[1]. ذلك أنه خلاف العدل.

فالإنسان بمثل هذا التصرّف يخلق مشكلة بينه وبين أزواجه وأبنائه، ويخلق العداء والبغضاء بين الإخوة. فالمسألة ليست في القدرة على التعدّد فقط، بل في وجود قدرة نفسية وأخلاقيّة علىٰ العدل والمساواة داخل الأُسرة. فعندما أعطانا اللّه تعالىٰ الحقّ في ذلك فإنه أوجب علينا في المقابل أن نقدّر استعمال ذلك الحقّ. وهذا مثل موضوع الحرّيّة الفرديّة، فإنها وإن كانت قد منحت للإنسان لكن على ألّا تخرج عن حدّها؛ فإن ذلك إساءة للحقّ الذي أعطاه الله تعالى إيّاه.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

ومن تلك الحالات أيضاً أن تشترط عليه عند الزواج ألّا تلاقي ضرّتها، فهذا ممّا لا تملكه، أو أن تشترط ألّا يصل رحمه وأقاربه، فهذا الشرط أيضاً باطل؛ لأنه خلاف الحقّ والشرع، لكن العقد صحيح، فهي هنا تأمره بما حرّم الله عليه، وتنهاه عمّا أمره به؛ حيث إن الله أمره أن يصل رحمه.

فمثل هذه الشروط يفترض بنا مراعاة ضوابطها الشرعية، لكننا نجهل الأحكام الشرعية المتعلّقة بهذا الجانب أو بغيره، والمفروض بنا أن نراجع رسالة أحد العلماء العدول، ونوسّع معلوماتنا حول هذا الأمر، وإذا لم نعرف مسألة فالواجب يحتّم علينا حينئذٍ أن نسأل عنها لا أن نبقىٰ علىٰ ما نحن عليه من جهل فظيع بأحكام الله تعالى.

المحرّمات من الأزواج سببيات ونسبيات

وإذا أراد أحد الإقدام على الزواج فعليه أن يخطب من تصلح شرعاً لأن يعقد عليها، أي ألّا يكون هناك مانع شرعي كالحرمة النسبية أو الحرمة السببية. والمحرمات النسبية مثل البنت وابنة الأُخت، وحتى البنت من الزنا[١]، والحرمة السببية مثل الجمع بين الأُختين، أو بين بنت الأُخت والخالة، وبنت الأخ والعمة. وإن كان هناك رأي ينسب لبعض الصحابة من أنه يجوز الجمع في الجواري بين الجارية وأُختها في الزواج. وهذه الرواية لا نستطيع القول: إنها صحيحة، ما لم يُتأكد منها سنداً.

العقبات التي يخلقها الفرد والمجتمع في طريق الزواج

وهذا يضاف إلىٰ كمٍّ آخر من العقبات بعضها من صنع المجتمع والبعض

---

(١) مع أن الشافعيّة والمالكيّة يذهبون إلى جواز نكاح المتولّد من الزنا. انظر المغني ٦: ٥٧٨.

الآخر من صنع الفرد. أمّا التي يصنعها المجتمع فمثل بعض عقد النقص التي يشعر بها من لا ينظر إلىٰ الأُمور بعين الواقع بل بمنظار تأثير المجتمع عليه. وذلك كأن يفكّر ـ عندما يريد أن يقيم حفلة زفاف ـ في أنه لا بدّ أن يكون كأصدقائه الأثرياء فيفعل فعلهم، ممّا يضطرّه إلى إنفاق عشرات الآلاف في حفلات كبيرة، في حين أن الحق أن تصرف هذه المبالغ على المسلمين الذين يعيشون المآسي والفقر المدقع والجوع؛ فهم الأحقّ بها.

فالله قد وهبنا العقل ويسَّر لنا الطريق وأمرنا أن نتبع شرعه، فإذا بعدنا عن رحمة الله بعدت هي عنّا؛ لأنه تعالىٰ يقول: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[(١)]. فهذه عقبات جماعية.

وأما العقبات الفردية فمنها الإصرار على غلاء المهر. وهو لا يقدّم ولا يؤخّر، فصحيح أن المرأة تحتاج لأشياء ضرورية، لكن المفروض أن يكون المهر معقولاً وبمقدار ما يسد حاجاتها. والنص التشريعي لا يكلّف الإنسان مهراً ضخماً، يقول النبي: «**التمس ولو خاتماً من حديد**»[(٢)]، فتجد بيوتاً سكب الله فيها السعادة؛ لأن المهور كانت بحدود العقل والاستطاعة والتمكن، في حين أنك تجد بيوتاً صُبّ فيها الذهب ولا تجد فيها طعماً للسعادة والإلفة، وقد كان ﷺ يقول: «**أفضل نساء أُمّتي أقلّهن مهراً**»[(٣)].

وكانت مهور ربائب الرسول ﷺ وبناته مهوراً بسيطة جداً؛ لأن السعادة لا تتوقّف على المهر الغالي أو البسيط.

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) الخلاف ٤: ٣٦٧ / المسألة: ٣، مسند أحمد ٥: ٣٣٦.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة ١٤: ١٦٠ / ١٦٣٧٦، ٢١٦ / ١٦٥٣٣.

حقوق الزوجة وواجباتها في المنظور الإسلامي

وبعد تخطي العقبات والولوج إلى الحياة الزوجية، يسارع الشارع المقدس إلىٰ التأكيد علينا حول ضرورة صيانة حقوق الزوجة ووجوب مراعاتها والإشفاق عليها، يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ»**[(١)]. وفي رواية: **«إنهن عوارٍ عندكم»**[(٢)]. أي أنكم استحللتم هذه المرأة بكلمة الله، فاستوصوا بها. فالقرآن والسنّة يأمران الزوج بأن يعامل زوجته بالحسنى، ويقرّران أنه هو المسؤول عن نفقتها من كساء وسكن وطعام، أمّا هي فمسؤولة عن ألّا توطئ فراشه من لا يحب، فلا تدخل أحداً لا يريده أن يدخل؛ لأن البيت بيت الرجل، ومن دواعي الانسجام أن تتقيد الزوجة بما يريده. ومن واجباتها ألّا تخرج من بيتها بدون إذنه؛ فهي محسوبة عليه، فإذا خرجت بدون إذنه لعنتها ملائكة السماوات والأرض[(٣)].

وفي المقابل فإن علىٰ الزوج ألّا يتعسف في استخدام الحقّ، بل إن عليه المعاملة بالحسنىٰ، كما عليها أن تعامله بالحسنىٰ وأن تحفظه في ماله وفي نفسها، وأن تخلق له الجوّ الذي يريده المشرّع في البيت.

فالرجل يكافح الحياة ويصارعها ويواجه مواقف صعبة أثناء عمله، ولذا فهو بحاجة إلى أن يجد من يمسح عنه الألم عندما يرجع إلىٰ بيته، وليس غير بسمة الزوجة؛ لأن المرأة تحمل السعادة له بذلك، ولذلك نرىٰ الرجل يعتزّ بزوجته هذه.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٥٥ / ١٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ / ١٨٥١.

(٢) إيضاح الفوائد ٣: ٢٦٧، فتح القدير ١: ٤٦٢.

(٣) الكافي ٥: ٥٠٦ ـ ٥٠٧ / ١، مسند أحمد ٣: ٣٤٨.

وهنا أُحب أن أروي لك قصة أبي الدحداح الأنصاري، فحينما نزل قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[1] دخل أبو الدحداح علىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الله يطلب منا القرض؟ قال: «**نعم، يطلبه منكم ليدخلكم به الجنة**». فقال أبو الدحداح: يا رسول الله، إذا أقرضت الله، أتضمن لي ولأولادي ولابنتي الدحداحة من الله العطاء؟ قال النبي ﷺ: «**نعم**». قال: يا رسول الله، فاشهد عليَّ وأعطني يدك.

فوضع يده بيد النبي ﷺ وقال: اشهد عليَّ يا رسول الله أن عندي حديقتين لا أملك غيرهما وقد وضعتهما في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «**أمسك عليك واحدة لك ولأطفالك، وضع الثانية في سبيل الله**». فقال: أُشهدك يا رسول الله، أني أُعطي أفضلهما وهي حديقة بها ستّمئة نخلة. فقال له النبي ﷺ: «**جزاك الله خيراً**».

فرجع أبو الدحداح إلىٰ الحديقة، فوجد فيها امرأته أُمّ الدحداح وأولادها وقد وضعوا في جيوبهم تمراً جمعوه ليأخذوه معهم، فقال لها: يا أُمّ الدحداح، أنا وهبت هذه الحديقة لله. فقالت: شكر الله سعيك، ونعم البيع بيعك، وانتظرْ عطاء الله. ثم أخذت تستخرج التمر من جيوب الأطفال وتضعه في الحديقة إلىٰ جانب التمر الذي كانوا قد جمعوه، ثم أخذت أولادها وذهبت إلىٰ الحديقة الثانية[2].

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٧، ٢٣٨، وفي هذه الواقعة قال النبي ﷺ: «كم من عذق رداح ـ أي ثقيل ـ ودار فياح ـ أي واسعة ـ لأبي الدحداح».

فالمرء إذا انسجم في أُسرته تحقّقت له السعادة. ومن نعم الله على المرء الزوجةُ الصالحة. ونحن لا نستطيع أن نصل إلى الأُسرة الإسلاميّة المثالية مالم نعرف المعادلة التي يجب أن تتوفّر بين الزوجين من وجهة نظر إسلاميّة، فالرجل والمرأة عليهما أن يقرأا ما يتعلّق بالأُسرة وتنشئتها.

المبحث السادس: قضيّة زواج القاسم بن الحسن

ثم نتساءل حول ما يرويه بعض المؤرّخين من أن الإمام الحسينعليه السلام زوّج القاسم ابن الإمام الحسنعليه السلام من سكينة. فالمعروف أن هذه الرواية لا يعتدّ بها؛ فهي مرسلة، هذا فضلاً عن أن سكينة كانت متزوّجة يوم الطف وعندها طفل. ووجدت مؤرخاً آخر يثبت أنها كانت متزوّجة فقط.

وزوجها معروف، وهو عبد الله بن مسلم. فالرواية غير صحيحة، سيما إذا عرفنا أن القاسم كان عمره آنذاك إحدىٰ عشرة سنة، بل إن هناك رواية تقول: أنه كان بعمر أقل من هذا.

لكن من أين جاءت هذه المسألة (بناء على صحة الرواية المرسلة)؟ المسألة جاءت تلبية لرغبة في نفس أُمّه، أو في نفس الإمام الحسينعليه السلام بأن يعقد له على إحدى بناته؛ حيث إنهعليه السلام أراد أن يرضي الإمام الحسنعليه السلام وهو في قبره؛ لأنهعليه السلام دفع القاسم قبل وفاته إلى الإمام الحسينعليه السلام وقال له: **«إن ابني هذا وديعة عندك»**.

فهذا الزواج يسرّ الحسن؛ لذلك يقول بعض الرواة: إنه عقد له علىٰ أعزّ بناته. وكذلك فإن من أحبّ الأشياء إلى نفس المرأة أن ترى ولدها قد تزوّج وتأهّل؛ لأنها ترى امتدادها الطبيعي في الحياة يتحقّق عندما يرزق بطفل.

من هنا جاءت هذه الرواية، فهي تؤكّد على هذا المعنى، وهي لا تخرج

عن كونها مرسلة لا يعتدّ بها كما قلنا.

ولنرجع إلى واقعة الطفّ؛ كي نرى مدى صحّة هذه الرواية، فهي تقول: إن الحسين‏ عليه السلام استدعىٰ القاسم وعقد له على إحدى بناته، ثم بعد ذلك أرجعه للخيمة. وكان القاسم آخر نبلة في كنانة الحسين‏ عليه السلام، فهو آخر من نزل إلىٰ المعركة، وقد نزل بعد أن سمع عمّه ينادي: **«ألا من ناصر ينصرنا؟ ألا من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»**.

فخرج وقال لعمّه عليه السلام: والله ياعم لا أقدر أن أبقى في قعر الخبا، وأنت تنادي: **«ألا من ناصر»**؟ فوضع الحسين‏ عليه السلام يده على صدره وقال: **«بني، أنت الوديعة عندي من أخي الحسن، وإخوانك قد قتلوا فابقَ لترعى العيال والنساء»**[1].

فهو عليه السلام يخبره أن إخوانه وأبناء عمومته قد استشهدوا، وأن ابن عمه السجّاد عليه السلام مريض، فرجع، ولما سمع صوت الحسين‏ عليه السلام ثانية خرج وقال: والله يا عم، لا أقدر أن أبقى وأنا أسمعك تنادي: **«ألا من ناصر؟»**. فقال: **«بني أوَ عزمت؟»**. قال: بلىٰ. قال: **«بني ادنُ مني حتى أُودّعك»**. فلمّا دنا منه قبله ثمّ دخل للخيمة وأخرج له رداء كان لأخيه الإمام الحسن‏ عليه السلام وألبسه إيّاه، وأخرج له سيفاً من الخيمة وأعطاه إيّاه، فنزل القاسم‏ عليه السلام إلى الساحة وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن ... سبط النبيّ المصطفىٰ والمؤتمنْ

هذا حسين كالأسير المرتهن ... بين أناسٍ لا سقوا صوب المزنْ[2]

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٢١٥، ٣٣٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين‏ عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

وأخذ يقاتل قتال الأبطال إلىٰ أن توسّط ساحة الحرب، فانقطع شراك نعله فانحنىٰ ليشدّه، وإذا بالسيف يهوي علىٰ رأسه؛ فسقط علىٰ الأرض منادياً: أدركني يا عماه. فأقبل إليه الإمام الحسينعليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه ووضعه في حجره، ثم راح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

ثمّ قالعليه السلام: «قتل الله قوماً قتلوك»[2]. ثمّ أخذ رأسه وأقبل به إلىٰ المخيم ووضعه بين القتلى، ثم خرج من الخيمة ليفسح المجال لأُمّه وعمّاته وباقي النساء، فدخلت أُمّه رملة ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر يا وليدي   وخيب ضنوة سنيني

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) لم نعثر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦.

﴿ ١٠٩ ﴾

الهجرة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الهجرة الحركيّة والهجرة النفسيّة

لقد سبقت عمليّة الهجرة التاريخيّة الحركيّة هجرة نفسيّة أعدّ لها الرسول الأكرمﷺ كامل عدّتها، ففي الوقت الذي هاجر فيه رسول اللهﷺ من مكّة إلى المدينة كان قد قام بعمليّة الهجرة النفسيّة هذه. وهي عمليّة تقوم على أساس إعداد الشرائح المسلمة لتقبّل المضمون الإسلامي حيث وجد، فهي حركة انتقال داخل النفس من دنيا الشرك إلى دنيا الإسلام؛ فسلّحت النفس بالعقيدة. ولذلك تعتبر السنوات الثلاث عشرة التي قضاها الرسولﷺ في مكّة عمليةَ إعداد نفسي، حيث بدأﷺ بتنظيف النفوس من الشرك ومن

(١) النحل: ٤١.

عادات الجاهليّة، ومن ثم أهّلها لتلقّي الأدوار المقبلة، ثم انتقل ﷺ من مكانه الذي نزل فيه الوحي عليه في مكّة إلى المدينة المنوّرة.

والهجرة النفسية أهمّ من الهجرة الحركية؛ لأن الانتقال من مكّة إلى المدينة عمل بسيط، لكن الهجرة النفسية خلاف ذلك. وعلماء الاجتماع يبحثون عنها في مسألة التخلّف الحضاري، أي أن الإنسان من السهل أن تكون له حضارة ماديّة ينتقل خلالها من طور إلى آخر، أمّا الحضارة الفكريّة فليس من السهل عليه أن يتقبّلها؛ فتحوّل الوقود إلى الغاز بدلاً من الحطب، أو تحوّل وسائل النقل إلى السيارة بدلاً من الحيوان أمر سهل؛ إذ أنه على وفق هوى الإنسان، أمّا تغيير العادة في البيت أو النفس فليس سهلاً.

وعليه فالجانب الفكري ليس من السهل بمكان تغييره، سيّما إذا كان متأصّلاً في النفس، وخصوصاً إذا أخذ جانباً عقيدياً؛ فإنه يصبح من الصعب معه تغيير الإنسان وتحويله عن عقيدته التي كان عليها إلى عقيدة أُخرىٰ.

فالنبي ﷺ عندما نظر إلى الأمر بفكره الثاقب رأى أن من الصعوبة أن يطوّع أهل مكّة للاستعداد لملء النفس بعقيدة تحلّ محلّ العقيدة الأُولىٰ التي هم عليها، فهؤلاء كانوا يعبدون (٣٦٤) صنماً على ظهر الكعبة، فمن الصعوبة بمكان أن تنتزع منهم الإيمان بهذه الآلهة المجسّدة في صورة أصنام وتقول لهم: آمنوا بربّ واحد آخر لا يمكنكم أن تروه: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1].

وعليه ففترة من الزمن قوامها (١٣) سنة كانت انتقالاً من عالم إلى عالم آخر، حيث إنها هيّأت الأوّليّات والقواعد، ثم أعدّت النفوس، ثم بعد ذلك

---

(١) ص: ٥.

بُدئ بالهجرة الحركيّة من مكّة إلى المدينة. وكان أن هبط جبرئيلعليه السلام على الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره بأن قريشاً قد أعدّت العدّة للقضاء عليه، وأنهم قد اجتمعوا في دار الندوة وقرّروا أن يشركوا القبائل في قتلهصلى الله عليه وآله وسلم وذلك بأن يضعوا أسيافهم عليه مرّة واحدة ويقتلوه، فيضيع دمه بين القبائل، ولايستطيع الهاشميّون أن يقابلوا القبائل بصورة عامّة.

نعم هبط عليه جبرئيلعليه السلام يحمل الآية الكريمة: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**[1]، وأمره أن يهاجر ويخرج من مكّة.

وبالفعل هيّأصلى الله عليه وآله وسلم نفسه للخروج، وخرج معه أبو بكر ودخلا معاً إلى الغار، وكانصلى الله عليه وآله وسلم قد استدعى أمير المؤمنينعليه السلام قبل ذلك وأمره بالمبيت على فراشه، وقالصلى الله عليه وآله وسلم له: **«إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة، وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني»**. فالتفت إليه الإمامعليه السلام قائلاً بإذعان كامل: **«يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟»**. قال: **«بلىٰ»**. قال: **«روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا»**.

فباتعليه السلام على فراش النبيصلى الله عليه وآله وسلم، وقريش مجتمعة خارج الدار، وأخذ الرسول كفّاً من التراب فقذفهم به، وقرأ قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾**[2] وجاوزهم، فمرَّ بهم رجل وقال: ماذا تنتظرون؟ قالوا: ننتظر خروج محمد. قال: تبّاً لكم؛ لقد مرَّ عليكم وقذفكم بالتراب. فهجموا على أمير المؤمنينعليه السلام، فانبرىٰعليه السلام لهم بسيفه قائلاً: **«ما وراءكم؟»**. قالوا: أين محمد؟ قال: **«أوتركتموني عليه**

---

(١) الأنفال: ٣٠. (٢) يس: ٩.

حارساً؟»[١]. وشهر السيف في وجوههم، فكرّوا عنه راجعين.

وقد خلّدت السماء هذه اللحظة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[٢]. وهبط جبرئيل وميكائيل ﷺ وكلّ منهما يقول: «بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهىٰ الله بك ملائكة السماوات؟»[٣]:

ومناقبٌ لك دون أحمدَ جاوزت ... بمقامك التوصيفَ والتحديدا
فعلىٰ الفراش مبيتٌ ليلك والعدا ... تهدي إليك بوارِقاً ورُعودا
فرقدتَ مثلوجَ الفؤادِ كأنَّما ... يُهدي القراعُ لسمعكَ التغريدا
ووقيتَ ليلتهُ وبتَّ مُواسياً ... بالنفسِ لا فشلاً ولا رِعدِيدَا
رصدوا الصباحَ لينفقوا كنزَ الهدىٰ ... أوَما دروا كنزَ الهدىٰ مرصودا
يا مُنشئَ الأفلاكِ والأملاكِ بل ... لولاكَ ما عَرفَ الوجودُ وجودا[٤]

فخرج ومعه أبو بكر حتى دخلا الغار، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى حمامتين وحشيّتين، فبنتا عشّاً لهما على بابه وباضتا فيه، وأوحى إلى العنكبوت فنسجت على بابه أيضاً. ولذلك عندما جاءت قريش مع القائف[٥] الذي انتهى

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤.
(٢) البقرة: ٢٠٧.
(٣) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ١٧٤.
(٤) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٤١.
(٥) القائف: الذي يتبع الآثار. الصحاح ٤: ١٤١٩ ـ قوف. والقيافة ضربان: قيافة البشر، وقيافة الأثر فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان لمعرفة نسبه وأصله. وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأبيه منهم. وحكي عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعير يقوده غلام أسود، فمرّ بهذه القبيلة، فلمّا نظر إليه أحدهم قال: ما أشبه الراكب بالقائد. فلما رجع إلى أمّه ذكر لها القصّة فقالت له: إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد، فخشيت

بها عند الغار، ووجدت خيوط العنكبوت قالت: إذا كان محمد قد دخل الغار فإنه سيخرق هذه الخيوط. يقول أحد الشعراء:

ألقِني في لظى فإن أحرقتني   فتيقّن أن لستُ بالياقوتِ
صنع النسج كلّ من حاك لكن   ليس داود فيه كالعنكبوتِ

وأكّد هذا المعنى أحد الأُدباء فقال:

نسج داود ما حمى صاحب الغا   ر وكان الفخار للعنكبوتِ[1]

وبالفعل كانت من مفاخر العنكبوت؛ حيث أمره الله تعالى أن ينسج على باب الغار، وكان أن رجعت قريش.

المبحث الثاني: الدروس المتوخّاة من الهجرة

والآن لنتساءل: ما هي العبر والمواعظ المستودعة في هذه الحادثة؟ هناك عدّة دروس يمكن رصدها أمام هذا الحدث التاريخي العظيم، ومنها:

الدرس الأول: أن الهجرة الحركيّة سبقتها هجرة نفسية

وقد أشرت إلى هذا فيما سبق من البحث، لكن قد يقول قائل: إن الهجرة الحركيّة قد تشكّل عبئاً على النفس، حيث إن الإنسان مشدود بطبعه إلى تربة وطنه شدّاً عنيفاً، فليس من السهل أن يفارق بلده ومسقط رأسه. يقول أحد

☚ أن يفوتنا ماله، فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك. ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.
وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختصّ به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبّعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب من المستوطن. انظر المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٨٣.

(١) البداية والنهاية ٣: ٢٢٢، ٦: ٣٠٣، ٣١٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ٢٤٠.

الشعراء في بلدته:

وكـنّا ألفـناها عـلى كـلّ حـالةٍ وقد يؤلفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنْ
كما تـؤلفُ الأرضُ التـي لم يـطِب بـها هـواءٌ ولا مـاءٌ ولكـنها وطـنْ[١]

ولذلك فإنه ليس من السهل مفارقة مسقط الرأس؛ ولهـذا تـقول الآيـة الكريمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾[٢]، فهي تعطف الخروج من الوطن على قتل النفس؛ لشدّة وقعه عليها. فالإنسان إذا خرج من وطنه فكأنما خرجت روحه من جسده.

وفي الفقه الجنائي عند المسلمين أن من العقوبات المشدّدة هي التغريب عند ممارسة بعض الجرائم، حيث يهجَّر مرتكب الجريمة تلك إلى بلد آخر. وهي عقوبة متأصّلة في الحضارة العربيّة قبل الإسلام. فإذا قتل أحد شخصاً فإنه يُجلىٰ عن بلده. فالإنسان تشدّه للدار أواصر من الصعب انتزاعها، حتى إنها تتحوّل إلى جزء من كيانه، يقول أبو تمام:

وحـبّب أوطـانُ الرجـالِ إليـهمُ مآرب قـضّاها الشـباب هـنالكا
إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرتهُمُ عـهودَ الصـبا فـيها فحنّوا لذلكا[٣]

فهذه التربة قد نشأت مع عواطفه ومشاعره. فمسألة الهجرّة ليست سهلة، ولذلك فإنّ رسول الله عندما خرج من مكة أدار وجهه إليها وقال: «**الله يعلم أنني أُحبّك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً**»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٩١، البداية والنهاية ٣: ٢٢٢، ٦: ٣٠٣، ٣١٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ٢٤٠.
(٢) النساء: ٦٦.
(٣) أمالي المرتضي ٤: ٦١، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٩٢، المستصفىٰ (الغزالي): ٤٩.
(٤) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ٣٣؛ ١١٠٣٠، ٣٤٦ـ٣٤٧؛ ١١٠٤٦، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.

وهنا نقطة أحبّ أن أشير إليها، وهي أنه قد يقول قائل: أوليس يعدّ خروج رسول الله ﷺ نوعاً من الهرب من المشركين؟

ونقول: كلا؛ لأن النبي ﷺ كان أشدّ الناس صلابة، وأكثرهم استهانة بالنفس في سبيل الله، وكان الإمام علي عليه السلام في شدّة شجاعته يقول: **«وكنا إذا اشتدّ البأس نلوذ برسول الله ﷺ»**[1]. فليست المسألة مسألة هروب، وإنما مسألة موقف ومبدأ؛ كان الرسول ﷺ يعرف أنه يحمل رسالة ضخمة، وإذا بقي هنالك فسوف تموت هذه الرسالة.

فالتراب أحياناً يرفض بعض النباتات في حين أنها تنبتها تربة أُخرى، فتترعرع فيهاوتنمو. فالنبي ﷺ لاحظ أن رسالة الإسلام لن تنمو في مكّة؛ لأن فيها صلابة شديدة ولوناً من التعصّب لميراثهم الديني والاجتماعي. فهو ﷺ بقي في مكّة (١٣) سنة ولم يتّبعه فيها إلّا أفراد قلائل. فهذه التربة كانت غير مؤهّلة لحمل الرسالة، أي أنها لا تمتلك خلفيّة حضارية، أمّا المدينة فهي ذات تاريخ حضاري معروف.

العمق الحضاري للمدينة وخصائص مجتمعها

إن بعض علماء الاجتماع يردّون الفكر إلى التراب، ويقرّرون أنه ينبع منه. فالتربة ذات تأثير في تكوين مزاج الفرد. والمزاج عند أهل المدينة غيره عند أهل مكّة؛ ذلك أن المدينة لها خواصّ معيّنة؛ ولذا ارتأى النبيّ ﷺ أنها أنسب المدن لزرع الحضارة الدينية التي يدعو (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) إليها.

---

(١) الرسالة السعدية: ٧٩، وبمعناه أحاديث كثيرة. انظر: مسند أحمد ١: ٨٦، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥٧٨، وغيره.

ولذلك فإن الفترة التي قضاها في مكّة كان لها صلة بالعقائد، أمّا في المدينة فقد أسّس دولة المسلمين، وبدأت التشريعات الإسلاميّة تأخذ عمقها في التطبيق، ونزلت الآيات ذات العلاقة بالتنظيم الاجتماعي، فلم يخف النبي ﷺ ولا أصحابه؛ حيث إنهم كانوا يعرفون أن حمل الرسالة الإسلاميّة سيكلّفهم ثمناً غالياً، وقد ينتهي الأمر إلى إزهاق أرواحهم.

فالذي دفع الرسول ليهاجر من مكّة إلى المدينة هو الحرص على أن تلعب الرسالة دورها، وأن تتجذّر فيها وتنمو.

وقد تغيرت الأحوال في المدينة، حيث إن النبي ﷺ وضع فيها التشريعات، وكان ﷺ قد أمر الإمام علياً عليه السلام أن يؤدّي الودائع إلى أهلها في مكّة ثم يلتحق به بعد ذلك.

قضيّة التأريخ الهجري

وهنا نقطة أُحبّ أن أتوقّف عندها؛ لأهمّيتها، وهي أن المسلمين يؤرّخون بالتاريخ الهجري، فمتىٰ حصل هذا التأريخ؟ إن هجرة الرسول ﷺ لم تكن في المحرّم وإنما كانت في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فلماذا إذن نجعل بداية التاريخ الهجري في شهر المحرم؟

إن توضيح هذا يستلزم بيان مقدّمة، فنقول: كان العرب يؤرّخون بالأحداث العظيمة كموت الحارث بن هشام، وبواقعة الفيل، وفي زمن عمر احتاج المسلمون إلى أن يؤرّخوا كتبهم فأشار عليهم أمير المؤمنين عليه السلام أن يؤرّخوا بالهجرة، فاستحسن عمر بن الخطاب الفكرة وأمر بتنفيذها[1].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، البداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.

الإسلام أذاب كلّ الحواجز الطبقيّة

لقد عمد الإسلام الحنيف إلى خلق مجتمع واحد يحكمه الدين والأخلاق، وتربطه علاقات قائمة على أساس الإيمان والإخاء؛ ولذا فإن الرسول الأكرمﷺ شرع في إذابة الحواجز التي خلفتها الجاهليّة عند العرب والمسلمين. وبمجرّد أن وصل النبيﷺ إلى المدينة وضع القاعدة الأساسيّة لبناء المجتمع فيها، وهي تذويب كل تلك الحواجز التي تشكّل فاصلاً بين وحدة المسلمين وتلاحمهم وتآخيهم.

الحواجز العنصريّة

إن الكثير من الناس آنذاك كان يعيش تحت تأثير الحاجز العنصري الذي كان متأصّلاً عند العرب، ومتغلغلاً في نفوسهم. وكمثال على هذا ما يروى من أنه قيل لرجل من العرب: لماذا لاتتّخذ ندُماء وأصدقاء؟ قال: ومن يصلح لمنادمتي؟ إنما ينادمني الفرقدان[1]، وهذا قمّة الغطرسة والغلوّ.

☚ ذلك أنّه رفع إلى عمر سنة (١٧) أو (١٨) هجرية صكّ أجله إلىٰ شعبان، فقال: أيَّ شعبان هو؟ أشعبان الآتي أم الماضي، أم شعبان الذي نحن فيه؟ فقام إليه رجل فقال: أرّخوا. قال: عمر: وما أرّخوا؟ فقال الرجل: شيء تفعله الأعاجم، فتقول: في شهر كذا من سنة كذا. قال عمر: حسن.

ثم اختلفوا بأي شيء يؤرّخون؛ فقال بعضهم: أرّخوا بتاريخ الروم. وقال بعضهم: أرّخوا بتاريخ الفرس. فقال لهم أمير المؤمنينؑ: «أرخوا من مهاجرة رسول اللهﷺ».فأرخوا.

ثم اختلفوا في الشهر الذي يبتدئون منه سنة تاريخهم، فقال قوم: من رمضان؛ لأنه أفضل الشهور. وقال آخرون: «من ربيع الأول؛ فإنّه شهر المولد والهجرة».

ثم رأوا أن يكون من المحرّم لأنه شهر رجوع الناس من حجّهم، وهو أيضاً شهر حرام.

(١) هو جذيمة الأبرش، انظر المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٢٨٥. والفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، ولكنهما يطوفان بالجدي. وقيل: هما كوكبان قريبان من القطب. وقيل: هما كوكبان في بنات نعش الصغرى.

وكان الحجاج بن أساة يرفض أن يصلّي جماعة، ولمّا سئل عن السبب، قال: أُصلي معكم حتىٰ يزاحمني البقّالون والحمّالون[١]؟

ومن هذا أيضاً ما يروى من أنه جاء ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا، ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فأُمّه أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: ليس في البين مشكلة؛ فلكل واحد منكم الثلث. قالا: لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء[٢]. أي بتعبير آخر إنك لست ابن البادية.

وهذا يدلّ على أن الإسلام لم يصل إلى أعماق هؤلاء؛ لأن الإسلام يصنع الإنسان، وهذا إنما يتمّ بإذابة الحواجز التي يكون في طليعتها حاجز الشعور العرقي والطبقي.

الحواجز الاجتماعيّة

وهناك حاجز آخر هو الحاجز الاجتماعي الذي هو عبارة عن الثروة والمال، فماركس يعبّر عن المال بأنه «صنمية الذهب»، أمّا نحن فنسميها «الطغيان»؛ حيث نجد في القرآن: **﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾**[٣].

☚ وفي أمثالهم: لأبكينّك الفرقدين، أي طولَ طلوعهما.

فائدة نحويّة: النجوم كلها تنتصب على الظرفيّة، كقولنا: لأبكينّك الشمسَ والقمرَ والنسرَ الواقعَ. وهذا من باب إقامة الأسماء مقام الظروف، قال ابن سيده: وعندي أنهم يريدون: طولَ طلوعهما، فيحذفون اختصاراً واتّساعاً.

انظر: الصحاح ٢: ٥١٩ ـ فرقد، لسان العرب ٣: ٣٣٤ ـ فرقد.

(١) كتاب المجروحين ١: ٢٢٥.

(٢) الكامل في الأدب ٢: ٤٨.

(٣) العلق: ٥ ـ ٦.

فالأموال تحدث عند الإنسان شعوراً بالتعالي على الناس؛ ولذا فإن النبي ﷺ أعطى أولويّة لمعالجة مسألة الأموال والنسب والمسألة الاجتماعية، ووضع نماذج ذوّبت هذه الحواجز، وبيّن أن الإنسان سيتركها إلى التراب ولن يصحبه في رحلته هذه ذهب أو فضة، أو منزلة اجتماعيّة أو عِرق مرتفع أو نسب عالٍ. يروىٰ أن أحد الأعراب أمر أن تكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشعبنا لعرفتُمُ ... أن المفرّطَ في التزوّدِ نادمُ
لا تستعزّوا في الحياة فأنتُمُ ... تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردى مابيننا في حفرةٍ ... حيث المخدّم واحد والخادمُ[(١)]

فالتعاليم الإسلاميّة ذوّبت هذا الشعور، واعتبرت أن الإنسان بمضمونه لا بماله وعِرقه ونسبه. وكذلك النبي محمد ﷺ فإنه ذوّب هذا الحاجز العِرقي عمليّاً بتزويجه زيد بن حارثة من حفيدة عبد المطلب (سيد البطحاء). كما أنه ﷺ تزوّج إماء، وأغلب أُمهات الأيمّة عليهم السلام إماء.

الحواجز النفسيّة

بعد أن ذوّب الرسول الأكرم ﷺ (صلوات الله وسلامه عليه) الحواجز الاجتماعيّة بهذا الفعل عمد إلى تذويب الجانب النفسي الذي هو وليد الجانبين العرفي والاجتماعي، فالإنسان قد يؤمن بأن الإسلام علىٰ حقّ وأنه جاء بتعاليم فيها سعادة الدنيا والآخرة، لكنه هل من الممكن أن تتقبّلها نفسيّته

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩.

بسهولة أم لا؟ إن هناك الكثير من الأحكام التي لا يتقبّلها الإنسان إلّا إذا رُوّض على الإيمان حتىٰ يذوب الحاجز النفسي.

وقد لعب الرسول دوراً كبيراً ومهمّاً في هذا المجال، واستلّ من قلوب المسلمين هذه الحواجز، وقام بعمليّة التآخي بين أصحابه في السنة الأُولى من الهجرة، فآخىٰ بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، وبين أبي ريحة الخزاعي وعبد من العبيد، وبين حمزة بن عبد المطلب ومن هو أدنىٰ منه.. آخىٰ بين المهاجرين والأنصار. وفي هذه المناسبة أودّ أن أذكر أن الإمام علياً بقي وحده دون أن يؤاخي الرسول بينه وبين أحد، وكانت عيناه تفيضان من الدمع، فقال: **«يارسول الله، أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟»**. فقال له الرسول: **«إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»**(١).

وهذا المعنىٰ يشير إليه عبد الباقي العمري في أبياته:

يا أبا الأوصياءِ أنت لطه ... صهرُه وابنُ عمّه وأخوهُ

إن للهِ في معانيك سرّاً ... أكثر العالمين ماعرفوهُ

أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو ... رِ وآباؤه تعدّ بنوهُ

خلق اللهُ آدماً من ترابٍ ... فهُو ابنٌ له وأنت أبوهُ(٢)

فعملية المؤاخاة كانت بعد الهجرة مباشرة.

الدرس الثاني: أنها خلقت بوادر إيجابية في أخلاق الصحابة

فعندما انتقل رسول الله والمسلمون إلى المدينة بدأت بوادر إيجابية

---

(١) انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، أُسد الغابة ٤: ١٦، الإصابة ٤: ٤٦، البداية والنهاية ٧: ٢٥.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٢٢٠، الغدير ٦: ٣٣٨.

عظيمة تظهر في أخلاقيّات أهل المدينة من المسلمين، وأخذت تهتزّ لها الدنيا إعجاباً، فحينما يأتي صحابي لآخر هو عبد الرحمن بن عوف ويقول له: عندي دار كبيرة، وأنت لاتملك داراً فسأُعطيك نصف داري، وأشاطرك أموالي وأثاثي، وعندي زوجتان سأُطلّق واحدة لتتزوّجها، فهذا ممّا لا يمكن المرور به مروراً عابراً أو تجاوزه دون أن نقف ونخشع عند جلالة هذا الموقف. وهو أُنموذج رائع من نماذج عدّة لاتوجد في غير مدرسة الرسول الأكرم ﷺ.

ففي هذه الفترة استطاع النبي محمد ﷺ أن يبلّغ فيها رسالة الإسلام إلىٰ الناس الذين كان من شأنهم في الجاهليّة أنهم إذا حمل أحدهم رمحه فإنه لايقتل عدوّه فقط، وإنما يتناول أخاه وأقرباءه وأصدقاءه وأهله أحياناً، يقول شاعرهم:

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا مالم نجد إلّا أخانا[1]

فرسول الله ﷺ، صنع ـ بعناية الله تعالىٰ وفضله ـ هذا اللون من التعاطف، وشدّ المسلمين إلى بعضهم البعض:

ياعطاءَ القرآنِ يصنعُ دنيا الـ ... ـحبِّ في أُمّةٍ من الجلمودِ

في حين أننا إذا نظرنا الآن إلى وضع المسلمين فسنجده ممّا يؤلم حقّاً، وإلّا فما الذي يمكن أن نرجع إليه غير الشريعة؟ فلماذا هذا الحال؟ إن على المسلمين أن يدركوا أن هذه خلافات مصطنعة وراءها مرتزق أو حاقد أو إنسان يريد أن يدمّر الأُمّة؛ حيث لا يوجد مبرّر واحد لتمزّق المسلمين

---

(١) البيت للقطامي. الصحيح من السيرة ٢: ١٨.

وتشرّدهم وتشرذمهم ؛ فالانفراد بالرأي غير مقبول .

فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضرب لنا مثلاً سامياً حينما هاجر هو والمسلمون إلى المدينة ، حيث ذوّب هناك جميع ما كان بينهم من حواجز ، فأصبحوا يداً واحدة ، ونشروا الهدى ، وحملوا السيف للذود عن حياض الإسلام والمسلمين .

هذه بعض من دروس الهجرة ، فالذي ينبغي ألّا تمرّ علينا ذكرى الهجرة أو ذكرها دون أن نستوحي معانيها . فالواجب أن نتذكّر تاريخنا المشرق ، وأن نقارن بينها وبين الفترة التي نعيشها .

المبحث الثالث: الهدف من الهجرة

تقول الآية الكريمة : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي لم يهاجروا لهدف آخر ، فقد تكون الهجرة لتحصيل الأموال ، أو لغرض السكن في منطقة أجمل ، أمّا الذي يهاجر ليحمل رسالة الإسلام وإعلاء كلمة الله بالفكر أو بالسيف فهذا هو الجهادُ في الله عينُه .

والإنسانيّة ـ على الرغم من وجود العلم ، وعلى الرغم من التقدّم الحاصل عندها ـ لا زالت تتعامل بقانون الغاب ، فأين المثل والقيم المطلقة التي ينادون بها وهم في الوقت نفسه يصبّون حمم حقدهم على المسلمين؟ وأين مثل وقيم الذين يدّعون الاشتراكية ـ وهي وصفة مضادّة للطغيان الرأسمالي ـ حيث يذبّحون الأطفال ، وهذا ما حدث في سراييفو وغيرها؟

فهذا المجتمع إذن يعيش قانون الغابة ، فهو لا يستطيع أن يهذّب غريزة الحيوان ، بل الدين هو الوحيد الذي يستلّ من الإنسان هذه الغرائز ويجعله يسير بوحي العقل والمنطق .

فالهجرة في الله إما أن تكون بالقلم أو بالفكر أو بالسيف.

وليعلم بأن حمل السيف لم يكن غاية في الإسلام، وإنما هو وسيلة، فالإسلام لايستخدم السيف إلّا بعد استنفاد الوسائل السلميّة. والهدف من ذلك بناء الإنسان وليس قتله، فمن جملة أخلاق المسلم ما ورد عن رسول الله ﷺ: **«من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعجّ إلى الله، يقول: أي ربّ إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني فآكل من خشاش الأرض»**[1].

فدين كهذا لا يسمح بارتكاب المجازر، وإنما هو يستخدم السيف للدفاع عن النفس، ورحم الله أحمد شوقي حيث يقول:

الحرب في حقّ لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواءُ[2]

فالحرب ليست للبغي وإنما هي للحقّ وللدفاع عن العقيدة والنفس. فهؤلاء ظُلموا من أجل العقيدة، وهو عينه ما نراه الآن من حال بعض المسلمين الذين يتعرّضون لألوان العذاب لمجرّد أنهم مسلمون. فالإنسان يُضيّق عليه بسبب عقيدته.

وقد يقول قائل: إنك إن تقل: **«لا إله إلّا الله»**، تكن قد كفّرت الطغاة، وكفرت بآلهتهم؟

ونقول: هذا صحيح، إننا نكفّر هؤلاء، لكننا إنما نكفّرهم لأنهم أذاقوا المسلمين الويلات، هؤلاء المسلمون الذين ضرب لنا روّادهم الأوائل أروع الأمثلة في الصبر مثل خبّاب بن الأرتّ الذي أوقد المشركون النار تحته في الصحراء حتى أطفأها ودك ظهره، وهم يقولون له: قل: أشهد أن اللّات

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٨: ٩٥٠٧/٣٠٤.

(٢) ديوان أحمد شوقي: ٣٤.

والعزّى حقّ. فيقول لهم: فرد أحد، لم يلد ولم يولد. فالمسلمون حملوا عقيدتهم وظُلموا بسببها.

المبحث الرابع: الجزاء الذي جعله الله تعالى حيال الهجرة

لقد كتب الله تعالى لهؤلاء المسلمين الذين هاجروا في سبيله من الجزاء والأجر لما قدّموه في سبيله ما لايمكن أن يقع في تصوّر أحد. ويُتصوّر هذا الجزاء على نحوين:

الأوّل: الجزاء الدنيوي

تقول الآية الكريمة: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، فالحسنة هنا هي ما أبدلهم الله تعالى به من الديار التي كانت لهم بديار أجمل مع إخوانهم وجماعتهم الذين عاشوا بعد الهجرة المباركة معهم وبين ظهرانيهم. فقد عوّضهم الله تعالى عمّا تركوه في مكّة من متاع وأهل بجماعة من المسلمين هم من أفضل الناس، وعوّضهم عن أموالهم بأضعافها. فالجانب الدنيوي قد وُفّر لهم بشكل أكثر ممّا كانوا عليه قبل أن يهاجروا.

الثاني: الجزاء الأخروي

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أجر الدنيا ينفد، فكلّ ما في الحياة حطام زائل، ولكن الأجر الأكبر معنويّاً ومادّيّاً هو أجر الآخرة.

خصائص الجزاء الأخروي

فالجزاء الأُخروي أكبر مادّياً لما فيه من ذكر ودويّ خالدين أبد الدهر، وهذا من مظاهر الجزاء في الحياة الدنيا.

أمّا في الآخرة فهو كذلك أكبر، لكن من الجانب المعنوي. وهو أكبر

معنوياً من عدّة جوانب:

١ ـ أنه خالد لا ينقطع إطلاقاً: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[١].

٢ ـ أنه متجدّد.

٣ ـ أنه نعيم يتوالد من نعيم، وأكبر نعيم هو رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

المبحث الخامس: أسباب نقل الحسين عليه السلام نهضته إلى كربلاء؟

وقد أخذ الروّاد الأوائل الأجر المادّي والمعنويّ؛ لأنّ هجرتهم كانت في الله تعالى، بعد أن ضاقت بلدانهم عليهم وبعقيدتهم، فلجؤوا إلى غرس عقيدتهم في مكان آخر حيث أثمرت وأعطت عطاءً غير محدود.

وهذا هو الذي دفع بالإمام الحسين عليه السلام إلى أن ينقل نهضته المباركة من المدينة المنوّرة إلى كربلاء؛ فهو عليه السلام لم يخرج خائفاً من المدينة؛ لأن الخوف لم يخطر في باله، وذلك بشهادة عدوّه ابن سعد حينما رآه في اليوم العاشر، حيث قال لجنده: كلّموه فإنه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم يوماً كاملاً هكذا لما تتعتع ولما حُصر[٣]، إن بين جنبيه نفس أبيه[٤].

فالإمام الحسين عليه السلام لم يخرج خائفاً، بل إنه (صلوات الله وسلامه عليه) كان يعرف بما سيؤول إليه مصيره، وكان يستشعر الموت، وهناك عدّة إرهاصات لهذا، ومنها أنه عليه السلام صرّح بهذا وهو على منبر مكّة يخطب الناس فقال: **«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن**

---

(١) الرعد: ٣٥. (٢) التوبة: ٧٢.

(٣) حصر: أي ارتُجّ عليه في الكلام. العين ٣: ١١٣ ـ حصر.

(٤) بحار الأنوار ٤٥: ٦، حياة الإمام الحسين عليه السلام (القرشي) ١: ٤٢٤.

أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

فما الذي دعاه للخروج إذن؟ لقد خرج لأنه عرف أن هدفه لا يتحقّق في المدينة، حيث مرَّ بالناس وأعلن لهم عن نهضته المباركة مختبراً إيّاهم، فلم يجدهم كما أراد. كما أن الذين آزروه في هذه النهضة المباركة لم يكن أحد منهم من أهل المدينة سوى عدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليد.

فالحسين عليه السلام حامل رسالة السماء، ولم يخرج بدافع تحصيل رغبات مؤقّتة، وقد طلب عليه السلام التربة الخصبة لينبت بها بذرة ثورته، فأراق الدم الطاهر في كربلاء، ليتفاعل مع الزمن والتربة كي يأخذ هذا الدوي:

أيا كربلا يا هديرَ الجراحِ ... وزهوَ الدمِ العلويِّ الأبيْ
وياصرحَ مجدٍ بناه الحسينُ ... وأبدع في رصفِه المعجبِ[2]

فأراق دماءه الزاكية ودماء عترته أهلِ بيته وأصحابه على تلك التربة الطاهرة؛ لتأخذ هذا الأثر، فأخذت تتفاعل مع الحدث. ولذا فإن المحرم ما إن يمرّ بنا في كلّ عام حتى يجلو لنا صورة من الصور التي حدثت في

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٣٩، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨.
ومنها حواره عليه السلام مع الأكبر حينما هوّمت عيناه وهو في طريقه من المدينة إلىٰ كربلاء، فسمع قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.
(٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

واقعة الطفّ، ويشدّنا لذلك التراب.

كأن كــلَّ مكــان كــربلاءُ لدىٰ عــيني وكـلَّ زمـانٍ يـومُ عـاشورا

* * *

أعـد ذكـرَهم فـي كـربلا إن ذكـرَهم طوىٰ جزعاً طـيّ السـجلّ فـؤاديـا[1]

ولذلك فإن زينب عليها السلام عندما وقفت إلى جانب أخيها أبي عـبد الله، وهـو يستطلع وادي كربلاء أول مقدمهم إليها قـالت: أبـا عـبد الله، إن قـلبي قـد استوحش من هذا الوادي. فقال لها: **«أُخية هوّني عليك، فهذه تربة ادّخرت لي، ومصرعي قد اختير لي فيها»**.

فهذه التربة ستحمل عبق تلك الرسالة، وفعلاً أراق الحسين عليه السلام ذلك الدم الطاهر على ذلك التراب، وكان من آثاره أنه إذا وقف الإنسان عـلى هـذا التراب تبادرت إلى ذهنه خيوط من واقعة الطف؛ لتشدّه إلى تلك المـواقـف التي وقفها الإمام الحسين عليه السلام: **«والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد»**[2].

وقف عليه السلام ثَمّة على تربة كربلاء يمثّل أسمىٰ معاني العزّة والكرامة، إلىٰ أن سقط وجراحاته تشخب دماً عبيطاً، فرمق السماء بطرفة وقال: **«صبراً علىٰ قضاك، ولا معبود سواك»**[3].

تركت الخلق طرّاً في هواكـا وأيـتمت العـيال لكـي أراكـا

---

(١) ذوب النضار: ١٠.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

(٣) ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

فـلو قـطّعتني بـالحبّ إربـاً   لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا[1]

فتناهىٰ إلى مسامعه الكريمة صوت من المخيم: «يابن أُمّي ياحسين، نور عيني ياحسين، أخي أن كنت حيّاً فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت عـلينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله»[2]. ولم يكن عليه السلام بالذي يقدر علىٰ تلبية ندائها، فقام وسقط ممّا ألمّ به من أثر الجراح:

نايم يخو زينب يراعي   ما هـيجنك هـالنواعـي

* * *

وحـــائراتٍ أطـــارَ القـــومُ أعـــينَها   رُعـــبَاً غَـــدَاةَ عَـليها خِـدرَها هـجموا

عجَّتْ بهم مُذْ على أبـرادِهـا اخـتَلَفَت   أيـدي العـدوِّ ولكـن مـن لهـا بِـهُمُ[3]

---

(١) لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك. انظر تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٣) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

﴿ ١١٠ ﴾

أنصار الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: لماذا طلب النبي عيسى عليه السلام الأنصار؟

الإحساس عبارة عن إدراك المحسوسات والأشياء بالحاسّة، وهو تارة يقع على شيء قد حدث فعلاً، وأُخرىٰ يقع علىٰ شيء متوقّع الحدوث، فمثال الأول حينما يُدرك الرائي هذا المنظر بعينه أو بلمسه بيده أو بتذوّقه بلسانه، ومثال الثاني حينما يستنتج المرء عبر مجموعة من القرائن ما الذي سيحدث، وهذا هو الإدراك لشيء متوقع. والإدراك في الآية الكريمة من النوع الثاني؛ حيث إن النبي عيسى عليه السلام من خلال قرائن معيّنة استنتج وأدرك أن اليهود يريدون اغتياله، فلمّا أحسّ عليه السلام وأدرك أنه يراد قتله قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾.

---

(١) آل عمران: ٥٢.

لكن هل إنه﴿ع﴾ طلب الأنصار ليدفع عن نفسه القتل، أم لشيء آخر هو هدف أكبر من ذلك، أعني تحقيق رسالة الله؟ وهنا يكون المراد: من يعينني ليكون معي في تأدية رسالتي الإلهيّة السماويّة التي بعثني الله بها، وأمرني بتأديتها؟ وليس هو لدفع القتل عن نفسه.

إن دأب الأنبياء﴿عليهم السلام﴾ في طلب النصرة أنهم إنما يطلبونها لتحقيق رسالة الله جلّ وعلا، وليس للدفاع عن أنفسهم﴿عليهم السلام﴾ حتى لا يقتلوا، وإلّا فمن منّا يمكن أن يستثنىٰ من قاعدة القتل أو الموت؟

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعدّدت الأسباب والموتُ واحدُ[1]

وهنا ثلاث نواحٍ حول طلب الأنبياء﴿عليهم السلام﴾ النصرة أُحبّ أن أُشير إليها:

الناحية الأولى: لماذا لا يخاف الأنبياء﴿عليهم السلام﴾ الموت؟

إن الأنبياء﴿عليهم السلام﴾ لايريدون النصرة لغرض الدفاع عن أنفسهم حتى لا يقتلوا كما قلنا، وذلك راجع إلى سببين:

الأول: أنا ذكرنا أنه ليس هناك أحد يمكن أن يستثنىٰ من قاعدة القتل أو الموت ولا يخرج من هذه الدنيا.

الثاني: أن الخروج من الحياة إذا كان بالشهادة وفي سبيل الله فإنه سيكون في غاية الكمال ورقيّ الدرجات. وباختصار فإنه لا توجد نسبة بين الشهادة وبين الموت على الفراش، يقول الإمام أمير المؤمنين﴿ع﴾: **«إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من**

---

(١) البيت لأحمد بن نباتة. سير أعلام النبلاء ١٧، ١٣٤، البداية والنهاية ١١: ٤٠٨.

ميتة على فراش»[١]. ورحم الله أبا الطيب المتني حيث يقول:

ولوَ ان الحياة تبقى لحيّ لعددنا أضلّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ فمن العارِ أن تموتَ جبانا[٢]

فالذي يُستشهد من أجل الرسالة هو الذي ينتزع الخلود. فالنبي عيسى عليه السلام طلب الأنصار لأجل أن يعينوه على أداء الرسالة.

الناحية الثانية: الخضوع للسنن والأسباب الطبيعيّة

فالأنبياء عليهم السلام عندما يريدون النهوض بأمر ما فإنهم لا يغفلون عن حقيقة أنّ الله تعالى ربط الأسباب بمسبِّباتها، بل هم عليهم السلام يدركون ذلك تمام الإدراك. فالله تعالى قادر على أن يخلق بالسبب وبغيره، فلماذا أمر الإنسان بأن يتزوّج؟ إن الإنسان حينما يتزوّج فإنه سيحصل من اللقاء بين الأب والأمّ ولد، وهذا الولد هو ثمرة الزواج الذي أراده الله تعالى وأمر به. وهذا ماندعوه بالسبب الطبيعي، مع أن الله عزّ وجلّ يستطيع أن يخلق ابتداءً كما قلنا، ولا يحتاج للأبوين في عمليّة الخلق هذه؛ حيث إنه تعالى خلق من أم بدون أب مثل رسوله عيسى عليه السلام[٣]، وخلق من أب دون أم مثل فحل النخل، وخلق من دون أب ولا أم مثل آدم وحوّاء، وخلق من الأبوين كما هو المألوف في عمليّة التكاثر الجنسي عند أغلب الكائنات الحيّة، والتي هي الصفة الغالبة فيها.

من سمات السنن الطبيعيّة

فالله تعالى إنما ربط الأسباب بمسبّباتها؛ كي تتّسق أحوال العالم، ويسير

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣. (٢) ديوان المتنبّي: ٤٧٤.

(٣) وكما هو الحال في بعض الكائنات البحريّة وبعض النباتات التي تتكاثر تكاثراً لا جنسياً، وهو المسمّى بالتكاثر الخضري.

على نُظُم السنن الطبيعية وقوانينها التي خلقها وأودعها فيه. ومن السنن الطبيعية أن النهضات تحتاج إلى أنصار وأعوان، فالرسول ﷺ بقي في مكة فترة ثلاث عشرة سنة ولم يقم بحالة حربية، وإنما كان المسلمون في حالة دفاع، لكن لمّا هاجر ﷺ إلى المدينة والتفّ حوله أنصاره فإنه آنذاك بدأ يتطلّع للقتال وللهجوم. فهؤلاء الأنصار إنما كانوا مع النبي عيسى عليه السلام بطلب منه؛ حتى ينصروا رسالته الربّانيّة. وهذا من باب ربط الأسباب بمسبِّباتها من قبل الله عزّ وجلّ.

الناحية الثالثة: أن في كثرة الأنصار نوعاً من التزكية

أي أنه إذا كان مع المصلح أنصار كثيرون أُولو قيمة ومكانة اجتماعية مرموقة فإن هذا يعدّ شهادة تزكية لحركته على أنها صحيحة، وأن تحرّكه صواب، وهدفه سليم. أي أن هذا يصبغها بصبغة المشروعيّة من وجهة نظر الناس على أقلّ تقدير؛ حيث إن معه هؤلاء الخيرين. ولذلك فإنه إذا كثرت جماعة إنسان مع كونهم أهل استقامة ودين فنحن نقول: إن هذا الرجل على صواب؛ لأن هذا ممّا يزيد في رصيد حركته.

ونرجع إلى الأنبياء عليهم السلام فنقول: إنّ أداءهم رسالتهم يحتاج إلى أنصار يمدّونهم بالعَون، وقد التفت المشركون من قبلُ لهذا المعنى فقالوا للنبي شعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[1]، أي لولا جماعتك الذين أعطوك منعة وعزّة ونصرة لضربناك.

خلاصة المبحث

فطلب الأنبياء عليهم السلام الأنصار إذن يكون لأهداف:

---

(١) هود: ٩١.

الهدف الاول: الذود عن العقيدة.

الهدف الثاني: أنهم شهادة تزكية.

الهدف الثالث: انهم سيعرّضون إلى ثواب الله.

الهدف الرابع: أن في ذلك خضوعاً للسنن والأسباب الطبيعيّة.

ولذلك فقد انبرى الحواريّون (رضوان الله عليهم) لإجابة دعوة نبي الله عيسى عليه السلام.

المبحث الثاني: معنى الحواريّين

والحواري مشتقّ من الحَوَرْ، وهو شدّة البياض عندما يمتزج بالسواد، فيقال: عين حوراء، إذا اشتدّ بياضها مع سوادها[1] وإن كانا قد التقيا. فهذه الثلّة والنخبة من الأصحاب لقبوا بهذا اللقب للنقاء الذي كانوا يتّصفون به، ولنظافة قلوبهم.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله يعبّر عن الزبير بن صفيّة ابنة عبد المطّلب بقوله: **«هذا ابن عمّتي وحواريّ من المسلمين»**[2]. لكن للأسف كانت له خاتمة عجيبة، وإلّا فإن مواقفة كانت مع خطّ الرسالة ومع النبي صلى الله عليه وآله، غير أن ابنه عبد الله وعوامل قويّة أُخرى أثّرا عليه، وحالا دون التزامه موقفه ذلك والثبات عليه. وكان مصرعه تافهاً، فقد كان يصلّي في وادي السباع، بعد أن ترك المعركة؛ لأن الإمام علياً عليه السلام ذكّره بما كان الرسول صلى الله عليه وآله يقوله في شأنه عليه السلام. وكان أن جاء إليه عمرو بن جرموز وقال له: أنت الذي أشعلت نار

---

(١) العين ٣: ٢٨٨ ـ حور.

(٢) التبيان ٢: ٤٧٣، فضائل الصحابة (ابن حنبل): ٣٣.

الحرب ثم تتركها؟ فلمّا أبى أن يذهب للقتال طعنه برمحه وقتله(١).

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، فهي إنما ترسم لنا الصورة الحقيقيّة الواضحة للحواري، وتفصح عن دوره الذي سيمارسه في الحفاظ على الدعوة.

المبحث الثالث: دور الأنصار في حياة الأنبياء

والأنصار جمع النصير، مثل أشراف وشريف(٢)، وهؤلاء قد ينصرون على الأمر المادّي أو على الأمر المعنوي. فلننظر لهذا التقرير لدور الأنصار من المنظار الذي كان عليه أنصار النبي ، ولنرَ جهة الاعتبار بالنسبة لصحبة النبي عندما كثر أصحابه، وكيف أنها عند الله جهة استقامة، في حين أنها عند البعض غير ذلك؛ فإذا كان عند هذا البعض مال كثر أصحابه وجماعته، أما من لا يملك مالاً فيعبّرون عن أتباعه بالأراذل: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾(٣). فهؤلاء يقولون هذا للنبي لأنهم ليس همّهم الاستقامة في شيء مطلقاً، وإنما كلّ همّهم هو المال. والحال أن الصحابة الذين التفوا حول نبينا .. أولئك الروّاد الأوائل الذين نأكل من ثمارهم الآن، وبجهدهم استمرّ الإسلام حيث ضربوا أروع الأمثلة في التضحية لم يكونوا إلّا فقراء متواضعين لله جلّ وعلا.

ونقرأ صوراً إيمانية لهذه النخبة الكريمة التي تأسّت بالرسول وجعلته

---

(١) الفصول المختارة: ١٤٤، رسائل المرتضى ٤: ٧٢، الطبقات الكبرى ٣: ١١٠.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ٢٧٢. (٣) هود: ٢٧.

مثلها الأعلى، وهي صور تهزّ الإنسان من أعماقه، ومنها ما روي من أن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل أسود حبشي إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، قد فُضّلتم علينا بالألوان وبالصور (الملامح) وبالنبوّة، أترى إذا اتّبعت دينك وعملتُ بما عملتَ أنت، أكائن أنا معك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ **«بلى والذي نفسي بيده، وإنه ليُرى بياض الأسود وضياؤه في الجنة من مسيرة ألف عام»**.

فأسلم الرجل وحسن إسلامه ولازم النبي ﷺ، حتى نزلت سورة: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**[1].

وهنا أودّ أن أُشير إلى أن الصحافي المصري محمداً التابعي حينما يمرّ بكلام الدكتورة بنت الشاطئ في تناولها لشرح هذه السورة وتقريرها أنها نزلت في الخمسة أصحاب الكساء[2]، وهم النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث نزلت السورة بمناسبة النذر المعروف، فإنه يعقب على كلامها بقوله: إن التفسير الذي تروي عنه ما هو إلّا خرافات، كتفسير النيسابوري[3] وتفسير الزمخشري[4]، وإن هذه السورة لا علاقة لها بهؤلاء[5]، وإن الدكتورة بنت الشاطئ تخرّف بهذا الخصوص، والمفروض بها

---

(١) الإنسان: ١.

(٢) انظر: المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٣) أسباب نزول الآيات: ٢٩٧. (٤) الكشّاف ٤: ٦٧٠.

(٥) قد مرّ أن ابن تيمية هو الذي أثار هذا الأمر، وحاول من خلاله نفي هذه الفضيلة عن أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا بما حباهم الله به لا يضيرهم إنكار فضيلة من فضائلهم، لكنه الحقد:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها ... فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

أن تعرف اختصاصها، وأن هذا ليس من عملها.

ونسأل: لماذا هذا التحامل على أهل بيت النبي؟ إن عندنا ركاماً هائلاً من التعمية والحقد والتزوير يجثم على صدر التأريخ الإسلامي، ولا بدّ من إزالته كي تعرف الأجيال المسلمة حقائق التاريخ الحقيقي المشرّف والناصع، وتستفيد منه في حياتها، وتتلاقح مع التجارب المارّة فيه؛ وإلّا فإن المسلمين كافّة هم من سيكون الضحية. فلماذا نمنعهم إذن من أن ينهلوا من هذا المعين الصافي والمنهل الطاهر، منهل الرسول وآله؟

على أيّة حال، لما نزلت هذه السورة: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

☚ وقد صرّح به في مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩، ومن مظاهر حقده ما بثّه في كتبه. انظر منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣ في مكان نزول هذه الآية الكريمة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ من كتابنا هذا.

قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[1]، جاء الرجل الأسود يسمع الآيات الشريفة، ثم قال للنبي ﷺ: يارسول الله، وإن عينيَّ تريان ماتراه عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «**بلى والله**». فرفع رأسه وفاضت روحه الطاهرة.

فهذه صورة إيمانية تهزّ الإنسان من أعماقه، قال عبد الله بن عمر: فقام النبي ﷺ بتجهيزه، وإنزاله إلى القبر، وسمعته يقرأ هذه الآية: **﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾**[2]. فقلنا: ما الخبر يارسول الله؟ فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد أوقفه الله وقال: أي عبدي، وحقّي لأبيّضنّ وجهك ولأبوّئنّك من الجنة حيث تشاء**»[3].

فتأمّل هذه الصورة الرائعة، حيث حظي هذا الصحابي وأمثاله بهذه المنزلة الكبرى، وهي القرب من رسول الله ﷺ، ولم يخالفوه، فكان جزاؤهم هذا.

رجـع

فالنبي ﷺ لم يلجأ إلى القتال أول بعثته؛ لأنه لم يكن لديه في مكّة أنصار فيهم الكفاية لأداء هذه المهمّة والقيام بها، لكن حينما هيّأ الله تعالى له من يتّبعه عن إيمان وعقيدة، وأصبح له أنصار بحقّ أخذ باستعمال هذا العلاج.

---

(١) الإنسان: ١ ـ ٢١. (٢) الإنسان: ٢٢.

(٣) المعجم الكبير ١٢: ٣٣٤، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٨.

من هم الأنصار؟

ثم إن عندنا صنفين من الأنصار؛ مهاجري مكّة، وأنصار المدينة؛ ذلك أن المهاجرين هم أنصار أيضاً لكنهم كانوا إلى جانب النبي ﷺ في مكّة، وكان عددهم قليلاً، لكن الذين وقع عليهم عبء القتال وإقامة الدعوة بعد ذلك هم أنصار المدينة (الأوس والخزرج). وهكذا اختصّ مصطلح المهاجرين بأهل مكّة، فيما اختصّ مصطلح الأنصار بالأوس والخزرج.

محاولات التفريق بين الأنصار والمهاجرين

ولم يرُق المنافقين ما كان عليه الأنصار من أهل المدينة والمهاجرون من حبّ ووئام ووفاق؛ فراحوا يعملون جاهدين في حياكة المؤامرات؛ لخلق نوع من الحساسية بين الطرفين، فلعبوا دوراً كبيراً في تخريب العلاقة بينهما، وإلقاء بذور الفتنة في بعض الأحايين. واستمرّت آثار هذا الخلاف بعد ذلك وإن كانت كمينة. وبالنتيجة كانت هناك عدّة محاولات منهم لتخريب هذه العلاقة بينهم، وتمزيق وحدة الصفّ الإسلامي. ونذكر من هذه المحاولات وآثارها السلبية:

الأولى: قضيّة فيء بني النضير

وهي قضيّة تمثّل أبرز مظاهر الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، فقد كان فيء بني النضير يعود للنبي ﷺ خاصّة، لكنه ﷺ رأىٰ أن التوازن في المجتمع مختلّ، حيث إن بعض المسلمين (وهم أنصار المدينة) كان عندهم مزارع وتجارة، والمهاجرون لا يملكون شيئاً، لأن قريشاً قد سلبتهم كل أموالهم، فوزّع ﷺ الفيء على المهاجرين فقط دون الأنصار[1].

(١) انظر: شرح الأخبار ١: ٣١٨، مسند أحمد ٣: ٥٧، ٧٦، ٢٤٦، ٤: ٤٢، صحيح البخاري ٥:

فاستغل عبد الله بن أُبي هذه النقطة هو والمنافقون من أتباعه، فأخذوا يدورون بين الأنصار ويقولون: لقي محمد حزبه وأعطاهم المال، يأخذ ممّا أفاء الله عليه بأسيافنا، ويعطيه لجماعته، والله **﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾**[1].

فوصلت الكلمة إلى رسول الله ﷺ، فلم يردّ عليه وقتها، وكان قد قرّر أمراً. ولمّا سمع ابن عبد الله بما قال أبوه وقف له بباب الدار في المدينة عندما رجع وقال له: والله لا تدخل البيت حتى يرضى عنك رسول الله ﷺ، وحتى تعرف من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ. ثم جاء فدخل على النبي ﷺ وقال له: روحي لك الفداء، لقد سمعت ما قال أبي، وعلمت أنك متألّم لذلك، وأنك تريد أن تقتله، فلي عندك رجاء. فقال رسول الله ﷺ: **«ما هو؟»**. فقال: إذا أردت قتله، فأطلب منك أن أتولّىٰ ضرب عنقه. قال ﷺ: **«لماذا؟»**. قال: لأمرين:

الأول: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل آباءنا وأبناءنا.

والثاني: أني أخشىٰ أن تدركني حميّة الجاهليّة، فأقتل قاتل أبي لعلّي لا أصبر علىٰ رؤيته إذا رأيته، فأرتدّ عن الإسلام[2]. فعفا عنه الرسول الأكرم ﷺ إكراماً له.

الثانية: حرب أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية وملابساتها

واستمرّ الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، وقد ساعدت عليه عوامل أُخرى منها أن كلّ الأنصار كانوا إلى جانب علي بن أبي طالب في صفين،

☚ ١٠٤، ١٠٥، البداية والنهاية ٦: ٢٠٨.

(١) المنافقون: ٨.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥، جامع البيان: المجلّد ١٤ ج ٢٨: ١٤٢ ـ ١٤٨.

وكان لمعاوية رجل واحد من الأنصار وهو البشير أبو النعمان الذي انضمّ إلى أبيه فيما بعد، وهو والي عبيد الله بن زياد على الكوفة حينما دخلها الإمام الحسين﵇.

فالذين كانوا إلى جانب الإمام علي﵇ كان عليهم أن يدفعوا الثمن، وأي ثمن هو؟ إن الأُمويّين حينما أرادوا كتابة التاريخ كانوا كلّما مروا بالأنصار أو بالإمام علي بن أبي طالب﵇ أعرضوا عن كلّ منقبة لهم، ولم يذكروهم بخير. كان خالد بن عبد الله القسري أحد الذين كتبوا التاريخ الإسلامي، وكان عنده كاتب، فقال له يوماً: هناك روايات تمدح علي بن أبي طالب وتمدح الأنصار، فهل أذكرها؟ قال: لا، لا تذكرها إلّا أن تجدهم في قعر جهنم.

ودفع أبناء الأنصار[1] جزءاً من الثمن، وهو أن الذين قتل آباؤهم في صفين قطع معاوية عنهم عطاءهم، وأماتهم جوعاً، مع أن أولاد الشهداء لهم ضمانات ماليّة من بيت المال حتى يخرجوا من مسمّى اليتم. ثم أخذوا يلاحقونهم ملاحقة شديدة ويهدّدونهم.

وحينما جاء معاوية للحجّ وخرج الناس لاستقباله، لم يخرج معهم أحد من الأنصار، فحاول الوالي إكراههم على الخروج لاستقباله، وانتهىٰ الأمر إلىٰ قيس بن سعد بن عبادة، فأبىٰ أن يخرج، لكنهم أجبروه علىٰ ذلك فخرج.

وكان عمرو بن العاص إلىٰ جنب معاوية الذي استقبله، فرأى أنه قد أتىٰ

---

(١) الذين قال رسول اللهﷺ فيهم وفي آبائهم: «فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». شرح الأخبار ١: ٣١٨، مسند أحمد ٣: ٥٧، ٧٦، ٢٤٦، ٤: ٤٢، صحيح البخاري ٥: ١٠٤، ١٠٥، البداية والنهاية ٦: ٢٠٨.

وحده، فقال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ليس عندهم رواحل. فقال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يريد أنهم أهل زراعة). فقال له قيس: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: علىٰ رسلك، إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[1].

فكانوا يلاحقونهم في كل شيء، ولكن هذا لا يضيرهم. وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله يعبّر عنهم بقوله: **«عيبتي»**[2]. وقد كانوا أحبّاء الرسول صلى الله عليه وآله الذي أغدق عليهم المنزلة تلو المنزلة بما لا حدود له. وكانوا صحابة كراماً، وقد بذلوا كل ماعندهم من دم ومال وعطاء في طريق الاسلام[3]. فهؤلاء أنصار الله جلّ وعلا.

نماذج من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام

أمّا أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فنذكر منهم بعض النماذج،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥، باختلاف عنها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ومنها أن فنحاص بن عازورا أحد رؤساء اليهود كان يمشي يوماً في المدينة، فوجد الأوس والخزرج جالسين متصافين، فلم يرُق له ذلك، فجلس عندهم وقال لأحد رجال الأوس: أنسيت حينما حدثت بينكم وبين الخزرج معركة فقام شاعر الخزرج وشتمكم فقال فيكم كذا وكذا؟ ثم التفت إلىٰ الخزرج وقال لهم ما قال للأوس. وأخذ يُذكّر كلاًّ من الطرفين بما يثير الحميّة في نفسه حتىٰ صاح أحدهم: يا للأوس، وصاح الآخر: يا للخزرج. فتداعوا إلىٰ السلاح حتىٰ أوشكوا أن يتقاتلوا. فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله فخرج إليهم وقال: «أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها جاهليّة منتنة». أسباب نزول الآيات: ٧٧، الدر المنثور ٢: ٥٨.

وإن كان في التاريخ ثغرات افتعلها الحقد. ومن هؤلاء الأنصار عمار بن ياسر الذي استشهد في واقعة صفين، وكان أبواه أول من استشهد في سبيل الإسلام حيث شدّتهما قريش للأوتاد، وعرّضتهما للعذاب: وطعنتهما بالحراب.

فابنهما عمار ثمرة هذا الزواج المبارك، وقد قال له النبي: **«يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»**[1].

فلمّا كان في يوم صفين استسقى، فلم يكن ماء، فسقي لبناً، فأخذه وقال: لا إله إلّا الله، لقد قال لي رسول الله: **«يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»**. وأخذ سيفه وقاتل قتال الأبطال حتّى صرع.

والغريب أن يصدر من المؤرخ الحافظ عندما يستعرض واقعة صفين قوله: وعندما قتل عمار مع علي اتّضح لنا أن الحقّ مع علي[2]. أي أن الحقّ لم يتّضح أنه لأمير المؤمنين إلّا عندما قتل عمار معه، ولولا ذلك لما عرفنا أن أمير المؤمنين على الحقّ. وهذا إجحاف به، وبنهجه القويم، فهو لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية ،وهو الذي يقول فيه النبي: **«أنت**

---

(١) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

(٢) قريب منه مقولة الشهاب الخفاجي: «وفي الحديث عنه: «إذا اختلف الناس كان ابن سميّة مع الحقّ». وابن سمية هو عمار، كان مع علي (كرّم الله وجهه)، وهذا هو الذي ندين الله به، وهو أن عليا (كرّم الله وجهه) على الحقّ، ومجتهد مصيب في عدم تسليم قتلة عثمان» وإن كان ـ حسب الظاهر ـ في دلالة الحديث أمر آخر.

نفسي التي بين جنبي»، مع أنه يرويها بنفسه. وهناك ثلاثمئة آية نزلت فيه‰، وترويها كتب التفسير، وإنّ عماراً قد اكتسب الشرف والمنزلة بولائه لأهل بيت النبي‰، وبصحبتهم.

إذن فأمير المؤمنين‰ إنما طلب الأنصار لا ليستعين بهم في القتال؛ فهو القائل: «**لو تظاهرت العرب على قتالي ماوليت عنها**»[١]، والقائل: «**إذا مكّنت عدوّي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقىٰ علَيّ**»[٢]. وهو‰ تصدِّقه مواقفه، فلو أراد لكفاه سيفه، فلماذا إذن يحرص على تحصيل مجموعة من الأنصار؟

الهدف كما قلنا هو الإعانة على أداء رسالته، والمشايعة له في الرأي. أي أنه‰ إذا التفّ حوله مجموعة من الأبرار فإنهم سيعطون للناس انطباعاً بأن طريق الحقّ هو هذا. لنروِ محاورة بين عقيل بن أبي طالب ومعاوية، فمعاوية يسأل عقيلاً: أنت مررت بجيش علي بن أبي طالب، ثم مررت بجيشي، فهل تستطيع أن تعطيني ملامح كلا الجيشين؟ فالتفت إليه وقال: مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب‰ فما رأيت فيهم إلّا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، ونهارهم كنهار رسول الله وليلهم كليل رسول الله، فكأنه جيش رسول الله‰، ولكن الرسول‰ ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله‰ ليلة العقبة؛ حيث يوجد الطليق وغيره[٣].

فسكت معاوية حيث إنه لم يرَ في جماعته سوى الطريد وغيره من أمثال

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٧٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم: ومن حذا حذوهم من هذه النماذج. في حين أننا نرى النماذج الخيّرة والصالحة هي التي تقف إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.. أُولئك الأبرار والأتقياء.

الأقلام المأجورة

هناك من ذوي الأقلام من يكتب ويقول: ما الذي دفع بعلي للقتال؟ أو لم يكن الأفضل له أن يجلس في المدينة بدلاً من أن يسفك دماء المسلمين؟

والحقيقة أن هذا كلام حاقد؛ لأن ما يهم الإمام علياً عليه السلام هو إبراز وجه الحقّ، ولتقل الناس فيه بعد ذلك ما تقول، يقول عليه السلام: **«لا تستوحشوا في طريق الهدىٰ لقلّة أهله»**[1] ولو كنتم وحدكم؛ لأنكم مع الحقّ. فروّاد الحقّ دائماً هم الأقلّية، فلذا كان له مجموعة من الأنصار غاية في الرفعة، فتجد حجر بن عدي الكندي وآل العبدي والأصبغ بن نباتة وآل نباتة.. وهذه الأُسر الناصعة ذات التاريخ المشرق والمواقف المشرّفة.

المبحث الرابع: نماذج من أنصار الحسين عليه السلام

ومن بعد هذا السرد نأتي إلى صحابة الإمام الحسين عليه السلام، وهؤلاء ولو أنهم (رضوان الله عليهم) كانوا قلّة، لكن عند التأمل في معطيات حياتهم وسيرتهم نجد أنهم كانوا على جادّة الحقّ والصواب بوقوفهم إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام. فلنلقِ نظرة عليهم؛ لقد كان مع الحسين عليه السلام بعض من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهم بدريّون، وهذا من دواعي الاستغراب الذي تثيره تساؤلات بعض من الكتّاب الذين يقولون: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام للقتال، فإنه

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠١.

إنما يرمي بنفسه إلى التهلكة؟

فوجود أهل بدر يبدّد هذا التساؤل؛ حيث إنه لا يمكن أن ينحرف واحد منهم عن جادّة الصواب. هذا بعد التنزّل إلى كون الإمام الحسين‌ﷺ يحتاج في تزكية ثورته إلى وجود جمع من البدريين فيها، وكان منهم مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر الأسدي، وغيرهما. كما أنه‌ﷺ كان معه مجموعة من التابعين.

ثم إنه‌ﷺ نفسه كان من الصحابة، وهو سيّد شباب أهل الجنة[1]. أفلا يكفي أنه‌ﷺ كان على طريق الحقّ؟ لقد خرج‌ﷺ ولم يكن معه العدد المفروض وجوده من الأنصار في أمثال هذه الثورات والتحرّكات، لكن هذا كان يحصل حتى مع الأنبياء‌ﷺ عندما لا يتوفّر عندهم العدد الكافي للتحرّك، فهم مع هذا لا يتركون هذا الأمر الإلهي وإن قلّ أنصارهم؛ إذ أن هذا الأمر لا يقدح في نبوّتهم. فالحقّ أنه لايخدش مشروعيّة حركتهم أن الملتحقين بهم عدد قليل[2]؛ فغالباً ما تكون القلّة هي صاحبة الحق وهي المميّزة.

فالإمام الحسين‌ﷺ خرج مع مجموعة من الصحابة بلغ عددهم سبعين رجلاً، وكانوا يمثّلون نخبة العالم، وأفلاذ كبد الدنيا، والتاريخ ينحني لذكرهم. وكانت قريش تقول للنبي‌ﷺ: إن صحابتك قد اتّبعوك لأنهم وجدوا عندك خيراً.

وهنا يشكل البعض فيقول: إذا كان مع النبي‌ﷺ رجال من هذا الأنموذج

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٢) هذا في واقع الأمر وإن كان في نظر جهلة الناس خلاف ذلك.

فأليس في أصحاب الحسين عليه السلام من مثل هذا النوع؟

وهذا الإشكال باطل؛ ذلك أن الذين خرجوا مع الإمام الحسين عليه السلام هم رؤوساء رهطهم، وأصحاب رئاسة ومكانة، وذوو شرف في قومهم. كما أنهم ممّن عُرف بالدين والعلم والخلق. والإمام الحسين عليه السلام زادهم شرفاً إلى شرفهم بوقوفهم معه ضدّ الظلم والطغيان.

وقد توّجهم بهذا الشرف ليلة العاشر من المحرّم عندما وقف وقال: **«أصحابي، أُثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللهم لك الحمد على أن وهبتنا أسماعاً وأبصاراً، وجعلت لنا أفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين. أمّا بعد: فإني لا أرى أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عنّي خيراً. ألا وإني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً»**(١).

وتوّجهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله في الزيارة المرويّة عنه: **«بأبي أنتم وأُمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم، وفزتم والله فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»**(٢).

وهذه مكانة كبيرة يتمنّاها كلّ طامح إلى الخلود، وكذلك يخاطبهم (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه) بقوله: **«السلام عليكم أيها الأرواح**

---

(١) انظر حواريّة الإمام الحسين عليه السلام مع إخوته وأصحابه (رضي الله عنهم) في الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٢٣.

التي حلّت بفِناء قبر الحسين وأناخت برحله»[(١)].

ثم وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرّم ليكرّمهم (رضوان الله عليهم)، فقد كان عليه السلام كلّما سقط منهم قتيل أتى إليه وتوّجه بعبارات الثناء، حتى جون (العبد) حينما سقط على الأرض أقبل إليه ووضع يده الشريفة تحت رأسه، ورفع رأسه إليه، وانحنى عليه يقبّله، ففتح عينيه وقال: أبو عبد الله يضع وجهه على وجهي! من مثلي وقد وضع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله خدّه على خدّي؟ فأخذ الإمام الحسين عليه السلام يسمح الدم والتراب عنه ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[(٢)]. ثم وقف ينادي: **«أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟»**. وأخذ يعدّد أسماء أحبّائه وأعزّائه: **«مالي أُناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون؟ أولستم قد طلّقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»**[(٣)].

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ ... أقمار تسبح في غدير دماءِ



(١) بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفى: ١٢٥.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

(٣) معالي السبطين ٢: ١٩، شجرة طوبى ٢: ٣١.

المحتويات

